تصدير

قصيدة « الناظرين »

بقلم الدكتور محمد مهدى علام
المشرف على المجلة

كان ذلك منذ ستين سنة ، إلّا قليلًا . كنت يومئذ أستاذًا بدار العلوم ، وأستاذًا منتدبًا بقسم التخصص بالأزهر . وكنت ألقى محاضرتين (٨ – ١٠ صباحًا) ، بدار العلوم ، وأمشى إلى الحلمية ، حيث كان قسم التخصص فى شارع البرمونى (به الآن معهد أزهرى) . وكان بمدرسة « التجهيزية لدار العلوم » ، الملحقة بمقر القسم العالى ، فى المنيرة ، مدرس يغادر المبنى فى الوقت الذى أغادره فيه . وكان طريقنا واحدًا حتى قبيل آخره . وعرّفنى بنفسه : أنه محمود محمد ناصف[1] ، المدرس بتجهيزية دار العلوم ، وبالمدرسة الإبراهيمية الثانوية . وأنه لأسباب أهمها أنه كان شديد التحرر – فى ذلك الوقت – غضبت عليه الوزارة غضبة (غير مُضَريّة) ، واكتفت بأن جعلت له جدولين ، أحدهما فى تجهيزية دار العلوم ، والآخر فى الإبراهيمية الثانوية بجاردن سيتى .

وكنا نقطع الطريق (نحو ٢٥ دقيقة مشيًا) فى أحاديث أدبية ، فقد اتضح لى أنه شاعر ممتاز ، وإن لم يكن ذائع الصيت (خارج دائرة وزارة المعارف التى كانت تعرف فضله). وتبادلنا شعرنا على مدى الأيام التى جمعت بيننا فى شوارع القاهرة ، من المنيرة إلى جاردن سيتى .

---

(١) تخرج الأستاذ محمود محمد ناصف من دار العلوم سنة ١٩٠٦ ، وتنقل فى وظائف التدريس بالمدارس الثانوية . أحيل إلى المعاش سنة ١٩٣٧ ، وتوفى سنة ١٩٤٢ (١٨٧٩ – ١٩٤٢) « تقويم دار العلوم » لمحمد عبد الجواد ص ٣٨٣ – ٣٨٤ وكثيرا ما يخلط بينه وبين سمى له (الأستاذ محمود أحمد ناصف) الذى كان أستاذا فى دار العلوم العليا تخرج سنة ١٩٠٩ تقويم دارالعلوم ص ٥١٦ – ٥٩٧ .

ونَقلتُ عنه قصيدة له بعنوان « الناظران » يصف فيها وضعه فى المدرستين اللّتين كان يعمل فيهما فى وقت واحد ، تحت سلطة الناظر فى كل منهما. وقد وضعتها بين مختاراتى فى كتاب طبع منذ أكثر من نصف قرن[1] . وأعتقد أننى أُقدمها الان مُتْعة أدبية لقراء المجلة :

النّـــاس دونى ، إذ لهم ناظر ... فَرْدٌ ، ولى من دونهم ناظرانْ
كلاهُمَا إنسَـــانُ عين ، ولى ... عليهمـــا الرِّفق إذَا ينظران
ورأسُ مالى أن يدوما معًـــا ، ... فلَيْس يَجزِىعنهُمَـــا آخرَان
وإنْ يمسَّ الدَّهْرُ لى جـــانبًا ... يَقُمْ بنصــــرى منهمـــا ناصران
وإنْ طلَبْتُ الزّيْدَ فى رتبتى ... يشـــهدْ بمـــا أُدْلى به عادلان

* * *

تَنَازعانى ، والهـــوى واحد ، ... فليس غيرىمن لهُ عاشِـــقَان
رَضِيتُ ما يُرْضيهما ، إذ هما ... بمـــا أُلاَقى فيهما شـــاعران
لو كَلّفانى نقْلَ رَضْوَى لمـــا ... فَعَلْتُ إلّا ما بهِ يأمـــران
وإنْ يَقُولَا : ادأَبْ بلَا فترة ، ... دأبتُ حتى يتعبَ الدّائِبَـــان
لَيلًا نهـــارًا لَسْتُ أُبْقى علَى ... نفسى ، وَلَا أَنْبَتُّ إذ يُجْهِدَان
فإنْ لى عَظْمًا حـــديدًا ، ولو ... يدُومُ فيه الضّربُ لَايُسْتلَان
وإنَّ لى رجْلَيْنِ من حَـــافر ... حَذَاهُما البيْطَـــارُ ، لَا تَحفَيَان
فَلَوْ أَرَادَا أَنْ أَكونَ لَذِى ... كليهمـــا فى ذاتٍ وقت لكانْ
بأَنَّ لى ذَاتَيْن ، ذات عَلَى ... وصْف لإنْسِىٍّ ، وأُخرَى لِجَانْ
بل إنْ يقُولَا : ادأَبْ دَوَاما ، وفى ... غـــيرِ زمان ، لَا أَمَسَّ الزمان

* * *

---

(١) « بين اليراع والقرطاس فى الشرق والغرب » ص ٦٠ — ٦٢ مطبعة دار العلوم ١٩٣٣

كأنّنى غدَوتُ من شِقْوتى	مُوكّل بى دائمًا حارسَانْ
أو أنّنى حَصلتُ فى ربقة	تجاذبا أطرافها يخْنُقان
أو أنّنى كالقِرْد ، فى جيده	حَبلٌ لهذا ، ثم حبل لثان
أو أنّنى بَهْم بَليد ، غدا	يُلِحّ فى استحثاثه ضاربان
أو أنّنى المشّاءُ ، ما إنْ يَنِى	فى السّعى حتى يَفْسُد الصّاحبان

أو أنّنى المُستاءُ من حظّه ،	مُستعْجلًا للمَوْتِ قبلَ الأوَان

— ٣ —

قد يُؤثَرُ الموْتُ على عِيشَة	ضَنْكٍ ، وحملُ الذُّلِّ لا يُستهانْ
لكنّنى باللهِ مُسْتَعْصِم ،	أرْضَى بما يَقْضِى ، ولَو بالهَوانْ
لا يَسْأمُ العَيشَ ، على ضَنْكِهِ	إلّا لَئِيم كافِر أوْ جَبانْ
ومَنْ أرَادَ الدَّهْرَ سِلْمًا لَهُ	فرأيُه فى العَيْشِ رَأْىُ الحسانْ
ما فضلُه ، إنْ لم تَقُمْ بَيْنَهُ	وبَيْنَ هذا الدّهر حَرْب عَوانْ

* * *

رحم الله صاحب « الناظرين » .

مهدى علام
نائب رئيس المجمع

القراءات واللهجات

للدكتور علي عبد الواحد وافي

من أهم أعمال لجنة اللهجات فى مجمع اللغة العربية البحث عن اللهجات العربية القديمة ، والكشف عما بينها من وجوه الخلاف فى شكل المفردات وفى أصواتها ومعانيها ، وتصريف المشتقات ووجوه الإعراب وطرائق الأداء . . . وما إلى ذلك ، وبيان ما تركته هذه اللهجات من آثار فى اللهجات العامية المتداولة فى الوقت الحاضر فى البلاد العربية وخاصة مصر .

ولتحقيق هذا الغرض تلجأ اللجنة إلى مراجع كثيرة ، من أهمها التراث العربى شعره ونثره . وهذا مرجع هام جداً ، ينبغى أن تتابع اللجنة الاعتماد عليه ، مع بذل مزيد من التحرى فى توثيق النصوص ، فقد يكون بعضها موضوعاً ، أو صادراً ممن لا يوثق بعربيته ، أو صادراً بعد عصور الاحتجاج ، أو يكون شكل مفرداته أو أعرابها أو وضع تراكيبه قد جاء لضرورة من ضرورات الشعر .

وأقترح أن توجه اللجنة فى هذا الصدد قسطاً كبيراً من العناية إلى قراءات القرآن الكريم ، وخاصة القراءات التى أجمع الباحثون على تواترها أو تواتر معظم ما جاء فيها ، لأن هذا المرجع موثوق به كل الثقة ، ولأن فى هذه القراءات مجالا كبيراً لاستنباط كثير من وجوه الخلاف بين اللهجات القديمة :

وذلك لأن معظم وجوه الاختلاف بين هذه القراءات يرجع إلى اختلاف اللهجات العربية ، وأن الشارع الحكيم قد قصد من تغير هذه الوجوه أن ييسر قراءة القرآن لمعظم قبائل العرب وبطونها التى كانت حينئذ فى الجزيرة العربية ، وفق ما درجت عليه ألسنة كل منها فى نواحى الأصوات والمفردات والاشتقاق والتراكيب وطرق الأداء . . . وما إلى ذلك .

ويدل على ذلك الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه « أن النبى عليه السلام كان عند أضاة بنى غفار (وهو

مستنقع فى المدينة كان ينسب إلى هذه القبيلة) فأتاه جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقرئ القرآن على حرف (أى على وجه واحد من وجوه لهجات العرب) ، فقال سل اللهَ معافاته ومعونته ، فإن أمتى لا تطيق ذلك ، (أى لأنها متعددة اللهجات فلا تطيق قراءة القرآن وفق لهجة واحدة) ثم أتاه الثانية ، فقال اقرأ على حرفين ، فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة بثلاث فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الرابعة فقال إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا » . (النووى على مسلم ١٠٣ — ٦) .

فهذا الحديث صريح فى أن الغرض الأساسى من اختلاف هذه الوجوه هو تيسير قراءة القرآن لمختلف القبائل ، حتى تستطيع كل قبيلة منها قراءته وفق ما درجت عليه ألسنتها. وذلك أنه يصعب على أفراد قبيلة ما الانتقال من طرائق لهجتها إلى طرائق لهجة أخرى . بل قد يكون ذلك غير مقدور عليه ألبته ، وخاصة فى طوائف الشيوخ والنساء والأميين ، وهذه الطوائف كانت تستقطب حينئذ معظم العرب . وما قلناه فى القبائل تقول مثله فى بطون القبيلة الواحدة .

وقد روى هذا الحديث من عدة وجوه ، وبلغ فى صحته حد التواتر ، حتى لقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده الكبير « إن عثمان بن عفان قد طلب يوماً ، وهو على المنبر يخطب الناس ، أن يقف كل من سمع هذا الحديث من الرسول عليه السلام ، فقاموا حتى لم يحصوا . فقال عثمان وأنا أشهد معكم إنى سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد اختلف الحفاظ فى تفسير كلمة « سبعة أحرف » ولكنهم مجمعون على أنها تتضمن تيسيراً لمعظم قبائل العرب ، التى كانت فى الجزيرة العربية فى ذلك العهد ، بأن تقرأ كل قبيلة منها وفق الحرف الذى اعتادته فى لهجتها . وهذا هو ما يهمنا فى موضوعنا .

هذا ، وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « سمعت هشام بن حكيم يقرأ (سورة الفرقان) على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكدت أساوره فى الصلاة . فتصبرت حتى سلم . فلببته بردائه ، فقلت من أقرأك هذه السورة التى أسمعك تقرؤها ، فقال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت كذبت ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت إن هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله . اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرؤها فقال كذلك أنزلت . ثم قال اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنيها . فقال كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » . (٢٠ — ٩ فتح البارى على صحيح البخارى) .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه أن « أُبَىّ ابن كعب قال دخلت المسجد أصلى ، فدخل رجل (هو ابن مسعود) فافتتح سورة النحل فقرأ فخالفنى فى القراءة . فلما انفتل قلت من أقرأك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم جاء رجل فقام وصلى فقرأ فافتتح النحل فخالفنى وخالف صاحبى ، فلما انفتل قلت من أقرأك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فدخل فى قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية . فأخذت بايديهما وانطلقت بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت استقرئ هذين . فاستقرأ أحدهما فقال أحسنت . فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية . ثم استقرأ الآخر فقال أحسنت . فدخل فى صدرى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية . فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى بيده ، فقال أعيذك بالله يا أُبَىّ من الشك » ثم تلا عليه الحديث السابق ذكره والخاص بإنزال القرآن على سبعة أحرف (النووى على مسلم ١٠٣ — ٦) .

فهذان الاختلافان (اختلاف عمر مع هشام بن حكيم واختلاف أُبَىّ مع ابن مسعود ورجل آخر) يدلان على أن الرسول عليه السلام كان قبل حدوثهما يقرأ القرآن على عدة وجوه . وكل ما هناك أن بعض الصحابة لم يكن قد سمع غير الحرف الذى كان يقرأ به ، ولم يكن قد بلغه الحديث السابق ذكره ، فظن فى مبدأ الأمر أن ماسمعه هو الحرف المتعين فى القراءة ، حتى هداه الرسول عليه السلام إلى الحقيقة .

وقد قلنا أن معظم وجوه الاختلاف بين القراءات يرجع إلى اختلاف اللهجات العربية ، ولم نقل أن جميع وجوه الاختلاف يرجع إلى هذا الغرض ، لأن طائفة من وجوه الاختلاف بين هذه القراءات لا ترجع إلى اختلاف اللهجات ، وإنما ترجع إلى أمور أخرى كالاختلاف فى إثبات حرف أو كلمة أو حذفهما (مثال ذلك : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » ، « وقالوا اتخذ الله ولداً » « فإن الله هو الغنى الحميد» فى سورة الحديد ، « تجرى من تحتها الأنهار » فى سورة التوبة ، بإثبات الواو فى الآيتين الأولين وإثبات هو فى الآية الثالثة وإثبات من فى الآية الرابعة فى قراءات وحذف هذه الأحرف والكلمات فى قراءات أخرى) . وكالاختلاف فى توجيه المعنى وجهه خاصة (مثال ذلك : « غلبت

الروم » ، « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ... » ببناء الفعلين للمجهول فى قراءات وبنائهما للمعلوم فى قراءات أخرى). — فهذه الأنواع وماشاكلها فى اختلاف القراءات لاتهمنا فى موضوعنا ، لأنها لا علاقة لها بما نحن فى صدد دراسته وهو اختلاف اللهجات.

هذا ، وأرى أن تتجه معظم عنايتنا إلى القراءات السبع المجمع على تواترها ، أو تواتر معظم ما جاء فيها (وهى قراءات ابن كثير ونافع وابن عامر وأبى عمرو بن العلاء وعاصم وحمزه والكسائى) والقراءات الثلاث التى يرجح الباحثون أنها متواترة كذلك (وهى قراءات يعقوب وأبى جعفر وخلف). — ومعنى التواتر أن معظم ما جاء فيها ثبت سماعه عن الرسول عليه السلام من جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب . فكل قارئ من هؤلاء القراء قد أخذ قراءته مشافهة من صحابى أو تابعى ممن سمعوا هذه القراءة عن الرسول عليه السلام . فعاصم بن أبى النجود مثلا قد أخذ قراءته — وفق مارواه هو عن نفسه — عن مصدرين : أحدهما الإمام أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السُّلمى وقد تلقى هذا قراءته عن عثمان بن عفان وعلى ابن أبى طالب وزيد بن ثابت وأُبَىّ بن كعب عن الرسول عليه السلام ؛ والمصدر الآخر هو الإمام زر بن حبيش عن ابن مسعود عن النبى عليه السلام . ورواية حفص عن عاصم تمثل ماتلقاه عاصم عن المصدر الأول ، ورواية شعبه عن عاصم تمثل ما تلقاه عاصم عن المصدر الثانى .

ولم يأت واحد من هؤلاء بشىء من عنده حتى إن كثيرا منهم قد أثر عنه قوله : « لولا أننى سمعت الآية على هذا الوجه لأمكن لى قراءتها على وجه آخر » ، و« لولا أن ليس لى أن أقرأ إلا بما سمعت لقرأت بحرف كذا وكذا » . ومن أجل ذلك حمل الحفاظ من القراء ورواة الحديث حملة شعواء على الزمخشرى فى نقده لقراءة ابن عامر : « وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قَتلُ أولادَهم شركائِهم » ، وظنه أن ابن عامر قد جاء بهذه القراءة من عنده بل كاد بعضهم يحكم بكفره . وفى ذلك يقول ابن المنير فى تعقيبه على كلام الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » « ولم يعلم الزمخشرى أن هذه القراءة قد قرأها الرسول عليه السلام على جبريل ، ثم رواها النبى على عدد من التواتر من الأئمة إلى أن انتهت إلى ابن عامر ، فقرأها كما سمعها . ولولا أن الزمخشرى ليس من أهل الشأنين (أعنى علم القراءة وعلم الأصول) لخيف عليه الخروج من ربقة الدين ، وإنه مع هذا العذر لفى عهدة خطرة وزلة منكرة » (٢/٤١ الكشاف فى تفسير القرآن للزمخشرى مع تعقيبات ابن المنير عليه) .

وأما ما يروى عن بعض أئمة القراءات السبع من عبارات يفهم منها أنهم قد تصرفوا باجتهادهم فى قراءة بعض الآيات فهى روايات مختلقة مكذوبة عليهم .

ومع أننى أرى أن تتجه معظم عنايتنا إلى هذه القراءات المتواترة، فإننى أرى ألا نغفل القراءات الشاذة ، ومنها القراءات الأربع الزائدة على العشر ، وهى قراءات ابن محيصن والأعمش ويحيى اليزيدى والحسن البصرى . وذلك أن هذه القراءات الشاذة — وإن كان لايصح التعبد بها ولا قراءتها فى الصلاة — يمكن فى ضوئها الوقوف على كثير من مظاهر الاختلاف بين اللهجات العربية القديمة . وفى هذا يقول ابن جنى فى كتابه « المحتسب » الذى وقفه على الاحتجاج لشواذ القراءات والإيضاح عنها : «من ضروب هذه القراءات ما سماه أهل زماننا شاذا ، أى خارجا عن القراءات السبعة . . . إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقه إلى قرائه، محفوف بالروايات من أمامه وورائه ، ولعله ، أو كثيرا منه ، مساو فى الفصاحة للمجتمع عليه . . . ولسنا نقول ذلك فسحا بخلاف القراء المجتمع فى أهل الأمصار على قراءتهم ، أو تسويغا للعدول عما أقرته الثقات عنهم ، لكن غرضنا منه أن نرى وجه قوة مايسمى الآن شاذا ، وأنه ضارب فى صحة الرواية بجرانه ، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه ، لئلا يُرى مُرًى (أى لئلا يظن ظان) أن العدول عنه إنما هو غض منـــه أو تهمة له . ومعاذ الله ، وكيف يكون هذا ، والرواية تنميه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى : يقول « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . . . فكيف يسوغ مع ذلك أن نرفضه ونتجنبه . فإن قَصُر شىء منه عن بلوغه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن يقصر عن وجه من الإعراب داع إلى الفسحة والاسهاب . إلا أننا وإن لم نقرأ فى التلاوة به مخافة الانتشار ، ونتابع من يتبع فى القراءة كل جائز رواية ودراية ، فإننا نعتقد قوة هذا المسمى شاذا» (المحتسب ، الأول ، ٣٢ ، ٣٣ تحقيق النجدى ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبى) .

غير أنه ينبغى اتخاذ مزيد من الاحتياط ومن التحرى فى توثيق النص وفى اسناده لمن يوثق بعربيته حينما يستدل بهذه القراءات الشاذه على اختلاف اللهجات .

وبين أيدينا الآن مراجع كثيرة لجميع هذه القراءات صحيحها وشاذها . فمن أهم المراجع فى القراءات السبع : أبو عبيد القاسم ابن سلام فى كتابه « القراءات » ، « ماورد فى القرآن من لغات العرب » ، وابن مجاهد فى كتابه « السبعة » ، وأبو عمرو الدنى

فى كتابه « التيسير » ، والشاطبى فى منظومته « حرز الأمانى » ، وأبو شامه فى شرحه لهــذه المنظومة . — ومن أهم المراجع فى القراءات الثلاث المتممة للعشر والتى يرجح الباحثون أنها متواترة كذلك كتاب ابن الجزرى « النشر فى القراءات العشر » . ومن أهم المراجع فى القراءات الأربع بعد العشر كتاب الدمياطى البنا : « اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر ». — ومن أهم المراجع فى القراءات الشاذة الأخرى والتى ينسب بعضها لبعض الصحابة كتاب « المصاحف » لابن أبى داود ، و « المحتسب » لابن جنى و « مختصر البديع » لابن خالوية وكتاب « الشوارد للصغانى » .

وبين أيدينا كذلك كثير من تفاسير القرآن التى تعنى ببيان الاختلاف فى وجوه القراءات ومن أهمها تفسير « البحر المحيط » لأبى حيان .

وبين أيدينا كذلك مراجع حديثة منها كتاب « القراءات واللهجات » للمرحوم الأستاذ عبد الوهاب حموده وكتاب « مع المصاحف » للمرحوم الشيخ يوسف النور السودانى ومراجع لزملائنا أساتذة علم اللغة وفقه اللغة فى الجامعات المصرية وغيرها ، ومنها مؤلفات الأستاذين الخبيرين فى اللجنة الدكتورين رمضان عبد التواب وعبد الصبور شاهين .

وقد عرضت أنا لموضوع القراءات واللهجات وما يتصل بذلك فى نحو أربعين صفحة من كتابى « فقه اللغة » وعرضت لهذه الموضوعات كذلك فى كتابى « علم اللغة » ، وفى عدة تعليقات على ما جاء فى مقدمة ابن خلدون فى هذا الصدد ، وذلك فى الطبعة التى قمت بتحقيقها والتعليق عليها .

وتدلنا هذه القراءات على وجوه كثيرة من وجوه الاختلاف بين اللهجات واللغات العربية القديمة وما تركته هذه اللغات واللهجات من آثار فى اللهجات العامية المتداولة فى الوقت الحاضر فى مختلف البلاد العربية وخاصة مصر . ومن أهم هذه الوجوه ما يتعلق بالنواحى الأربع الآتية :

١ — اختلاف القراءات فى وجوه الأداء تبعاً لاختلاف اللغات واللهجات العربية القديمة ، كالإمالة ، والتسهيل ، والإدغام ، وترقيق بعض الحروف (وخاصة الراء) ، وتغليظ حروف أخرى (وخاصة اللام المفتوحة عند وقوعها بعد صاد أو ضاد أو طاء أو ظاء مفتوحة أو ساكنة) ؛ ونقل حركة الحرف إلى الساكن قبله مع حذف هذا الحرف وهو المسمى بالنقل عند القراء ، والهمز وعدمه ، ومخارج الحروف . . . وما إلى ذلك من الوجوه .

٢ — اختلاف القراءات فى شكل الكلمات تبعاً لاختلاف اللغات واللهجات العربية القديمة . ففى القرآن الكريم مئات من الكلمات اختلفت شكلها باختلاف القراءات ، وكل شكل منها يمثل لغة أو لهجة عربية قديمة .

٣ — اختلاف القراءات فى وزن الأفعال وما يتصرف منها وفى الجمع والتذكير والتأنيث تبعاً لاختلاف اللغات واللهجات العربية القديمة

٤ — اختلاف القراءات فى الإعراب تبعاً لاختلاف اللغات واللهجات العربية القديمة .

وهناك وجه آخر وجه نظرنا إليه زميلنا الفاضل الأستاذ محمد شوقى أمين فى مذكرته القيمة الملحقة بهذا البحث . وهو اختلاف معانى المفردات القرآنية تبعاً لاختلاف اللهجات . وإن كان هذا الوجه لا علاقة له باختلاف القراءات . لأن هذا النوع من المفردات لا تختلف فى قراءته القراءات . وينبغى أن يخصص لهذا الموضوع بحث على حدة ، يلحق بمعجم ألفاظ القرآن الكريم .

وأما فيما يتعلق برجع كل وجه من وجوه هذه الاختلافات إلى القبيلة التى جاء وفقاً للهجتها فإننا نجد كثيرا من ذلك منصوص عليه فى كتب القراءات والتفسير واللغة . ولا يضيرنا فى شىء ألا نجد وجها من هذه الوجوه فيما أتيح لنا الإطلاع عليه من مراجع معزوًّا إلى القبيلة التى جاء وفقاً للهجتها . فإنه من المستحيل استقصاء جميع المراجع فى هذا الصدد . ولأنه متى التزم القارىء ، وخاصة من أصحاب القراءات المتواترة ، بظاهرة لغوية فى جميع مواقعها فى القرآن الكريم ، فإنه لا يمكن أن يكون قد أتى بها من عنده . ولا بد أن تكون متفقة مع لغة من لغات العرب . وفى هذه الحالة يكفى أن نقول ، كما يقول كثير من كتب اللغة : ومن العرب من يذهب إلى كيت وكيت ودليل ذلك قراءة فلان وفلان فى جميع المواطن التى وردت فيها هذه المواضع (ونذكر بعض أمثلة من هذه المواطن) .

وأرى من الخير أن نستعين أحيانا بخبير فى القراءات ، وخاصة فى الأمور التى لا يمكن معرفتها بوجه يقينى إلا بسماعها ممن تلقوها مشافهة عن موقّف ، وذلك كالأمالة الصغرى والكبرى والتسهيل والرَّوْم والإشمام والنطق بالصاد بين مخرجى الصاد والزاى وما إلى ذلك .

هذا ، وينبغى بعد الانتهاء من هذه البحوث وإقرارها فى مجالس المجمع ومجالس المؤتمر أن تجمع فى كتاب بعنوان «القرآن واللهجات» ، ويعقد فيه لكل وجه من الوجوه الأربع السابق ذكرها باب على حدة ، يتفرع عند الاقتضاء إلى عدة فصول ، ويلتزم فيه بالترتيب الأبجدى فى الوجوه التى تقتضى هذا الترتيب ، مع العناية فى كل فصل من فصول هذا البحث ببيان ما تركته اللهجات العربية القديمة من آثار فى اللهجات العامية المتداولة فى الوقت الحاضر فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى .

على عبد الواحد وافى
عضو المجمع

مجمع اللغة العربية بالقاهرة ولغة العلم

للدكتور محمود مختار

العلم واللغة :

أبدأ حديثى عن العلم واللغة بذكر حقيقتين ثابتتين :

أولهما : أن العلم واللغة عنصران متلازمان من عناصر تقدم الأمة وارتقائها . ولا أدل على ذلك من أن اللغة العربية قد ازدهرت فى عصور الإسلام الأولى بازدهار العلم فى الإسلام ، وأن اللغات الأجنبية الحية قد ازدهرت اليوم بازدهار العلم فى أقطارها .

والحقيقة الثانية هى أنه كما أخذ العرب العلم عن الهنود والفرس وترجموا الكثير من الكتب السريانية واليونانية ، فقد أعطوا الكثير أيضا من علومهم فى الرياضة والفلك والطب والفيزيقا والكيمياء ما لا يزال حيا حتى اليوم فى جذور العلم الحديث .

ومنذ الثلث الأول من هذا القرن شهد العالم بوادر ثورة عارمة فى العلوم وتطبيقاتها تسير بسرعة خارقة ، وتقفز قفزات متلاحقة من عصر الذرة إلى عصر الفضاء ثم عصر الألكترونيات وما إلى كل ذلك . وتعددت فروع العلم وتشعبت وتزاوجت ، وانبثقت منها تكنولوجيا حديثة ذات أضواء ساطعة تغزو العالم فى كل مكان وتضفى على ملامحه قسمات حضارة حديثة .

وبالأمس القريب صحا العالم العربى بعد غفوة طويلة ، يطرق أبواب هذه النهضة العلمية والحضارة ويستعيد ماضى أمجاده . فأنشأ الجامعات العلمية والكليات العملية والتطبيقية ووكل إليها مسايرة الركب العلمى الحديث وملاحقته . واستقدم عددا ضخما من الأساتذة الأجانب . واستتبع ذلك بطبيعة الحال استخدام اللغات الأجنبية بمراجعها وكتبها فى الدراسة العلمية والتطبيقية .

* حديث ألقى فى « ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلح العلمى العربى » المنعقدة فى الرباط من ١٨ – ٢٠ فبراير ١٩٨١

وكان من الطبيعى أن تنقضى تلك المرحلة العابرة بسلام وتعود اللغة العربية لتحتل مكانها فى التعليم الجامعى بقوة وجدارة لتقود الركب العلمى نحو أهدافه لتحقيق العزة والكرامة للوطن العربى . ولكن المرحلة امتدت والسنون انقضت وعانى الوطن العربى من نوع جديد من الإستعمار هو الإستعمار العلمى الذى رزح على صدرها بجانب أخويه السابقين الإستعمار السياسى والإستعمار الحربى .

وتضخمت الجامعات فى الوطن العربى عدة وعددا حتى غطت جميع أرجائه ، وطرقت التكنولوجيا الحديثة جميع أبواب الحياة من صناعة وزراعة وطب وهندسة وفنون وأعلام وألبستها حللا براقة جذابة ، ولكنها حلل أجنبية مقنعة بأقنعة عربية لا تخفى حقيقتها . فقد كانت أساليب التعليم الجامعى فى هذه العلوم كلها أجنبية ، وكانت المصطلحات الحديثة كلها أجنبية .

مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

فى هذه المرحلة العصيبة من تاريخ النهضة العلمية الحديثة أنشىء مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٣٢ ، ونص فى قانون إنشائه « أن يكون قيما على سلامة اللغة العربية ، وليجعل منها لغة وافية بمطالب العلوم والفنون كافة ، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحديث » :

وأدرك المجمع رسالته تمام الإدراك واضطلع بأدائها منذ اللحظة الأولى من حياته ، فوضع نصب عينيه هدفين جليين يحكمان مساره ، أولهما الحفاظ على سلامة اللغة وهو الهدف الأسمى الذى لا يختلف فيه إثنان ، وثانيهما العناية الخاصة بلغة العلم والحضارة الحديثة .

واقتحم المجمع مجال اللغة العلمية العربية بقوة ، ففتح ذراعيه للعلميين المتخصصين المعروفين بغيرتهم على اللغة العربية والتعليم الجامعى معا من أمثال الدكتور محمد شرف الطبيب والدكتور أحمد زكى الكيميائى والدكتور مصطفى نظيف الفيزيقى . وألف منهم ومن أساتذه اللغة العربية العريقين بالمجمع أول لجنة علمية لغوية . عهد إليها وضع مقومات استخدام اللغة العربية فى التعليم الجامعى ، باعتباره حجر الأساس لأوجه النشاط العلمى والتطبيقى فى العالم العربى .

المصطلحات العلمية :

وكان على رأس هذه المقومات ، توفير المصطلحات العلمية العربية ، أو لبنات التخاطب والتفاهم والإتصال بين المشتغلين بالعلم ، بينهم وبين أنفسهم ثم بينهم وبين المجتمع .

وتدارست اللجنة فى أول الأمر خير طريق تسلكه لوضع المصطلحات المناسبة . هل تعرب أم ترجم ؟ هل تسجل أم تخترع ؟ هل تطور القديم أم تجمده ؟ وعقدت لذلك الندوات والمؤتمرات واللقاءات ، ودار الحوار المتصل البناء ، وطرحت الآراء ،

حتى وضحت الرؤية وانجلت عن ضرورة المواءمة والملاءمة لجميع الاعتبارات. وخرجت اللجنة من هذا كله بمبادىء وأسس أنارت طريق التعريب ووضع المصطلحات ، وأحاطته بمقومات تضمن سلامة السير فيه دون زيغ أو شطط فرخصت بتعريب المصطلح أو بترجمته وفقا لمبادىء محددة ، وتوسعت فى المجاز والاشتقاق والنقل والنحت كلما رأت ضرورة لذلك .

وانجلت أولى التجارب عن تقبل اللغة العربية واستجابتها بيسر وطلاقة للألفاظ العلمية الحديثة ، وأثبتت قدرتها على الوفاء بمطالب العلوم والفنون وحاجات الحياة الحديثة . وسار الركب على بركة الله يقوده العلميون واللغويون بالمجمع وبالجامعات وتوفرت للغة العلم الكثير من الألفاظ المحدثة والمعربة التى أثرتها وألبستها ثوب الحياة الحديثة.

وكان أساس اختيار المصطلح هو صلاحيته لتحقيق مدلول علمي خاص به سواء كان هذا اللفظ مترجما أو معربا . وثمة أمر آخر له أهميته ، هو الترحيب بالألفاظ التى استقر استخدامها فى اللغات العلمية العالمية بعد صياغتها بلسان عربى مناسب ، وإطلاق استخدام السوابق واللواحق والرموز والإشارات والدلالات للتوضيح والتيسير . وكانوا فى هذا كله يستنيرون بما سجله التراث العلمى العربى فى علوم الطب والكيمياء والفيزيقا والفلك وغيرها من مصطلحات أصيلة أو دخيلة أو معربة زادت بها اللغة العربية ثراء على ثراء . وغنى عن البيان أن اللغات الحية تتبادل باستمرار الألفاظ والمصطلحات بكثرة واستفاضة حتى لتكاد تصبح هذه الألفاظ والمصطلحات موحدة فيما بينها .

نهج اختيار المصطلح :

ورأى المجمع أن ينهج أسلوبا علميا مستقرا فى إختيار المصطلح العلمى ، فلا يكله لإجتهادات شخصية أو لآراء حرة قد تتفاوت بين باحث وآخر . فوضع له نهجا واضحاً ومحددا يلتزم أو يستنير به كل من يطرق ميدان التعريب ووضع المصطلحات العلمية . ونوقش هذا النهج فى جلسة المجمع حيث هذب ونقح ، ثم عرض فى إحدى جلسات مؤتمر المجمع حيث اكتملت مقوماته .

ويقوم هذا النهج على أربعة مبادىء تتناول إطاره العام وهى :

١ — الحفاظ على التراث العربى ، وإيثار ترجمة المصطلح مع إجازة التعريب .

٢ — الوفاء بأغراض التعليم العالى ومتطلبات التأليف والترجمة والثقافة الغلمية العالية .

٣ — مسايرة النهج العلمى العالمى فى أسلوب اختيار المصطلح والتقريب بينه فى العربية . وبين نظيره فى اللغات العالمية الحية لتسهل المقابلة بينهما للمشتغلين بالعلوم الأساسية وتطبيقاتها .

٤ — تعريف كل مصطلح تعريفاً علميا معجميا .

وتناول النهج بعد ذلك تفاصيل اختيار المصطلح وصاغها فى ثلاثة عشر بندا ، شملت جميع مقومات الترجمة والتعريب والإشتقاق والنحت والإستعارة . وذيلت كل منها بأمثلة عديدة من العلوم الأساسية والتطبيقية . ونشر المجمع هذا النهج فى نشرة خاصة أذاعها على نطاق واسع بين المشتغلين بالعلوم فى مصر وفى الوطن العربى الكبير . ولما كان مجال المؤتمر لا يتسع لتناول تلك البنود أسهاما وتفصيلا فإنى أتشرف أن أضعها تحت نظر المؤتمر لتكون ضمن سجلاته ولتدرس فى لجان العمل المتخصصة فيه . وغنى عن البيان أن المجمع يرحب بتلقى أية ملاحظات عنها أو تهذيبات لها من السادة الأعضاء ومن كل حريص على المشاركة فى تأسيس صرح اللغة العربية العلمية .

السوابق واللواحق :

وثمة موضوع آخر عنى به المجمع فى مجال التعريب والمصطلحات وهو موضوع السوابق واللواحق وإطلاق الإستفادة منها فى إختيار المصطلح . بعد أن أصبح واضحا وجليا أن التقدم العلمى الطفرى الكبير قد لازمه ظهور آلاف من المصطلحات الجديدة التى يصعب أو يستحيل على أى لغة استيعابها بألفاظ جديدة تماما . وقد وجدت اللغات الأجنبية الحل لهذه المشكلة بيسر وذلك بإطلاق استخدام السوابق واللواحق على نطاق واسع جدا لمصطلحات مستقرة أصلا ، لتؤدى معان ذات دلالات مختلفة ، فتولدت بذلك ألفاظ كل منها له أصل لغوى واحد ، أحالته السوابق واللواحق إلى عدد من الألفاظ ذات معان علمية مستحدثه ومحددة .

ولم تكن الاستعانه بأسلوب السوابق واللواحق فى لغتنا العربية بدعة . فقد ظهرت فيها منذ أمد طويل ولكن بالكثير من التأنى والحيطة . أما اليوم فإن حاجة العلم والتكنولوجيا الحديثة تستلزم المزيد من هذا الأسلوب الميسر تمشيا مع الحاجة الملحة لسيل المصطلحات الجديدة وكسبا للسرعة .

وسايرت اللغة العربية شقيقاتها اللغات الأجنبية دون مساس بقسماتها وطبيعتها فاستعانت بالعديد من السوابق واللواحق ، مع إحكام ذلك كله بموازين دقيقة ، أهمها قصر السابقة أو اللاحقة العربية على المصطلحات العربية فقط كما فى لفظ « لاسلكى » مثلا ففيها « لا » عربية « وسلكى » عربية . وقصر السابقة أو اللاحقة المعربة على المصطلحات المعربة فقط كما فى لفظ « بيوفيزيقا » مثلا ففيها « بيو » معربة « وفيزيقا » معربة وبمعنى أوضح عدم الجمع بين سابقة عربية ولفظ معرب أو العكس.

وقد وضع المجمع نوعا من المقابلة بين السوابق واللواحق فى اللغات الأجنبية وفى اللغة العربية وأوردها كأمثلة يحتذى بها ، وصاغها فى نشرة أخرى خاصة لتناقش فى لجان العمل المتخصصة وللاستئناس بها لمن يرغب . ويسرنى أن أضع هذه النشرة

كذلك فى سجلات المؤتمر . ولا يدعى المجمع لنفسه الكمال فى كل إنتاجه بل إنه يرحب بكل رأى أو ملاحظة ترد إليه ويعنى بدراستها بكل إهتمام .

تيسير اللغة :

وثمة أمر حيوى آخر يعنى به مجمع اللغة ويفرد له العديد من الندوات والمحاضرات واللقاءات فى دوراته المتتابعة وهو موضوع تيسير اللغة نحوا وصرفا وأسلوبا . ولاشك أن كل جهد يبذل فى هذا الموضوع الحيوى سوف ينعكس ضوءه على اللغة العربية العلمية فيزيدها قوة ووضوحا ويسرا هى فى مسيس الحاجة إليها . ولا يتسع لى المجال هنا ، بل إنى لا أجرؤ على الخوض فى هذا البحر الواسع المتشعب الذى يخرج عن طاقتى . وأتركه لفرسانه وسدنته الذين يملكون زمامه وناصيته .

العلميون واللغويون :

على هذا النهج وبهذا الأسلوب يسير ركب اللغة العلمية فى المجمع اليوم ، ويتقدم بخطى وئيدة مستقرة فى مجال تعريب العلوم . وذلك كله بفضل مزيد من الترابط بين العلميين واللغويين ويكفى أن أدلل على ذلك بأن عدد العلميين المجمعيين اليوم هو ١٤ من بين مجموع أعضاء المجمع الحاليين وهم ٣٣ فى كافة التخصصات . وأن اللجان العلمية اللغوية المتخصصة بالمجمع قد بلغت اليوم أكثر من ثلثى لجانه وتشمل الطب والهندسة والزراعة والفيزيقا والكيمياء والرياضة والصيدلة والنفط والبيولوجيا والتربية والفنون والحضارة . وهذه اللجان المتخصصة تضم نحو ٦٠ عضوا ما بين علميين مجمعيين ولغويين مجمعيين وخبراء متخصصين بالإضافة إلى هيئات التحرير .

وتتولى هذه اللجان المرحلة الأولى من مراحل إعداد المصطلح وتعريفه ، ثم عرضه على مجلس المجمع لتهذيبه وتنقيحه ، وأخيرا عرضه على مؤتمر المجمع السنوى لتقنين صلاحيته واستخدامه .

ثمار المجمع :

ويسرنى أن أنتهز هذه الفرصة ، فأقدم للمؤتمر الموقر حصيلة ثمار المجمع فى العقدين الاخيرين ، وهى خمسة معاجم :

- المعجم الجيولوجى (١٩٦٥) ويحوى نحو ١٢٠٠ مصطلح .
- معجم الفيزيقا النووية والإلكترونيات (١٩٧٤) ويحوى نحو ١٢٠٠ مصطلح .
- معجم الجغرافيا (١٩٧٤) ويحوى نحو ١٥٠٠ مصطلح .
- معجم ألفاظ الحضارة والفنون (١٩٨٠) ويحوى نحو ١٠٠٠ مصطلح .
- معجم الجيولوجيا الكبير (١٩٨٢) ويحوى نحو ٤٥٠٠ مصطلح .

وهناك عدد من المعاجم هى الآن تحت الطبع ويشمل الأجزاء الأولى من المعاجم الكبيرة وهى :

- معجم الفيزيقا الحديثة ويحوى نحو ٤٨٠٠ مصطلح .

- معجم الكيمياء والصيدلة ويحوى نحو ٥٦٠٠ مصطلح .

- معجم البيولوجيا ويحوى نحو ٥٢٠٠ مصطلح .

- المعجم الطبى ويحوى نحو ١٠٠٠٠٠ مصطلح .

وقد أنشأ المجمع إدارة خاصة بالمعاجم نسجل فيها هذا العدد الضخم من المصطلحات فى جزازات . ونأمل أن توضع قريبا فى جهاز الكترونى (كمبيوتر) لتيسير استخراجها والرجوع إليها .

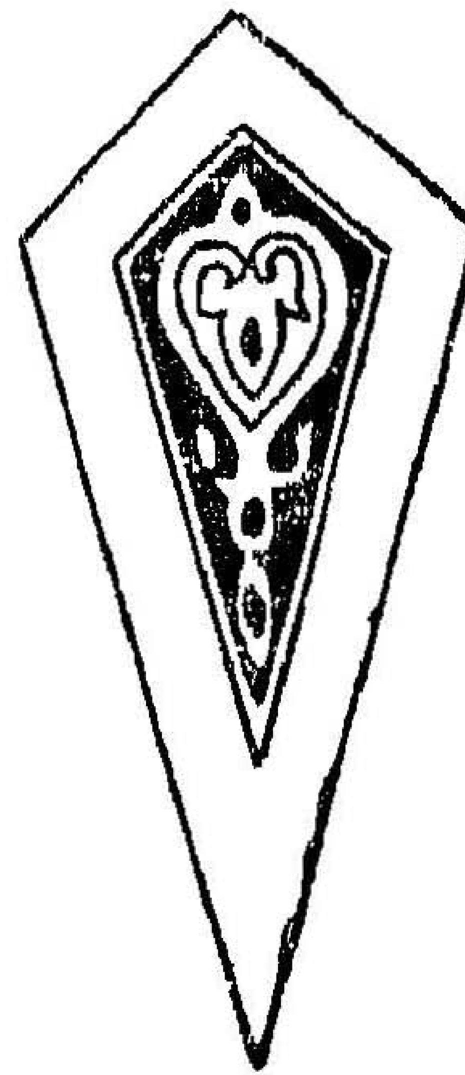
خاتمـــة :

تلك هى سياستنا فى التخطيط للغة العربية العلمية وهذا هو مسارنا فى إرساء مبادىء المصطلحية ومقاييسها وتلك هى جهودنا فى الإنتاج العلمى اللغوى ، عرضتها على سيادتكم مختصرة ومركزة . أما تفصيلها فيسعدنى أن أطرحه فى لجان العمل بالمؤتمر لتبادل الرأى والمشورة فيه :

والله تعالى ولى التوفيق .

محمود مختـــار

عضـــو المجمع



وحدة البنية واختلاف الأنظمة

للدكتور تمام حسان

وحدة البنية وتعدد النماذج

مقـدمة :

تتحد بنية اللغة وتتعدد النماذج التحليلية التى يعرض الباحثون من خلالها نظام هذه اللغة ، وإنما أتى تعدد هذه النماذج من قبل الأسس النظرية التى يبنى عليها الباحثون أعمالهم ؛ فمنهم من ينطلق من بداية فلسفية فيرى اللغة كيانا فلسفيا ؛ ومنهم من يبدأ من المنطق فيراها فكرا منطقيا ومنهم من يخضعها للدين فيسخرها له، ومنهم من يراها كائنا طبيعيا ينمو ويضمحل ومنهم من يراها مظهرا لتصورات ذهنية لاتخضع للوصف ولا للتقعيد وإنما يقول عنها ما يخضع للوصف والتقعيد .

ويتجلى اتحاد اللغة واختلاف النماذج فى عدد من الأمثلة منها ما يتصل باللغات الأوربية التى أخذت النمو فى البداية عن النموذج الذى بناه نحاة اللاتينية ثم تحولوا عن هذا النموذج اللاتينى إلى نماذج أخرى تخضع لتطور الدراسات اللغوية الحديثة .

وإذا نظرنا إلى النماذج المختلفة التى بناها اللغويون للغة الإنجليزية فى الوقت الحاضر وجدنا عددا من هذه النماذج يسود جنباً إلى جنب فى أوساط اللغويين الأمريكيين وإن خضع مجموع النماذج على اختلافها للفكرة التوزيعية أو تفرع عنها . وفى الدراسات العربية كان النموذج البصرى يختلف عن النموذج الكوفى وجاء هذا الاختلاف فى مجال الأصول كما شاع فى مجال الفروع . فقد اختلفت المدرستان حول عدد من الأصول مثل القليل لا يعتد به ، وكثرة الاستعمال تجيز الحذف العطف على الضمير المجرور لا يجوز والأصل فى حروف الجر ألا تعمل مع الحذف ولا يجوز إضافة الشيء إلى نفسه وعوامل الأسماء أقوى من عوامل الأفعال والحمل على الجوار كثير فى كلامهم .. الخ ومن شاء أن يظفر بحشد من أمثلة اختلافهم حول الأصول فليلتمس ذلك فى كتب الخلاف وأشهرها كتاب الإنصاف لابن الأنبارى . ثم أضاف

كتابى : « اللغة العربية : معناها ومبناها » نموذجا آخر إلى نماذج النحو العربى سنعرض له فيما بعد بالتفصيل على قدر ما تسمح المسافة المخصصة لذلك فى هذا العرض .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة من بين هذه النماذج ما دامت تختلف فى مآخذها وتتباعد كبعد ما بين التأويل وظاهر النص . وإن كفاءة أى واحد من هذه النماذج إنما تنبع من قربه من الوفاء بالشروط العلمية التى تعارف عليها العلماء وهى الموضوعية المتمثلة فى الاستقراء الناقص وإمكان التحقق من صدق النتيجة ثم الشمول المتمثل فى الخضوع لمبدأ الحتمية وتجريد الثوابت ثم التماسك المتمثل فى الاعتماد على التقسيم والحرص على عدم التناقض وأخيرا الاقتصاد المتمثل فى التقعيد والاستغناء بالأقسام عن الخوض فى المفردات . تلك هى خصائص العلم المضبوط أو الصناعة كما يسميها تراثنا العربى . والنحو صناعة كما يقول النحاة فلابد أن تتحقق له الموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد . وقد يتحقق له بعض هذه الشروط دون بعض وقد يتحقق له الأكثر دون الأقل أو الأقل دون الأكثر ومن هنا تختلف النماذج قربا وبعدا من الصورة المثالية للنموذج فتتفاوت حسنا وسوءا (أى من ناحية الـ elegance) ومما يوضح التفاوت فى تحقق هذه الشروط ما نلمحه من فارق بين النحو وفقه اللغة . فالنحو صناعة لأنه يتناول ثوابت الأفكار والأقسام وفقه اللغة ليس من قبيل الصناعة لأنه يبحث فى المتغيرات ومفردات الظواهر إذ يتناول علاقة اللفظ المفرد باللفظ المفرد والظاهرة المفردة بالظاهرة المفردة كما يتناول علاقة اللفظ المفرد بالمعنى وعلاقة اللفظ المفرد بالاستعمال ثم لا يصطنع لذلك شيئا من التفسير ولا التعقيد ولا التجريد إلا ما يستعيره استعارة من علوم أخرى كالصرف والأصوات كحين يعالج ظاهرة الاشتقاق أو ظاهرة التأليف مثلا . ومثل ذلك يقال عن الفارق بين البصريين والكوفيين حين ننظر مثلا إلى الأصل البصرى الذى يقول : « القليل لا يعتد به » إذ نرى الكوفيين يعتدون بالقليل فيدنون بذلك من الاعتداد بالمفردات من الظواهر وقد علمنا أن العناية بمفردات الظواهر أشبه بفقه اللغة منها بالنحو .

فإذا وضعنا هذه الحقائق السابقة نصب أعيننا علمنا أن اللغة العربية التى وصفها النحاة يمكن أن تظل على حالها التى تبدو بها فى تراثنا الأدبى ثابتة لا تتغير ثم تحاول الأجيال المتعاقبة من الباحثين أن تكشف عن نظامها بإنشاء النماذج المتعاقبة لهذا النظام دون أن تتأثر هذه اللغة بذلك الاختلاف فى بناء النماذج . وسأحاول فى الصفحات التالية أن أعرض النموذج البصرى الذى أنشأه النحاة ولخصه كتاب سيبويه ثم أعرض بعد ذلك نموذجى الذى تضمنه كتاب « اللغة العربية » سنة ١٩٧٣ . لم أعرض تطبيقا لنموذج النحو التحويلى على اللغة العربية

مأخوذا من كتاب Aspects لتشكوفسكى سنة ١٩٦٥ . وبذلك أرجو أن أضرب المثل لإعادة وصف اللغة العربية فى ضوء علم اللسانيات .

النموذج البصرى :

بنى النموذج البصرى على أسس منهجية معينة يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١ – الكلمة وحدة الجملة ومن ثم كانت هى النواة التى دارت حولها الدراسات الصرفية والمعجمية . أما فى الصرف فقد حددت صيغها وأصولها وزوائدها وما يلحقها من الظواهر المختلفة التى يشملها مصطلح « التغيير » كالإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف الخ وعنيت الدراسات الصوتية بإمداد الصرف بكثير من الحقائق التى استعان بها على دراسة الكلمة ؛ وإنما وقع اختيار النحاة على الكلمة دون الصوت المفرد ودون المقطع ودون المتلازمين لأن الكلمة بحكم تعريفها لفظ مفرد وبحكم دلالتها تدل على معنى مفرد . وهكذا يبدو أن فكرة الإفراد هى التى أعانت على بناء الجملة على الكلمات دون غيرها من وحدات التحليل . أضف إلى ذلك أنها نواة صيغة مفردة وأن اللواصق والزوائد تلصق بها وأن ظاهرة الإعراب فى اللغة الفصحى ارتبطت بالكلمة . فالإعراب عندهم أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل فى آخر الكلمة . وإذا كانت أواخر الكلمات تختلف بحسب المعانى فلا شك أن الكلمة تصلح لأن ينسب إليها استقلال فى بنية اللغة لايمكن أن ينسب مثله إلى الصوت أو المقطع مثلا ، بل لايمكن أن ينسب مثله إلى المتلازمين لأن الإعراب لا ينسب إليهما معا ومن لا يصلحان معا – فى رأى النحاة – أن يكونا وحدة تحليلية قائمة بذاتها ثم إن الكلمة مع ذلك يمكن تقديمها وتأخيرها ويمكن أن تضام الكلمات الأخرى أو تنفصل عنها وبذلك كله يتحقق وجودها النظرى باعتبارها وحدة تحليلية :

٢ – والكلم أقسام ثلاثة : اسم وفعل وحرف . وإن التقسيم مبنى على أساسين أحدهما التمييز بحسب المعنى وثانيهما التمييز بحسب المبنى . فأما من حيث المعنى فالاسم مادل على مسمى والفعل مادل على حدث وزمن والحرف مادل على معنى فى غيره وأما من حيث المبنى ؛ فالأمر واضح من قول ابن مالك :

بالجر والتنوين والندا وأل
ومسند للاسم تمييز حصل
بتا فعلت وأتت ويا افعلى
ونون أقبلن فعل ينجلى
سواهما الحرف.
. . . .

ومع التسليم بأن مثل هذا التقسيم ينبغى أن يأخذ فى اعتباره المعنى والمبنى معا على حد ماصنع النحاة ، يحسن أن نشير هنا إلى أن النحاة أحسنوا اختيار المبدأ ولكنهم قصروا بعض الشئ عند إجراء التطبيق ، لأن الاسم فى تقسيمهم اشتمل على أمشاج من الكلم بينها اختلاف هام جدا من حيث المبنى إذ لايدل كل اسم عندهم على مسمى لأن المصدر يدل على الحدث ، والوصف يدل على موصوف بالحدث ، والضمير يدل على مطلق حاضر أو غائب، والظرف يدل على اقتران حدثين وأسماء الأفعال تدل على استعمال إفصاحى إنشائى للغة وهكذا نجد أن هناك طوائف من الأسماء لاتدل على مسميات أضف إلى ذلك أن الحرف لايدل على معنى فى غيره وإنما يدل على علاقة من العلاقات الرابطة لأوصال الجملة فله معنى وظيفى يعرف به ويساق له وينسب إليه . وحسبنا أن نعلم أن النحاة أنفسهم نسبوا المعانى إلى الحروف، وحسبنا أن نقرأ قول ابن مالك :

على للاستعلا ومعنى فى وعن
بعن تجاوزا عنى من قد فطن

الخ . والأمر من حيث المبنى يبدى لنا بعض المفارقات أيضا ، فالضمائر لاتقبل التنوين وبعضها لايقبل النداء ولاتدخل عليها « أل » وإن دخل عليها حرف الجر لم يظهر عليها وكذلك الحال فى الظروف وأسماء الأفعال . ولقد عد النحاة النواسخ من بين الأفعال وهى ليست متصرفة تصرفا تاما فى معظمها وبعضها يأبى علامات الأفعال . وهذا وغيره مما يمكن أن يطلع عليه فى كتابى : اللغة العربية : معناها ومبناها ص ٨٢ — ١٣٢ ؟

٣ — حين لاحظ النحاة عدم اطراد صور الاستعمال أدركوا أن محاولة بناء القواعد على أمور غير مطردة أمر غير ممكن وغير مفيد ؛ وكيف يتبادر إلى ذهن من لايعرف العربية أن النون فى « ينبغى » وهى تنطق بضم شفتين والنون فى ينفع «وهى من الشفة السفلى والأسنان العليا » والنون فى « ينظر » وهى يخرج فى نطقها اللسان والنون فى « ينقل » وهى تنطق فى اللهاة ؛ كل ذلك يؤدى وظيفة واحدة من حيث المعنى ؟ بل كيف يمكن أن يتصور المرء منذ الوهلة الأولى أن « استخرج » و « ع » و « ره » يمكن أن توضع تحت عنوان واحد ؟ بل كيف يمكن أن يضع المرء قاعدة واحده مثل « زيد دنف » و « دنف » فى جواب «كيف زيد» ؟ من هنا كان لابد للنحاة أن يعزفوا عن غير المطرد إلى المطرد فإن لم يجدوا المطرد فى الاستعمال اخترعوه بالتجريد . وكذلك كانت الحال ، فقد اخترع النحاة (أصل الوضع) وبنوا النحو على هذا الأصل .فأما النونات

التى سبق الكلام عنها فأصل وضعها نون مجردة فى الذهن تنسب إلى النطق فى اللاثة ، وتتمثل عند نطق النون المفردة وهى ساكنة غير متحركة ولكل حرف من حروف العربية أصل مثلما للنون أصل . والذى يقرأ باب الإدغام فى كتاب سيبويه يجد سيبويه يتكلم عن الأصول والفروع فيعد الأصول تسعة وعشرين ويجعل لها فروعا تصلح فى قراءة القرآن والشعر وفروعا أخرى لا تصلح لذلك وهذه الأصول هى أصول وضع الحروف التى جردها النحاة .

ولكل كلمة أصل وضع كذلك وإنما يعدل بالكلمة عن أصل وضعها بالإعلال أو الإبدال أو النقل والقلب أو الحذف أو الزيادة «فقال» أصلها «قول» وقد عدل بها عن هذا الأصل بواسطة الإعلال إذا تحركت الواو (التى فى الأصل المجرد فى الذهن) وانفتح قبلها فصارت فى الاستعمال الفا وهكذا أعلت عين الكلمة «وكساء» أصل وضعها كساو ، قد وقعت الواو متطرفة أثر ألف زائدة فأبدلت همزة . ويقوم أصلها يقوم بقاف ساكنة وواو مضمومة وقد نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها فسكنت الواو وحياض أصلها حواض وقد وقعت الواو عينا لجمع صحيح اللام قبلها كسرة فقلبت ياء و يجد أصلها يوجد بياء مفتوحة وواو ساكنة وجيم مكسورة وقد وقعت الواو فاء لمضارع فعل من نوع «المثال» فحذفت إذ تحذف من مضارع هذا النوع فى أمره ومصدره ومصغره . و «رجيل» المصغرة أصلها «رجل» زيدت فيها ياء ساكنة للتصغير . كل هذا من الناحية الصرفية . أما من الناحية الاشتقاقية فإن «استغفر» أصلها (غ ف ر) و «جاه» أصلها «و ج ه» و «سمة» أصلها «وسم» و «اذكره» أصلها «ذ ك ر» وهلم جرا .

ولكل جملة أصل وضعها . وقد عرف الجزولى الكلام بأنه «اللفظ المركب المفيد بالوضع» فإذا عرفنا أن الجزولى كان يقصد تعريف «الجملة» عرفنا أن الجملة لها صورة مجردة فى الذهن عند النحاة قد يطابقها الاستعمال وقد يختلف عنها ، وهذا الأصل هو :

الجملة الاسمية : مبتدأ + خبر

الجملة الفعلية : فعل + فاعل (أو نائب فاعل) .

الجملة الشرطية : أداة + شرط + جزاء

جملة الأمر : صيغة الأمر + فاعل إما ضمير متصل ومستتر

جملة النهى : أداة + مضارع + فاعل (إما ضمير متصل أو مستتر)

وهكذا يصبح أصل الوضع أمرا ثابتا من عناصره الأظهار والذكر والاتصال

والرتبة على عكس ما يجرى على الجمل الحقيقية فى معمعة الاستعمال من إضمار أو حذف أو فصل أو تقديم وتأخير إلى غير ذلك من مظاهر « التغيير » وهذا الثبات الذى نسبه النحاة لأصل الوضع مكنهم من أن يبنوا قواعد مطردة صارمة بمعزل عن تطور اللغة من عصر جاهلى إلى آخر إسلامى وعن اختلاف القبائل فى استعمال اللغة من الحجاز إلى نجد فلما تم لهم ما أرادوا من بناء القواعد عمدوا إلى قواعدهم المبنية بتجريد الأصول فسلطوها على المسموع من الفصحاء وهو مبنى على السليقة دون التجريد فحين اختلف المسموع عن القاعدة كان بعض النحاة يطعن على العرب ويغلطهم ، وكان بعضهم الآخر يسلم لهم معترفا بما قاله الفرزدق لابن أبى إسحق « علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا » .

وهكذا نرى أن النحاة افترضوا « أصل الوضع » فإذا اتفق المستعمل معه فذلك ، وإلا ادعى النحاة أن هذا المستعمل قد عدل به عن الأصل . فإن كان المعدول به عن الأصل حرفا سمى العدول إدغاما أو إقلابا وإخفاء الخ وإن كان كلمة سمى العدول إعلالا أو إبدالا أو نقلا أو قلبا أو حذفا أو زيادة أو عدلا وإن كان جملة سمى العدول إضمارا أو حذفا أو فصلا أو زيادة أو تقديما وتأخيرا . وكل عدول عندهم كان يتطلب الرد إلى الأصل وهذا الرد إلى الأصل يتم فى ضوء قواعد صوتية أو صرفية أو نحوية ويسمى « التأويل » وإنما اختاروا هذا المصطلح ليدلوا به على قصدهم أن يعملوا على أن « يؤول » هذا المعدول به عن الأصل إلى أصله . فكأنهم أخذوا لفظ « التأويل » من الفعل « يؤول » .

٤ — وكذلك جعل النحاة للقاعدة أصلا وسموه « أصل القاعدة » وجعلوه صالحا لأن يعدل بالتركيب عنه إلى قواعد فرعية : فالقاعدة العامة للمبتدأ والخبر تخضع للأصل القائل « الأصل فى المبتدأ التعريف وفى الخبر التنكير » (ابن عقيل ١ / ٢١٦) ، ولكن هذه القاعدة الأصلية يعدل عنها إلى قاعدة أخرى فرعية تقول : « إذا أفادت النكرة فلا يمنع الابتداء بها » (نفس المرجع) وكذلك يقول أصل القاعدة « لا يخبر بالزمان عن الجثة » ولكن هذه القاعدة قد يعدل عنها عند أمن اللبس إلى قاعدة فرعية تقول : « إذا كان الإخبار بالزمان عن الجثة لا يذهب بالفائدة جاز » والأمر كذلك بالنسبة للأصل القائل : « أى معربة » والفرع القائل : « تبنى أى إذا أضيفت وحذف صدر صلتها » . وهكذا إذا وقعنا على تركيب تصدق عليه القاعدة الفرعية أمكننا أن نرده إلى أصله (القاعدة الأصلية) بواسطة التأويل إذ ننسبه إلى ذلك الأصل ونعترف به فى ظله ونعده استثناء منه ، وهذا هو تأويل القاعدة

أى الرجوع بها إلى أصلها المنسجم مع ظاهر النص أو الذى يتبادر من ظاهر النص . أما إذا كان تفسير بناء تركيب مايتم فى ضوء أصل لايتبادر إلى الذهن من ظاهر النص فيضطر النحوى إلى « إخراج » التركيب من الأصل القريب الذى ينسجم مع أول فهم للنص إلى آخر غير وارد عليه للوهلة الأولى فذلك نوع آخر من التأويل غير « الرد » يسمى « التخريج » من ذلك مثلا مادار حول قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير » قرأ عيسى بن عمر بنصب الطير وقال إن « الطير » معطوف على محل المنادى أما النحاة الآخرون فمع اعترافهم بقراءة النصب قالوا إن هناك قراءة أخرى بالرفع وإن « الطير » المنصوبة لايمكن عطفها على محل المنادى لتشابه أحكام المنادى — وأحكام تابعه والمعروف أن المنادى إذا اقترن بأل فإنه لاتسلط عليه « يا » وإنما تتوسط « أيها » بينهما . وحين رأى النحاة أن ظاهر النص يشهد بما رآه عيسى بن عمر بحثوا عن معنى آخر يمكن أن ينسجم مع أصل قاعدة أخرى وهى القاعدة العامة للعطف التى يعطف بحسبها غير المنادى فعثروا على ذلك المعنى بأن جعلوا الطير معطوفة على « فضلا » فكأن الله تعالى آتى داود فضلا وآتاه الطير ولكن يشهد لرأى عيسى قوله تعالى « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » أما هذا الصنيع من القائمين به فيعد « تخريجا » لا « تأويلا » وهكذا يمكن الرجوع إلى أصل الوضع بالرد فقط ، ويمكن الرجوع إلى أصل القاعدة به أو بالتخريج .

٥ — ولقد بنى النحاة نحوهم على قرينة واحدة من قرائن المعنى النحوى وهى العلامة الإعرابية وأقاموا عليها نموذجاً متكاملا سموه « العمل النحوى » أو « العوامل النحوية » وقسموا العوامل إلى لفظية ومعنوية ، وقسموا الإعراب إلى ظاهر وتقديرى ومحلى وأخضعوا الظاهرة كلها لفكرة أصل الوضع . فالأصل فى الإعراب أن يكون بالحركة وأما الحرف فهو فرع عليها وعدول عن الأصل ، والأصل فى الإعراب أن يكون ظاهرا فإذا لم يظهر فذلك عدول عن الأصل يرد إليه بالتقدير ، فإذا كان مالم يظهر عليه الإعراب مقصورا أو منقوصا قدرت الحركة على آخره ، أما إذا كان مفردا مبنيا أو جملة فالمقدر هو المحل . والأصل فى النصب أن يكون بالفتحة وفى جمع المؤنث السالم عدول عن الأصل ، والأصل فى الجر أن يكون بالكسرة وفى الممنوع من الصرف عدول عن الأصل. والأصل فى الإعراب أن يكون للأسماء وفى إعراب المضارع عدول عن الأصل يتطلب التعليل بعلة الشبه كما أن فى بناء الأسماء عدولا عن الأصل بعلة الشبه أيضا لقد ظهر فى صفوف النحاة من ألقى

ظلال الشك على ظاهرة الإعراب وزعم قطرب أن ارتباط الإعراب بالمعنى لايعدو أن يكون من تأصيلات النحاة وتجريداتهم وأعانه على ذلك ما لاحظه من توسع الشعراء والفصحاء فى ارتكاب الضرائر الشعرية مع عدم ذهاب المعنى ، فالقرآن والحديث والشعر وكلام العرب ملىء بالتوسع فى أمر العلامة الإعرابية والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى وحسبنا أن نذكر مثالا من كل نوع مما سبق .

فالله تعالى يقول : « إن هذان لساحران » والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن قعر جهنم لسبعين خريفا » والفرزدق يقول:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال إلا مسحتا أو مجلف

والعرب تقول : « خرق الثوب المسمار» برفع الثوب ونصب المسمار . ومعنى هذا أن قطربا لم ينكر وجود الإعراب نفسه ولو أنكره لقام القرآن المتواتر بإعرابه والشعر الذى لايستقيم وزنه إلا مع الإعراب شاهدين على خطل رأيه ووضوح باطله . وإنما زعم قطرب أن هذا الاعراب الذى لا سبيل إلى نفى وجوده لا يرتبط بالمعنى على نحو ماقرر النحاة . ولكن ذلك أيضا لايسلم لقطرب وإن كان بعض المحدثين ومنهم المرحوم الدكتور ابراهيم أنيس قد وقفوا فى صف قطرب وأنكروا الصلة بين الإعراب والمعنى . ولو لم يرتبط الاعراب بالمعنى ماكان هناك فارق فيه بين عبارتى « هذا كاتب ساخر » و « هذا كاتب ساخرا » ومعنى هذا أن الإعراب قرينة من قرائن المعنى النحوى لامراء ، وأن الذى دعا قطربا إلى الوقوف هذا الموقف يمكن تفسيره على نحو آخر كما سنرى من بعد (انظر فكرة الترخص فى هذا البحث) .

٦ – ونظر النحاة فى الزمن النحوى فرأوا أن الأزمنة ثلاثة : ماض وحاضر ومستقبل . ولكن الزمن عندهم ارتبط بالصيغة المفردة ارتباطا تاما حتى قالوا : « إن الفعل دال على الحدث بلفظه وعلى الزمن بصيغته » وكأن المضى عندهم ارتبط بالبناء على الفتح وقبول ضمائر الرفع المتصلة ومن ثم رأيناهم ينسبون المضى إلى « نعم وبئس » وما أفعله « و « هيهات » لتحقق البناء على الفتح فيها وينسبونه إلى « ليس » لهذا ولقبولها ضمائر الرفع المتصلة على الرغم مما يبدو فى معانى هذه الكلمات من بعد عن معنى الزمن فى أساسه ، وارتباط «العبارات» التى هى فيها بمعنى التو واللحظة، فإذا وجدوا أن السياق ربما أدى إلى معنى زمنى غير الذى نسبوه إلى الصيغة ذهبوا ينسبون المعانى الزمنية إلى الأدوات

كنسبة « القلب » إلى « لم » ونسبة الدلالة على مايستقبل من الزمان إلى « إذا » ونسبة شئ من معنى الحضور إلى « قد » وهكذا حبسوا الدلالة الزمنية للنحو العربى فى هذا النطاق الضيق بسبب انشغالهم بالمفردات وبناء النحو عليها كما سبق أن أشرنا وسنرى من بعد أن الزمن فى اللغة العربية أغنى بكثير مما تصوره النحاة .

نموذج كتاب اللغة العربية (١٩٧٣) :

إنما مثلى بالنسبة لهذا النموذج ومثل البصريين بالنسبة لنموذجهم كمثل رجلين أرادا أن يكشفا عن بنية ضاحية صغيرة من مدينة إذ تتكون هذه الضاحية من ثلاث مجموعات من المبانى . فأما أحد الرجلين (والماثل هنا للبصريين) فقد ركب طائرة عمودية توقفت به فى الجو فوق هذه الضاحية بمسافة قليلة تمكنه من رؤية المبانى المذكورة دون بقية المدينة فاطلع فرأى هذه المبانى من ثلاث كتل (والمثل للاسم والفعل والحرف) فأقر بذلك ورضى به وجعل ذلك فى صلب معلوماته عن الضاحية . وأما الرجل الآخر (والماثل لشخصى المتواضع) فلم يركب الطائرة وإنما قصد إلى هذه الكتل ماشياً فدخلها واحدة بعد الأخرى فوجد كل كتلة منها مكونة من بنايات متلاصقة بحيث لا يدرك من يشرف عليها من الطائرة إلا أنها كتلة واحدة . حين رأى تعدد البنايات فى كل كتلة ذهب يتفرس فى صورة كل منها والغرض الذى تستعمل من أجله ، فخرج من تجربته هذه بزعم أن ما رآه راكب الطائرة ثلاثة أقسام هو فى الحقيقة سبعة أقسام للمبانى لا ثلاثه وهكذا وصل نموذجى الذى بنيته إلى جعل أقسام الكلم سبعة : الاسم — الفعل — الوصف — الضمير — الظرف — الخالفة — الأداة . فالنحاة البصريون أشرفوا على أقسام الكلم من أصولهم المجردة تجريدا عقليا بعد أن التزموا بعبارة قالها على ابن أبى طالب رضى الله عنه « الكلم اسم وفعل وحرف » وطلب إلى أبى الأسود أن ينحو هذا النحو . أما نموذجى فقد بدأ بالاستقراء المنهجى الوصفى المبنى على أسس من المعنى وأسس من المبنى وانتهى إلى هذا النموذج المستقل عن النحو البصرى مع بعض الانتفاع بالمدارس الغربية فوجد ما يلى :

١ — أن ما سماه النحاة : « الاسم » يشتمل فى الواقع على أمشاج من الكلم يختلف سلوك كل منها عن سلوك الآخر فإذا كانت الأسماء تعرف بأل فإن الأوصاف (اسم الفاعل والمفعول والتفضيل والمبالغة والصفة المشبهة) لاتفيدها « ال » تعريفا ولاتخصيصا وإذا كانت الأسماء لاتطلب مرفوعا ولا منصوبا فالأوصاف تفعل ذلك الخ . ثم إذا دلت الأسماء

على مسمى فالضمائر (الموصوليه والإشاريه والشخصية) تدل على مطلق غائب أو حاضر ولا تقبل بعض العلامات الشكلية كالأسماء وتنتظم فى جداول بحسب التكلم والخطاب والغيبة والإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث على عكس الأسماء وتبدو أحيانا فى صورة مشبعة وأخرى فى صورة مضعفة فإذا أضعفت اتصلت بالكلمة كما تتصل باء الجر أو لا مثلا والظرف (انظر المقصود بالظرف فى الكتاب المذكور) لا يدل على مسمى ولا تتصل به الـ ولا يقبل الجر والتنوين والنداء وهكذا ..

٢ — إن ما سماه النحاة « الفعل » يبدو أيضا فى صورة تحتاج إلى كثير من العناية والنظر . لقد اشتمل الفعل على النواسخ التى لا دلالة لها على الحدث كما اشتمل على التعجب والمدح والذم ولا دلالة فيهما على الزمن ورصدوا للفعل علامات يأباها كثير مما عدوه من قبيل الأفعال ، فقد نسبوا الفعل إما إلى التعدى وإما إلى اللزوم فيما سبق دلالة على تعد أو لزوم وهلم جرا مما قد يرى بتفصيل أتم فى كتاب اللغه العربية : معناها ومبناها .

٣ — لم يدرك النحاة المعنى العام الذى تندرج تحته الأدوات جميعا ، وهو معنى الربط والدلالة على العلاقة فساقوا للحرف تعريفا لا يكفى فى حد الحرف بخاصة ولا الاداه بعامة إذ قالوا : الحرف ما دل على معنى فى غيره دون أن يذكروا طبيعة الغير ولا طبيعه هذا المعنى . وهكذا حصلنا على تعريف غير جامع ، لأن النواسخ (وسنعدها من الأدوات) تدل على معنى فى غيرها وهو النسخ ، وغير مانع ، لأن الظروف الجامدة المبينة لـ وهى ليست من الأدوات) تدل على معنى فى غيرها وهو اقتران حدثين .

لهذا قام نموذج كتاب اللغة العربية ١٩٧٣ على أساس تقسيم جديد فقسم الكلم إلى : اسم — وصف — فعل — ضمير — خالفة ظرف — أداة .

وفرق بين كل قسم من هذه الأقسام وبين غيره على أساس مزدوج من المعنى والمبنى وهذا التقسيم جزء لا يتجزأ من نظام اللغة العربية كما يتصوره النموذج . والمعروف أن النظام تجريد صامت ساكن غير متحرك وأن هذا النظام إن كان الإطار الذى يرتبط به الاستعمال فإن الفرق بينه وبين الاستعمال فرق ما بين الحسى والمعنوى أو بين الساكن والمتحرك أو بين القانون والسلوك الفردى والمعروف أن الاستعمال اللغوى ، بحكم ماله من دينامية وخضوع لظروف التكلم والمتكلم ، لا يمكن أن ينطبق تمام الانطباق على أى نموذج يمكن للباحث فى اللغة أن يجرده تجريدا . ومن هنا ينبغى لصاحب النموذج بعد إنشاء الإطار العام أن يفسر الظواهر المتعارضة مع هذا التأطير . وهكذا وجدت أن ما يسمى

في النموذج اسما ربما ورد في الاستعمال في مواقع يرد فيها الوصف أو الفعل أو الظرف وأن الوصف قد يرد مورد الاسم وأن الفعل قد يرد علما وأن الضمير قد يرد مورد الظرف الخ فأنشأت فكرة النقل أو بعبارة أدق انتفعت بما أشار إليه اللغويون من فكرة النقل فلقد تكلم اللغويون عن ظاهرة النقل بما لاحظوه من تحول الكلمة عن معناها الذى كان لها بأصل الوضع فقالوا إن هذه النقل قد يكون عن طريق المجاز اللغوى الذى علاقته المشابهة كالفصاحة مثلا نقلت عن صفاء اللبن وذهاب رغوته إلى نقاء اللغة وقد يكون بنقل اللفظ من المعنى الخاص إلى العام كالبأس إذ كان يدل على الحرب فنقل إلى الدلالة على الشدة من أى نوع وقد يكون بنقل اللفظ من المعنى الكلى إلى الجزئى مثل « الرث » وكانت تدل على الخسيس بوجه عام فخصصت باللباس والفرش وقد يكون بنقل اللفظ من المعنى اللغوى إلى المعنى الاصطلاحى كالصلاة والزكاة والصوم والحج والحال والتمييز الخ (فقه اللغة للأستاذ على وافى) هذا ما قاله اللغويون والبيانيون. وقد رأيت أن أضيف إلى ذلك نوعا آخر من النقل يشمل أمرين : نقل المبنى من استعمال القسم الذى ينتسب إليه من أقسام الكلم إلى استعمال قسم آخر والثانى نقل نمط تركيب الجملة بلا تغيير فيه من أسلوب إلى أسلوب آخر مثال الأول ما أشرنا إليه منذ قليل من أن الاسم قد يستعمل وصفاً كما في (زيد رجل) لأن النموذج يعرض لخبر المبتدأ أن يكون وصفاً فإذا ورد الاسم مورده تحول إلى وصف، بل إن النحاة أنفسهم أولوه بالوصف فقالوا : (أى متصف بالرجولة) ومن هذا القبيل قولهم : هذا رجل الساعة وهذا معاوية القرن العشرين وقضية ولا أبا حسن لها . وفى هذا المقام يتحول معاوية وأبو الحسن إلى نكرتين وقد يرد الاسم مورد الفعل كما فى ضربا زيدا مورد الفعل كما فى ضربا زيدا فيتعدى الاسم إلى المفعول وقد يرد مورد الظرف كما فى لقيته ساعة الغروب فتحدثت إليه بعض الوقت وافترقنا زهاء الثامنة مساء وتواعدنا أن نلتقى غدا .

وقد يرد الوصف مورد الاسم كما فى صالح وشاكر ومحمود وأحمد وخليل وغيرها من أسماء الأعلام . كما قد يرد الفعل هذا المورد كما فى يزيد ويشكر ويعيش ويموت ، يحيى وتغلب الخ وقد يرد الضمير (وهو فى هذا النموذج يشمل الإشارات والموصولات أيضاً مورد الظرف كما فى هنا وثم والآن (إشارة إلى الحاضر) أما نقل النمط التركيبى للجملة من أسلوب إلى أسلوب فمنه نقل الإثبات إلى الدعاء كما فى « بارك الله فيك » والنفى إلى الدعاء كما فى « لافض فوك» والاستفهام إلى الإنكار نحو : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » وقد التفت النحاة إلى هذا النوع الثانى (نقل

النمط التركيبي) وجعلوه جزءا من نموذجهم ولكنهم غفلوا عن النوع الأول فلم يلموا به إلا إلماما متسرعاً فى بابى اسم العلم والتمييز (الأعلام المنقولة والتمييز المنقول) .

وهناك فكرة أخرى كان لابد أن يشتمل عليها نموذج اللغة العربية ١٩٧٣ وهى فكرة تعدد المعنى الوظيفى للمبنى الواحد على نحو ما يتعدد المعنى المعجمى للكلمة الواحدة . ولم يغفل النحاة عن هذه الفكرة بل على العكس من ذلك نجدها تمثل العمود الفقرى فى نوع من أنواع الكتب النحوية، مثل مغنى اللبيب لابن هشام والجنى الدانى لابن أم قاسم ورصف المبانى لابن عبد النور المالقى ولكن النحاة مع ذلك لم يعطوا هذه الفكرة ما تستحقه من التنظير فلم يدخلوها فى تجريداتهم وتأصيلاتهم وينبغى أن يكون قد اتضح الآن ما أقصده بتعدد المعنى الوظيفى للمبنى الواحد فقد يكون المبنى (وهو يساوى ما يقصده المحدثون بلفظ Morpheme) أداة فتتعدد معانيها كما فى صلاحية « ما » أن تكون موصولة أو مصدرية أو نافية أو تعجبية أو زائدة . وكما فى صلاحية صيغة « فعل » (بفتح فسكون) للمصدر والصفة المشبهة وصيغة فعيل للفاعل والمفعول والمصدر وهلم جرا والفرق بين هذا وبين النقل أن النقل تحول عن قسم إلى قسم فهو مرتبط بأقسام الكلم ، أما هنا فالأمر مرتبط بصورة المبنى الذى يتعدد معناه فى داخل قسم بعينه فيتنافى مع فكرة النقل ولكنه قد يمتد على قسمين أو أكثر .

وفى رأى هذا النموذج أن أصل الاشتقاق ليس المصدر كما زعم البصريون ولا الفعل الماضى كما زعم الكوفيون. إنما هو الأصول الثلاثة التى تستعمل فى المعاجم على شرط أن تكون مفرقة غير موضوعة فى كلمة وأعجب لعبقرى كالخليل بن أحمد؛ إذ نراه أبا المعجميين العرب وسيد النحاة جميعا والمسئول المباشر عن كثير مما نعرفه الآن باسم أصول النحو. كيف اضطرب تفكيره بالنسبة لأصل الاشتقاق . لقد وضع الخليل أصلا للاشتقاق فى الصرف فى صورة المصدر فقال وقال البصريون معه : إن المصدر أصل الاشتقاق . وحين تصدى للغة فى كتاب العين فرع المشتقات لا من المصادر وإنما من الأصول الثلاثة التى تعرفها اليوم باسم أصول المادة فما الفرق بين المادة والاشتقاق ؟ ولماذا لا تكون أصول المادة هى أصول الاشتقاق ؟ الحق أن الصرف لو اعترف بهذه الأصول الثلاثة فى التفريع الاشتقاقى لكان أصدق مع نفسه لأن كل التحليلات الصرفية تقوم على افتراض الأصول الثلاثة أصلا للاشتقاق وترعاها فى كل التقسيمات سواء فى المجرد والمزيد وفى الصحيح السالم والمهموز والمثال والأجوف والناقص واللفيف

المفروق والمقرون في الميزان الصرفي وفي القول بالإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف وفي إسناد الضمائر إلى الأفعال وفي تثنية الكلمة وجمعها وتصغيرها والنسب إليها. بل إن الأصول الثلاثة معتبرة حتى في أمور تقع خارج نطاق الصرف كالإملاء الذي يفرق بين الألف الواوية واليائية في الكتابة وهلم جرا:

والنحو شبكة من العلاقات السياقية التي تقوم كل علاقة منها عند وضوحها مقام القرينة المعنوية التي قد يعتمد وضوحها على التآخي بينها وبين القرائن اللفظية في السياق والقرائن المعنوية في هذا النموذج النحوي هي قرينة الإسناد (ولها صور) قرينة التخصيص (ولها صور أيضاً) وكذلك النسبة (ولها صورها) والتبعية (ولها صورها) والمخالفة (ولها صورها) (انظر كتاب اللغة العربية معناها ومبناها) وأما صور الإسناد فهي الجمل الاسمية والوصفية والفعلية والأولى والأخيرة معروفتان أما الوسطى فالمعروف أن الوصف قد يذكر له فاعل وقد يتعدى إلى مفعول به وقد يكون له مفعول مطلق فإذا تقدمه أداة نفي أو استفهام بدت الجملة الوصفية جملة أصلية بحيث نجد «أقائم زيد» تقف جنباً إلى جنب مع «أيقوم زيد» «وأزيد قائم» أما إذا تقدمها مبتدأ أو موصوف فإنها تبدو في صورة الجملة الفرعية بحيث تبدو «قائم أبوه» في «زيد قائم أبوه» ولها نفس المظهر الذي لجملة «زيد يقوم أبوه» وهكذا يضيف النموذج جملة ثالثة إلى التراكيب العربية هي الجملة الوصفية وفروع التخصيص كلها علاقات للمنصوبات فالتعدية علاقة المفعول به وقرينته والغائية قرينة المفعول لأجله والمعية قرينة المفعول معه والظرفية قرينة المفعول فيه والتأكيد قرينة المفعول المطلق المؤكد للفعل أي الصارف لمعناه عن احتمال المجاز، والتحديد قرينة المفعول المطلق المبين للنوع أو للعدد والملابسة قرينة الحال والإخراج قرينة المستثنى والتفسير قرينة التمييز وأما النسبة فهي قرينة الإضافة وهي المعنى الذي ينتظم الجر بالحرف وتتعدد معاني هذه الحروف حتى تكاد تربو على الثلاثين (انظر باب حروف الجر في كتب النحو) وتكون الإضافة على معنى أي حرف منها وليست على معنى اللام ومن وفي، لاحظ مثلا معنى «عن» في عبارة «تجاوز الحد» ومعنى على في «ركوب الحصان» ومعنى إلى في «بلوغ المدينة» ومعنى «الباء» في «ضرب العصا» وهلم جرا وأما التبعية فقرينة قوامها الرابطة بين عنصرين من عناصر الجملة تجعلهما يقفان على نفس المستوى إزاء نواة الجملة، والمقصود بالنواة العنصر الفعلي للجملة (الفعل أو الوصف أو المصدر المضاف أو المتعدي) وهذه القرينة تدل على النعت والتوكيد والبيان والنسق والبدل ولا ترتبط

بإعراب معين وإن اعتمدت على المطابقة في الإعراب .

والمخالفة قرينة إرادة معنى غير إسنادى، له نمط يخضع لقاعدة من قواعد الجمل فحين يستعمل النمط نفسه لا على سبيل الإسناد ، يختلف المعنى عما كان في الإسناد وتشير اللغة إلى هذه المخالفة بالاختلاف في الإعراب ، فتفرق بين عنصر من التركيب في حالة الإسناد وبين هذا العنصر في غير الإسناد بالضمة هنا والفتحة هناك ، قارن لفظ « سلام » في قوله تعالى : «قالوا سلاما قال سلام قوم منكرون » وكذلك الأمثلة الآتية :

ما أحسن زيد . ما أحسن زيداً !

نحن العرب : نحن العرب نكرم الضيف

فصبر جميل : صبراً جميلا

عليك خطوك . عليك نفسك

العمل العمل (مبتدأ وخبر)

العمل العمل (إنشاء)

سقى لك ورعى . سقيا لك ورعيا

كم عمة لك يا جرير . كم عمة

ولقد جهد النحاة عظيم الجهد في محاولة تخريج معظم الطائفة الثانية المنصوبة على وجوب الحذف .

إنما كان الجزء الصرفي الذى قدمناه من النموذج تمهيداً ضرورياً للكلام في الجزء النحوى ؛ ذلك بأن الجانب الصرفي يقوم للنحو قرينتي البنية والربط (والمطابقة داخلة في الربط) اللتين تؤديان مع غيرهما إلى حراسة المعنى وأمن اللبس ، فالنموذج يشتمل على القرائن الآتية :

١ — العلامة الإعرابية . وقد سبقت الإشارة إلى موقف النحاة منها ، وهى تعد إسهاما من النظام الصوتي في بناء النظام النحوى . ولكن يدخل فيها كذلك عند النحاة تجريد ذهنى لا يتصل بالأصوات وذلك ما أطلقوا عليه الإعراب التقديرى والإعراب المحلى . وقد اتخذ نموذج اللغة العربية ١٩٧٣ ، الذى نحن بصدد الكلام، فيه موقفاً معينا من هذا النوع من التجريد الذهنى الذى لا يتفق مع المنهج الوصفى .

وسنشير إلى ذلك بعد قليل :

٢ — البنية الصرفية وهى قرينة يقدمها الصرف إلى النحو وتبدو قيمتها في الكشف عن المعنى عندما يكون الباب النحوى مشروطاً بشروط بنائية خاصة ؛ كاشتراط بناء الفعل للفاعل مع الفاعل وللمفعول مع نائبه واشتراط الجمود للتمييز والمصدرية مع اتحاد الأصول الاشتقاقية للمفعول المطلق ومع اختلافها للمفعول لأجله وهلم جرا فهنا تكون البنية قرينة المعنى النحوى وهو الفاعلية والمفعولية الخ .

٣ – الربط وهو يتم بطريقتين :

(أ) بغير المطابقة فيكون بالضمير نحو : قابلت الرجل الذى كلمتك عنه . وإعادة اللفظ نحو : واتقوا الله ويعلمكم الله . أو «فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه» أو الألف واللام نحو « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » وبالإشارة نحو « ولباس التقوى ذلك خير » وبإعادة المعنى نحو « شعارى لا إله إلا الله » وبالحرف، نحو «من عمل صالحا فلنفسه » لأننا لو تصورنا الفاء غير موجودة لكان الجار والمجرور صفة لما قبله وليس جوابا للشرط وهلم جرا .

(ب) بالمطابقة فى الشخص « المتكلم والخطاب والغيبة » أو فى العدد « الإفراد والتثنية والجمع » أو فى النوع « التذكير والتأنيث» أو فى التعيين « التعريف والتنكير ».

ووسائل الربط كما نرى تعود إلى العناصر الصرفية .

وهناك قرينتان تعودان إلى علاقة المبنى بالمبنى فى السياق وهما :

٤ – الرتبة وهى إما محفوظة دائما فى النظام والاستعمال فيعرف بها معنى الكلمة ويرتفع بها اللبس وإما غير محفوظة. إذ يقررها النظام مبدأ ويتصرف فيها الاستعمال أساويا وهذا النوع من الرتبة هو مجال ما يسميه البلاغيون : التقديم والتأخير أما النوع الأول فلا يحتمل تقديما ولا تأخيرا . وهل تتقدم الصلة على الموصول أو النعت على المنعوت أو المضاف إليه على المضاف أو المجرور على حرف الجر أو المعطوف على حرف العطف ؟

٥ – التضام وهو يشمل التلازم والتنافى والتوارد فأما التلازم فكلام النحاة عن المتلازمين أشهر من أن يعرف به ، وذلك حين لا تنفك الكلمتان إحداهما عن الأخرى كالجار والمجرور والعاطف والمعطوف والموصول والصلة وهلم جرا . وأما التنافى فعكس ذلك وهو أن تأبى الكلمة أن تضام الأخرى فالضمير لا يضاف ولا ينعت وحروف الجر تأبى الدخول على الأفعال كما تأبى واو الحال أن تدخل على الماضى دون توسط « قد » وهلم جرا .

أما التوارد فذلك نصيب العلاقات المعجمية من تحديد المعنى النحوى وهو فى اصطلاح هذا النموذج يعنى أن بعض الكلمات تحدد لها الاستعمال مدخولها وإن أطلقه نظام اللغة . فليس فى نظام اللغة ما يمنع إضافة لفظ «جلالة » إلى أى مضاف إليه : ذى جلال ولكن الاستعمال حدد ذلك بلفظ الملك فيقال «جلالة الملك» كما يقال « حنان الأم » وكما يقال : « الأم الرؤوم » و «العالم العلامة » . ولكلمة « صاحب » عدد محدود من الكلمات يمكن أن تضاف إليها عند إرادة التلقيب مثل : صاحب

الجلالة - صاحب المعالى - صاحب الفخامة - صاحب السعادة - صاحب الفضيلة - صاحب النيافة الخ . نحب أن نشير إلى أن تشومسكى قد كشف عن جانب هام فى علاقات التوارد لم أفطن إليه وذلك ما يمكن أن نطلق عليه « قيود التوارد » ترجمة لعبارة Selection restrectioms وقد علق تشومسكى هذه الظاهرة بالمناسبة النحوية لا بالصحة النحوية .

ولعل الرتبة والتضام من أوغل القرائن فى نظرية التوزيعيين ؛ لأن بيئة المبنى وهى مناط التوزيع عندهم ، إنما تحددها الرتبة وما يتعين بها من موقع (التضام) وما يستعين به من معاقبة أو كما يسمونها Substit ution ويذكر للنحاة العرب أنهم كانوا على ذكر من فائدة المعاقبة فى الكشف عن المعنى وكان من عباراتهم الشائعة قولهم : إن هذا يعاقب ذلك أو لا يعاقبه . فالحرف « قد » مثلا يعاقب « سوف » ولا يعاقب « أن » .

٦ - وهناك قرينة الأداة ، وكان يمكن لها أن تحتسب فرعا على قرينة البنية ، لأن الأداة مبنى على أى حال . لكن الأداة كما تكون قرينة على معنى مدخولها المفرد تكون قرينة على معنى الجملة وهنا نأتى مرة أخرى إلى فكرة المعاقبة لنقول مثلا إن حرف الجر « فى » لا يعاقب « قد » لأن كلا منهما يدخل على مدخول مختلف ويحل مواقع لا يحل فيها الآخر أو بعبارة التوزيعيين : يختلف توزيعها عن صاحبه وهناك جمل فى العربية تتعين لها أدوات فتكون الأداة قرينة الجملة . وإنه ليبدو أن تعين الجملة بالأداة هو الأغلب الأعم فى العربية ؛ لأننا لا نكاد نجد جملة (فيما عدا الإثبات والأمر بالصيغة) تخلو من أن تتقدمها الأداة ، فهناك أدوات تتقدم جملة النفى وجملة التأكيد وجملة الاستفهام والأمـــر باللام والنهى والتخصيص والتمنى والترجى والنداء والشرط الامتناعى والشرط الإمكانى والقسم والتعجيب الخ وقد يحدث أن تحذف الجملة كلها حين يدل دليل عليها وتبقى الأداة وحدها نائبة عن الجملة المحذوفة وقرينة عليها ، بحكم ما بينهما من التضام . كما فى نحو علامَ وإلام ، وكنحو : ولو وإن . . . الخ .

٧ - وهناك أيضاً قرينة النغمة فى الكلام المنطوق وهى قرينة هامة لم يقلل من أهميتها عند النحاة إلا أنهم كانوا يعرفون الفصحى فى صورتها المكتوبة الصامتة . ولكننا عندما نلجأ إلى الفصحى ونتخذها وسيلة من وسائل التعبير الشعرى أو الخطابى أو المسرحى أو السينمائى تبدو قيمة النغمة من جديد فى أجلى صورها ؛ فقد تحذف أداة الاستفهام فتحمل النغمة عبء هذا المعنى ؛ كأن تحكى قصة تطاول

أحد الأشخاص على رجل حليم وتصل منها إلى نقطة من نقاط تمام المعنى فيسأل السامع متعجبا : ولم يغضب ؟ وهو يعنى : « أو لم يغضب ؟ » فيحذف الهمزة ويعتمد على النغمة فى أداء المعنى . وقد جاء حذف الهمزة فى قوله تعالى بلسان موسى « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » وقول الكميت :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب
ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب

وقال عمر بن أبى ربيعة :

ثم قالوا : تحبها قلت بهرا
عدد النجم والحصى والتراب

٨ — وهناك قرينة السياق بكل ما يشتمل عليه من اعتبارات الصناعة النحوية والمقام البلاغى ثم ما سماه تشومسكى : قيود التوارد . وتتضح قرينة السياق فى تحديد معنى « إن » من قول الشاعر :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك
وإن مالك كانت كرام المعادن

فإن تعدد المعنى الوظيفى للمبنى الواحد يجعل الاحتمال هنا لأحد معنيين : النفى أو كون إن مخففة من الثقيلة دالة على التأكيد ، ولا يتعين أحد المعنيين بطبيعة الحال إلا أن يساعدنا السياق على تعيينه . وإذا نظرنا إلى صدر البيت وجدنا الشاعر يفخر بآبائه وعشيرته ، فلو جعلنا « إن » نافية لوقعنا فى التناقض بين الفخر بالقوم والذم لهم فلم يبق إلا أن نعتبر « إن » مخففة من الثقيلة دالة على التأكيد ليستقيم المعنى ، ولن يتسع المقام لتفصيل القول فى قرينة السياق لأنه سيؤدى بنا خارج حدود النموذج النحوى .

إن الذى تقدم من كلام فى القرائن الثمان إنما هو تمهيد للفكرة الرئيسية فى هذا النموذج وهى فكرة تضافر القرائن : لقد أعطى النحاة العرب لإحدى هذه القرائن (وهى العلامة الإعرابية) نصيبا من العناية عظيما أخمل ذكر القرائن الأخرى فبدا النحو العربى وكأنه إعراب خالص وقامت على الإعراب فكرة العامل النحوى التى رأى فيها النحاة قمة نظريتهم ويراها المنهج الوصفى المعاصر أكبر خدعة جازت على ذكاء النحاة العرب على مر العصور وملخص فكرة « التضافر » (التى تصلح عنوانا للنموذج الذى وضعته للنحو) أن المعنى النحوى لا يستعين بقرينة واحدة مهما كان خطرها . وإنما تتعاون القرائن المختلفة وتتضافر على بيان المعنى . فليس الفاعل فاعلا لأنه مرفوع فقط وإنما هو كذلك لأنه :

١ — اسم قرينة البنية
٢ — مرفوع قرينة الإعراب .

٣ — يقدمه فعل قرينة الرتبة

٤ — مبنى للمعلوم قرينة البنية مرة أخرى

٥ — ودل على من فعل الفعل أو قام بالفعل : قرينة معنوية هى قرينة الإسناد. ولو أنك قرأت هذه القرائن بالترتيب لوجدتها التعريف الذى وضعه النحاة لباب الفاعل ، ولكن الذى أقروا به عند التعريف نسوه عند التطبيق والتحليل وأنت ترى أن الفاعل هنا استبان بخمس قرائن ، إحداها قرينة الإعراب . وكذلك يتبين المبتدأ بأنه الاسم المرفوع المتقدم ، ولو تقديرا ، الذى يخبر عنه بمفرد أو جملة فى حكم المفرد وكل قيد من هذه القيود يكشف عن قرينة . والحال وصف فضلة منتصب يدل على حالة وقوع الفعل . فهذه خمس قرائن أيضاً والتمييز الاسم النكرة الجامد المنصوب الرافع لإبهام مبهم سابق . فهذه ست قرائن تتضافر على بيان التمييز . والمفعول المطلق مصدر منصوب مشارك للفعل فى مادته دال على توكيد أو نوع أو عدد . فهذه أربع قرائن . والمفعول لأجله مصدر منصوب مغاير للفعل فى مادته دال على سبب حدوث الفعل، وهذه أربع قرائن أيضاً تبين المفعول لأجله .

والتضافر يغنى عن القول بالعامل كما هو واضح لأننا إما أن نختص كل واحدة من هذه القرائن بنظرية كنظرية العامل النحوى وهو أمر لا يتفق والاقتصاد العلمى الذى أشرنا إليه سابقاً ولا يفيد عند النظر إلى المعنى أية فائدة بالإضافة إلى أنه يتنافى مع التفكير المستقيم ، وإما أن نجعل القرائن حزمة واحدة فيكون بيان المعنى راجعا إلى اجتماعها وتضافرها فلا فضل لواحدة منها على الأخريات بحيث تستحق تنظيرا إضافيا يخمل ذكرا لأخريات مع الصمت المطبق عن الكلام فى هذه الأخريات إلا عند الضرورة القصوى كحين يتكلمون عن لزوم الرتبة فى « ضرب موسى عيسى » أو شذوذ الحذف (والقرينة هنا هى التضام) فى قول الشاعر .

نحن الأولى فاجمع جمو
عك ثم وجههم إلينا

وتأويل المطابقة فى نحو :

فمن يك أضحى بالمدينة رحله
فإنى وديارنها لغريب

وشذوذ حذف الرابط فى

من يفعل الحسنات الله يشكرها

. . . .

وهلم جرا . ولكنهم لم يتصوروا تضافر القرائن على بيان المعنى، ولم يجعلوه جزءا من نموذجهم .

ويتفرع على القول بالتضافر مبدأ آخر يذهب بكل ما جاء به النحاة من طعن على العرب الفصحاء ويرد القراءات الموسومة بالشاذة اعتبارها وذلك هو مبدأ « الترخص » الذى ربما ورد فى التراث تحت عنوان « التوسع » أو الضرورة أو « التوهم » أو غير ذلك من المصطلحات التى تجتمع تحت عنوان « الرخصة » أو الترخص وقبل أن نشرح المقصود بهذا المبدأ ينبغى أن نجعله مقصورا على الفصحاء دون غيرهم ، وهو إذا طبقه المعاصرون منا دخل فى مجال الخطأ .

فالمقصود بهذا المبدأ تفسير ماخالف القاعدة من نصوص التراث وليس دعوة للمعاصرين إلى التوسع فى الاستعمال .

يقول أبو هلال العسكرى فى ص ٢٦ من كتابه (الفروق فى اللغة) « والتوسع يلازم موضعه المستعمل فيه ولم يتعداه » .

والمقصود بالترخص فى القرينة إهدارها عند أمن اللبس اتكالا على أن المعنى مفهوم بدونها فالمعنى يقتضيها فتكون مميزة بدلا من أن تكون هى التى تقتضى المعنى وتميزه، ومن هنا تصبح فائضة وتدخل ضمن مفهوم قول ابن مالك : « وحذف ما يعلم جائز » ونحن نظفر بالترخص فى النص القرآنى وفى الحديث وفى الشعر العربى وفى كلام العرب وحين نظفر به نجده يتناول كل القرائن فلا تستعصم واحدة منها دونه. فمن الترخص فى العلامة الإعرابية : قراءة « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء وقوله صلى الله عليه وسلم « إن مقر جهنم سبعين خريفا » بنصب خبر إن وقول امرىء القيس :

كأن ثبيرا فى عرانين وبله
كبير أناس فى بجاد مزمل

وقول العرب : « جحر ضب خرب » بجر لفظ خرب وهو صفة لمرفوع . ومن الترخص فى البنية الصرفية قوله تعالى :

« والتين والزيتون وطور سينين » أى سيناء وقوله : « سلام على إلياسين » أى إلياس وقوله تعالى « وإبراهيم وميكال» أى ميكائيل وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « جلس إحدى عشرة نسوة » أى امرأة وقول الراجز « الحمد لله العلى الأجلل » أى الأجل ومن الترخص فى المطابقة قوله تعالى : « السماء منفطر به » أى منفطرة وقوله : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت » أى الطواغيت وقوله تعالى : « بل أنتم قوم تجهلون » أى يجهلون وقوله جل شأنه : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » أى خاضعة وقوله صلى الله عليه وسلم « ثم أتبعه ستا من شوال » أى ستة وقول النابغة :

كأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فجمع التكسير وهو «كواكب» يعامل معاملة المؤنث المفرد لا الجمع . ومن الترخص فى الربط قوله تعالى : «وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا» فحذف الضمير (أى منهم) ويتحتم هذا لأن صاحب الحال هو الضمير فى قلوبهم وليس يوجد غيره مما يصلح أن يكون صاحب الحال . وقوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن . . . .» أى بعدهم ومن حذف الفاء اللازمة لجواب الشرط قوله عز من قائل : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم . . . » ، « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون . . » ، «وإن أطعتموهم أنكم لمشركون » ، «ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى . . . » وقول الشاعر : « من يفعل الحسنات الله يشكرها » . ومن الترخص فى الرتبة كل ما يعرفه النحو مما يسمى «رتبة غير محفوظة» وكذلك بعض الرتب المحفوظة كما فى قول الشاعر :

ألا يا نخلة فى ذات عرق

عليك ورحمة الله السلام

وقوله :

لعن الإله وزوجها معها

هند الهنود طويلة ا[ل]

وقوله :

ومالى إلا آل أحمد شيعة

ومالى إلا مذهب الحق مذهب

والترخص بالتضام إنما يكون بالفصل بين المتلازمين أو بحذف أحدهما أو الجمع بين المتناقضين ومن ذلك قوله تعالى : «وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم» فبعد لما مضارع تقديره عندهم «ينقص» وقوله صلى الله عليه وسلم : «إن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم» بحذف ما الموصولية وقول الشاعر :

كم بجود مقرف نال الغنى

فنصل بين كم الخبرية وتمييزها «مقرف» الذى ما يزال مجرورا بفاصل أجنبى هو الجار والمجرور (بجود) المتعلق بالفعل «نال» وقوله : «ما أنت بالحكم الترضى حكومته» فجمع بين المتنافيين وهما أل والفعل المضارع وأما الترخص فى الأداة فنحو قوله تعالى : «قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف» أى لا تفتأ وقوله تعالى «فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى» أى أهذا ربى ؟ وقوله جل شأنه «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا» فحذفت «أن» المصدرية دون أن يسبق ذكرها ولكن دل عليها نصب المضارع ومعنى المصدر المفهوم من الكلام السابق عليها (وحيا أو من وراء حجاب) . وقول أمرىء القيس .

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح . وأما قول عنترة :

« وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا »

فالنفى متحقق بذكر ليس قبل الناسخ الذى هو اسم الفاعل من « برح » وأما فى الآية الكريمة « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا . . . » فالمحذوف هو فاء العطف أما فى حيز الشرط فيكون المعنى : ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم فقلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا . . . وأما فى حيز الجواب فيكون المعنى : ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا . . . فالترخص واقع على إحدى الحالتين إذ أن جواب الشرط لا يتعدد هكذا . وأما فى قوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » فقد وقع الترخص بحذف حرفين هما اللام قبل « أن » ولا النافية بعدها أى : لئلا تميد بكم ومثله فيما يبدو : « إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » وعكس الحذف الزيادة فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءها وفتحت أبوابها » وقوله : « لا أقسم بهذا البلد » وأما الترخص فى النغمة فيقع بالقراءة مع الصمت وبالتلحين فى الغناء إذ تحول نغمة الغناء دون تحقق نغمة الكلام .

وفى كل حالة من حالات الترخص السابقة تقوم بقية القرائن المتضافرة بوظيفة حفظ المعنى من اللبس . فلا يضير الترخص شيئا ومما يدل على ذلك أنك قد تستمع إلى التلميذ يقرأ نصا فيخطىء فى النص إعرابا أو بنية الخ . وقد تستمع إلى المذيع يفعل الشيء نفسه ، ولكنك مع ذلك تفهم مايقوله هذا وذاك فلو كان الخطأ الذى ارتكبه كل منهما بإهدار القرينة يذهب بالمعنى ما فهم كلامه ولو اعتمد المعنى على هذه القرينة التى أهدرها لخفى المعنى ولوقع الكلام فى حدود اللبس . والذى يبدو لى أن القراءات الشاذة فى جملتها يمكن أن تفسر على أساس الترخص وعندئذ لا تكون شاذة لأنها تبدو فى مظهر مألوف درج الكلام الفصيح على الظهور به ولأن الترخص من الكثرة والشيوع فى كلام العرب بحيث لا ينبغى أن يعد شذوذا ثم لأنه مشروط فى كل حالة بأمن اللبس ومن هنا هنا كان يحسن أن يحتل مكانه المشروع من النظرية النحوية وألا تنقطع الأسباب بينه وبين قواعد النحو . ومن أصول النحاة أن « الشذوذ لاينافى الفصاحة » .

أشرنا عند الكلام عن النموذج البصرى إلى أن النحاة نسبوا الزمن النحوى إلى الصيغ المفردة فجعلوا الزمن وظيفة الصيغة وقالوا « إن الفعل يدل على الحدث بلفظه وعلى الزمان بصيغته » ولما كانت صيغ الفعل ثلاثا عند البصريين جعلوا الأزمنة ثلاثة وأعانهم على ذلك اتفاق تقسيمهم مع الفهم الفلسفى لمقولة الزمان . ومن هنا جعلوا الزمن النحوى إما ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا ، وجعلوا للأول صيغة فعل وللثانى والثالث صيغتى يفعل وافعل ولم يتكلموا عن الزمن بالنسبة للمصدر أو للصفات الخمس (اسم الفاعل واسم المفعول

والصفة المشبهة وصيغة المبالغة وأفعل التفضيل) إلا في مجرى القول عن إعمال اسم الفاعل وربما أشاروا في معرض الصفة المشبهة إلى الدوام والثبوت دون تحديد الزمن.

أما في نموذج اللغة العربية ١٩٧٣ فقد آخى بين الزمن والجهة وخرج من ذلك بنظام زمني غني تباهي به اللغة العربية غيرها من اللغات وربما حسن عند هذا أن أوضح المقصود بلفظ الجهة أنها في الأصل فكرة مما تشتمل عليه الدراسات اللغوية الحديثة تحت اسم Aspect ولكنني عندما نظرت إليها في ضوء تركيب النظام النحوي العربي خرجت بفهم لها غير مطابق لما فهمه الغربيون منها إذا وجدت الجهة في لغتنا تقوم بوظيفة تخصيص المعنى كما وجدت أن المعنى الذي تخصصه الجهة إما أن يكون « الحدث » وأما أن يكون الزمن فأما مخصصات الحدث فهي المنصوبات (التي جعلنا قرينتها الشاملة منذ قليل قرينة التخصيص) والمجرورات. ومعنى ذلك أنك إذا قلت : « قرأت » أسندت حدث القراءة إلى نفسك على وجه عام يشمل كل مقروء وكل سبب للقراءة وكل مصاحب لها وكل مكان.

كما يشمل المعنى الحقيقي للقراءة والمجازي لها ونوعها ولا يحدد ملابسة الخ فإذا قلت « قرأت الكتاب » فقد خصصت القراءة بالكتاب ونفيت الصحيفة والمجلة الخ. وإذا قلت « قرأت طلبا للمتعة » فقد خصصت القراءة بسبب ونفيت بقية الأسباب وكذلك الحال في « قرأت وضوء المصباح » « وقرأت قراءة متأنية » و « قرأت جالسا » و « قرأت في الحجرة » الخ. وأما مخصصات الزمن فهي أفكار مثل التجدد والانقطاع والثبوت والدوام والاستمرار والبساطة والمقاربة والشروع والقرب والبعد والتعود ويعبر عن هذه الأفكار بالنواسخ الفعلية (كان وأخواتها وكاد وأخواتها وبعض الحروف مثل قد ولم والسين وسوف إلخ) وبهذه المزاوجة بين الزمن والجهة يصبح الزمن وظيفة السياق بعد أن جعله النحاة وظيفة الصيغة وهكذا نستطيع التفريق بالزمن بين تراكيب مثل كان فعل وكان قد فعل وكان يفعل وقد فعل وما زال يفعل وظل يفعل وفعل وكاد يفعل وطفق يفعل ويفعل وسيفعل وسوف يفعل وسيظل يفعل الخ.

والدليل على أن الزمن النحوي وظيفة السياق أن الأوصاف الخمسة والمصدر لا ينسب إليها الزمن حالة الإفراد ولكنها إذا دخلت معمعة السياق استعانت بقرائن مختلفة على الانتساب إلى زمن بعينه أو من قرأ باب إعمال اسم الفاعل أو إعمال المصدر وإعمال الصفة المشبهة في كتب النحاة وتأمل التراكيب السياقية التي ترد بها هذه المباني أدرك اختلاف الأزمنة بين بعض صورها والبعض الآخر وعرف أن مرجع الدلالة الزمنية في هذه التراكيب إنما هو قرائن السياق لا معنى الصيغة ذاتها.

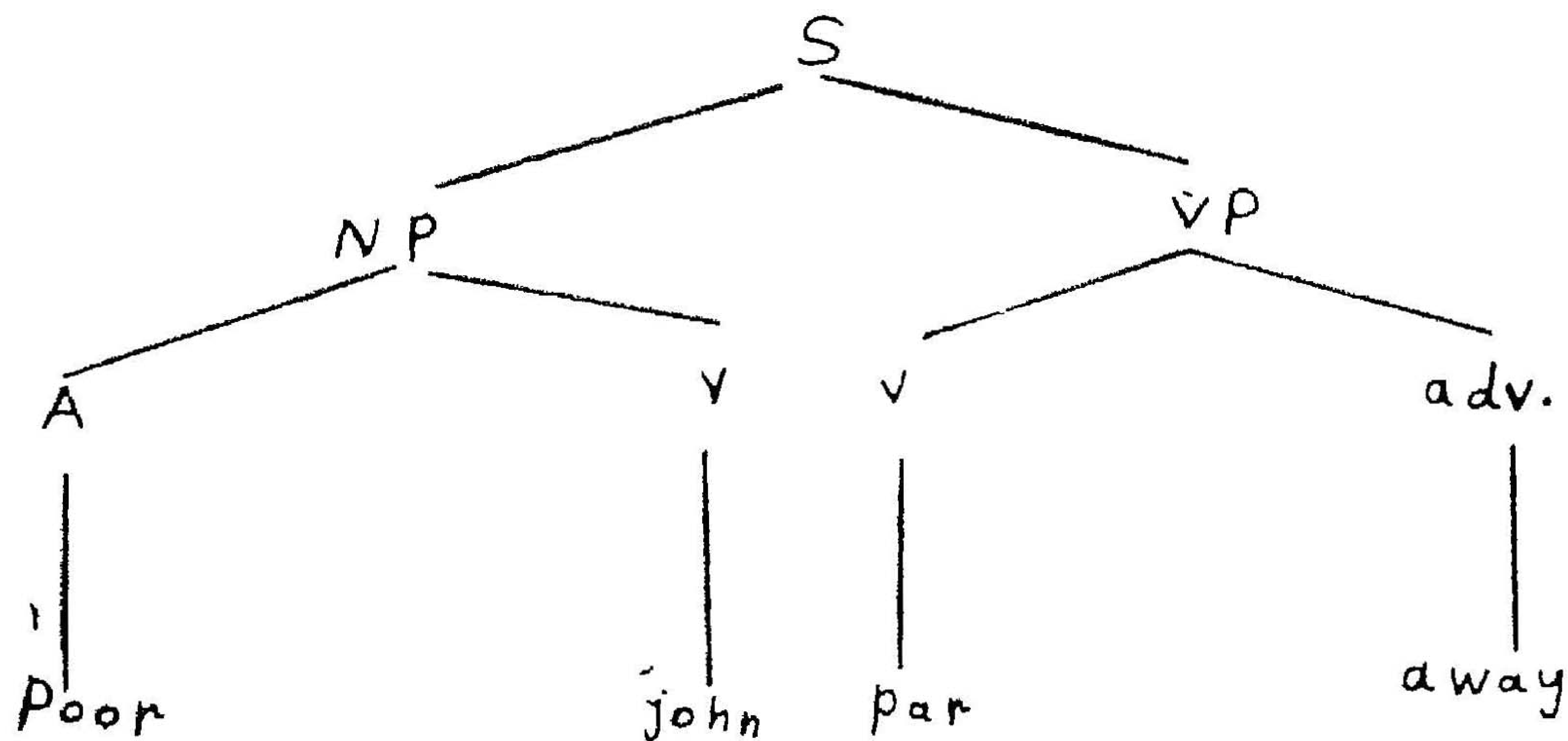
النموذج التحويلي :

رأينا كيف اختلف النموذجان السابقان في تصورهما نظام اللغة العربية الفصحى دون أن تتغير اللغة نفسها مما يدل على أن النموذج النحوى هو تصور لنظام اللغة يختلف باختلاف الباحثين في اللغة وليس هو اللغة نفسها أوحى بها إلى نبي نحوى وإذا رجعنا إلى المثل الذى ضربناه للفرق بين البصريين الذين نظروا إلى الضاحية من الطائرة العمودية وبيني إذ سعيت إليها ودخلت بيوتها وحجراتها أمكننا أن نقول أن النحو التحويلي كما يراه تشومسكى والملتفون حوله لم يدخل بيوت الضاحية ولم يكتف بالطائرة العمودية ليحلق فوق الضاحية من قرب بحيث يراها ولا يرى الضواحى الأخرى وبقية المدينة وإنما حلق تشومسكى في أجواء الفضاء ليرى المدينة كلها بضواحيها المختلفة (والمثل هنا اللغات الإنسانية جميعاً) وليصفها بما استنبطه من الصفات المشتركة بين الضواحى جميعاً ، والمدينة هنا في جملتها هي اللغة باعتبارها ظاهرة إنسانية أو كما يسميها دى سوسور Le langage والضواحى هي اللغات المختلفة كالعربية والفارسية والتركية . وقد حاول التحويليون أن يوجدوا نحوا عاما لهذه اللغات الإنسانية جميعاً به تتضح كيفية اكتسابها واختزانها وتحويل المختزن إلى الاستعمال . والعلامة تشومسكى تلميذ لهاريس الذى هو تلميذ لبلومفيلد منشىء اللغويات التوزيعية في أمريكا ومن هنا يعتبر النحو التحويلي حفيداً إن لم يكن ابنا مباشرا للنحو التوزيعى . ولكن تشومسكى آخى بين تعاليم بلومفيلد وتعاليم همبولدت ووصفية دى سوسور ومنطقية بور رويال وانتفع مع كل ذلك بالمنطق الرمزى وعلم النفس وآقر على نفسه بالعقلانية في فهم اللغة .

لقد قال بلومفيلد في كتابه « اللغة » ١٩٣٣ « كل متكلم يعنى بالتأمل فيما يقول لابد أن نخبرنا » .

إن Poor John ran away مركبة من مكونين مباشرين هما Poor John و ran away وأن كلا من هذين بدوره صورة مركبة ، وأن المكونات المباشرة لعبارة Poor John هى Poor و John وأن مكونات ran away هى ran و away وهكذا وقع بلومفيلد لأول مرة على مصطلح قدر له أن يؤدى دوراً كبيراً على مسرح الدراسات اللغوية الأمريكية هو مصطلح « المكونات المباشرة » : Immediate Constituents لكنه ترك لتلاميذه من بعده أن ينموا هذه الفكرة ويصلوا بها إلى نتائجها الطبيعية في اتجاه الكشف عن التراكيب النحوية الملبسة وغير الملبسة ومن خلال اعتماد بلومفيلد وتلاميذه ، في التحليل النحوى ، على ظواهر الرتبة والتضام والمعاقبة والموقع جعلوا التوزيع مذهباً لهم وعرفوا به وسمى

تلاميذ بلومفيلد عملهم باسم immediate constituent analysis أو تحليل المكونات المباشرة. وعرضوا هذا التحليل في صور بيانية مختلفة أشهرها الشجرة التي تبدو على النحو التالي :



انتفع التحويليون بهذه الطريقة من طرق العرض ولكنهم لم يستخدموها على علاتها وإنما طوروا الإفادة منها بحسب المطالب العلمية لمنهجهم. لقد قيل إن إحدى مميزات النحو التحويلي أنه يمكننا إن نلمح القرابة بين جمل متمايزة من حيث بنيتها السطحية كما نلمح الاختلاف بين جمل متطابقة من حيث هذه البنية السطحية. وهكذا يمكننا أن نعبر بالتحليل النحوي عن طبيعة القرابة بين أزواج من الجمل مثل :

ضرب زيد عمرا   ضرب عمرو

علمت   زيدا   تعلم   زيد

قام   زيد   زيد   قام

كما يمكننا أن نستخرج بنيات عميقة متقدمة بالوقف على أماكن مختلفة من قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » إذ يمكن أن يرد على الآية المعاني التالية :

ذلك الكتاب * لا ريب فيه * هدى للمتقين

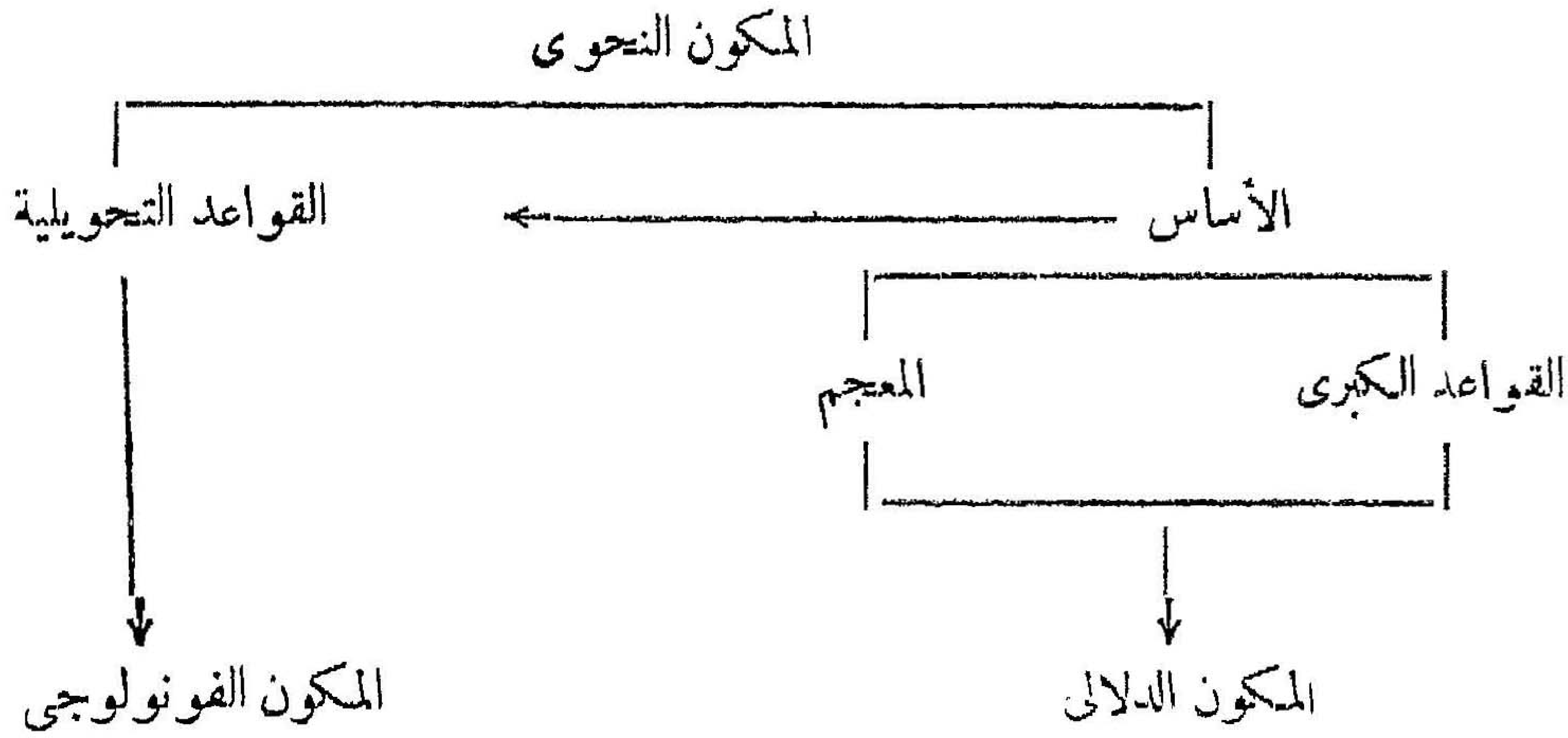
ذلك الكتاب لا ريب * فيه هدى للمتقين *

ذلك الكتاب * لا ريب * فيه هدى للمتقين *

ذلك الكتاب (لا ريب فيه) هدى للمتقين *

كما يمكننا من أن ندعى معنيين على الأقل لعبارات مثل : « زيارة الأصدقاء سارة » و « دار الكتب المصرية » و « لقد رجا التلميذ المعلم أن يقرأ النص » إذ يأتي اللبس من إضافة المصدر وتحديد المنعوت وتعيين مرجع الضمير على الترتيب فإذا حللنا هذه الجمل بواسطة الشجرة السابقة فربما أدركنا إلام أضيف المصدر وإلام رجع

الضمير وما المنعوت الذى وصفه النعت . وأكثر من ذلك أننا نستطيع من خلال هذه الشجرة أن نولد من معنى الجملة بنيات سطحية أخرى تعبر عن المعنى نفسه مثل : «من السار أن يزورك الأصدقاء» و «دار مصرية للكتب» و «رجاء التلميذ أن يعيد المعلم قراءة النص» .. الخ . غير أن التحويل لا يتم من بنية سطحية إلى بنية سطحية أخرى، وإنما يتولد من البنية العميقة التى يمكن التعبير عنها بطرق مختلفة من خلال أنواع من القواعد التى شرحها تشومسكى بصورة يمكن عرضها بالشكل البيانى التالى :



أما القواعد الكبرى فإنها تحدد تخطيط البنية العميقة للجملة على النحو التالى :

S→NP VP أى الجملة ضميمة اسمية وضميمة فعلية

NP→Det N «الضميمة الاسمية» أداة واسم

VP→Anx V «الضميمة الفعلية» مساعد وفعل

ويقرأ السهم كما تقرأ «أى» التفسيرية فى اللغة العربية . هذا هو الجانب الأول من جانبى الأساس، أما الجانب الثانى وهو المعجم فإنه يحدد عددا من السمات المعجمية التى تتصف بها أو توصف من خلالها مداخل المعجم كأن نقول إن لفظ «الرجل» يتسم بأنه اسم معدود (حى – إنسان) فإذا أردنا الجنس أبدلنا «معدود» بعبارة «لا معدود» وفائدة هذه السمات أننا سنرى بعض الأفعال تتخذ فاعلها ومفعولها بشروط خاصة تحددها هذه السمات، فمثلا الفعل «صلى» لا يتخذ فاعلا من النبات أو الجماد أو الحيوان والفعل «بكى» لا يكون فاعله إلا من يصح منه البكاء . فإذا اكتفينا بالقواعد الكبرى والسمات المعجمية فإنها لن تمدنا بالكلمات بذاتها لأنها ليست أكثر من

مجموعة من القواعد والمطالب المجردة ومن ثم تحتاج إلى عنصر دلالى يعيننا على أن نختار المعانى المنسوبة إلى البنية السطحية : وفى الوقت ذاته تعمل مجموعة أخرى من القواعد التحويلية على أن تستعين بالعنصر الفونولوجى من هذا النموذج لتصوغ البنية السطحية المعبرة عن تلك البنية العميقة . وقد تطلب هذا المنهج أن تحدد الضمائم التى تعبر عنها هذه القواعد تحديداً مجردا مثل (NP VP) وأن تصاغ قواعد لاستبدال الضمائر بالأسماء وقواعد لإدماج الجمل الفرعية فى تكوين الجمل الأصليه .

لقد جعلنا الغاية التى نسعى إليها من عرض هذا النموذج أن نرى كيف يمكن أن توصف اللغة العربية الفصحى من خلاله : والذى ينبغى لنا أن نفعله ، لنمهد به الطريق إلى هذا النوع من التطبيق ، هو أن نحدد الضمائم فى لغتنا العربية لنعرف ماذا يقصد بالضميمة الاسمية وماذا يراد بالضميمة الفعلية . وأول شيء أن المقصود بالضميمة الاسمية قد يكون واحدا من الأمور الآتية :

الاسم المفرد — الضمير — الاسم الموصوف — المتضايفين — الموصول وصلته — الموصوف وصفته .

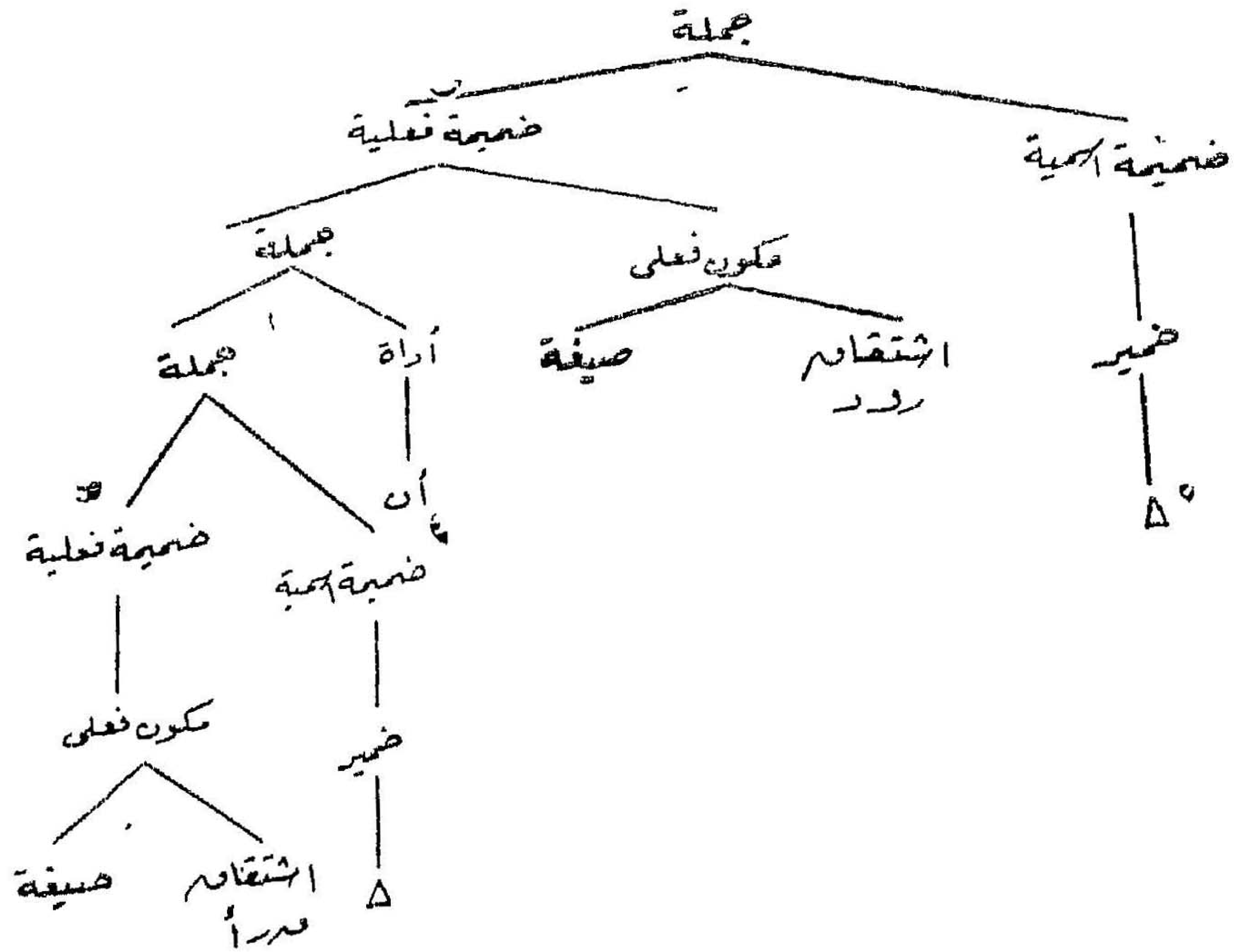
أما المقصود بالضميمة الفعلية فهو :

المكون الفعلى (وهو الفعل أو الوصف أو المصدر وما فى حيزه) — المركب الفعلى من ناسخ ومكون فعلى .

أما الجملة الفرعية فقد تقدم لها أنْ أو أنّ أو ما المصدرية أو غيرها من الأدوات المصدرية أو الموصول وقد تكون الجملة بدون مقدمة ولكنها حالة محل المفرد من نوع ما يسميه النحاة : الجمل ذوات المحل ونحب أن نشير إلى أن المصدر الصريح سيعامل معاملة خاصة ، فإذا وقع المصدر الصريح دون مطل أو إضافة عومل كما يعامل الاسم المفرد وإن وقع مضافا أو ممطولا (ذا فاعل أو مفعول) عومل معاملة المصدر المؤول من حرف وجملة . أما الضمير فشرط استبداله من الاسم أن يتحد الاسم الذى حل محله الضمير فى الصورة مع مرجع الضمير وهذا ما يسمى بالتطابق المعجمى Lexical identity ثم أن يشير إلى ما يشير إليه المرجع وذلك هو التطابق الإشارى referential identity.

وسنحاول فيما يلى أن نعرض عددا من الجمل بهذا النوع من التحاليل ونضيف من خلاله مزيدا من الشرح لتطبيق هذا المنهج على اللغة الفصحى ؛ لاختبار صلاحية هذا المنهج أن يعاد وصف العربية من خلاله :

١ ـ أريد أن أقرأ :



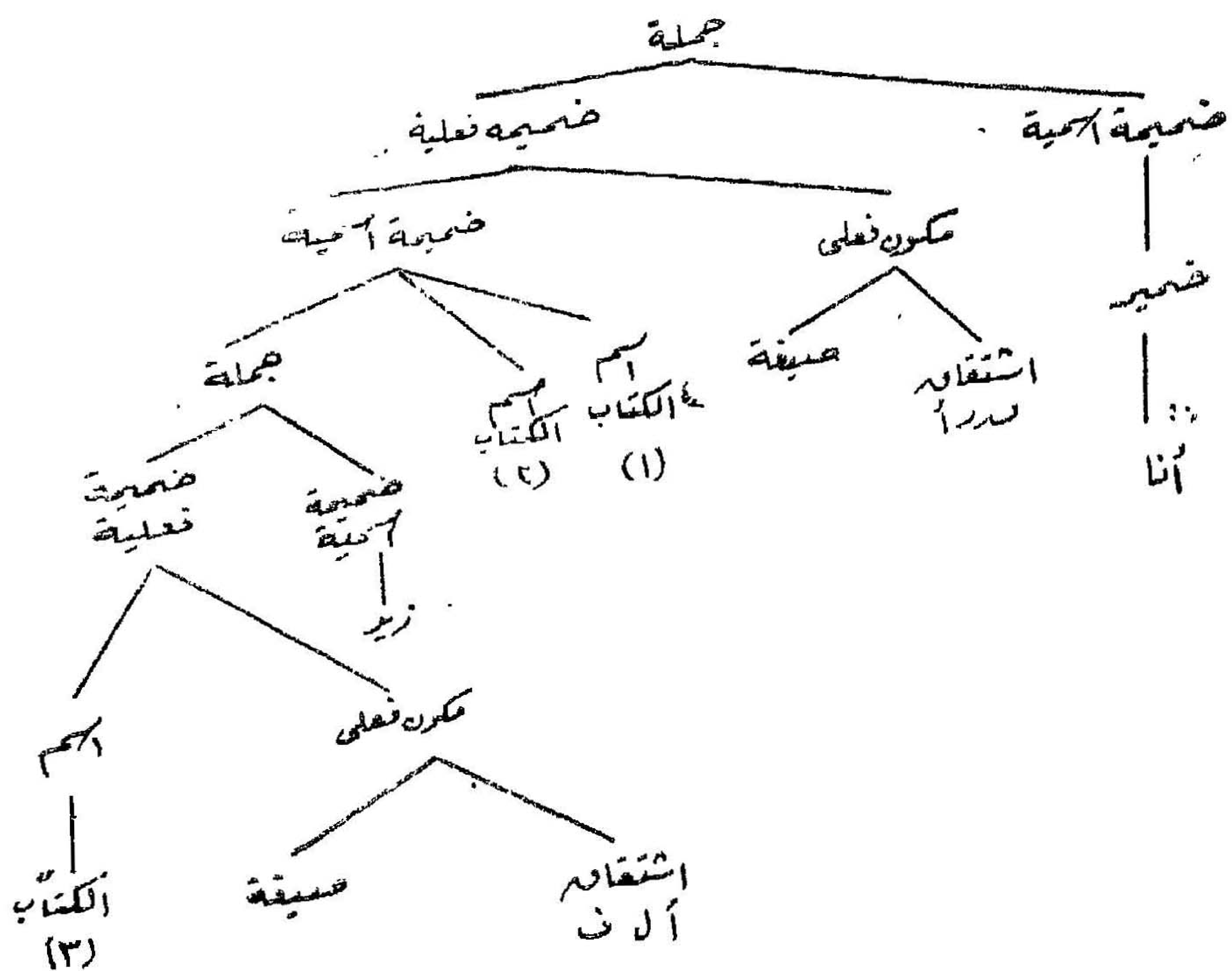
فى هذه الجملة نجد أننا قدمنا الضمير وجعلنا مستترا (٥) قبل الفعل لأن الرتبة فى حساب هذا النموذج إنما هى ظاهرة سطحية أسلوبية فقولك « قام زيد » هى من وجهة نظر النموذج المطروح « زيد قام » والفارق أسلوبى يتعلق بالتقديم والتأخير والأسلوب غير النحو، أما عبارة « المكون الفعلى » ففائدتها أنها تمكننا من أن نضع تحتها فعلا أو وصفا أو مصدرا مضافا أو ممطولا ، ولذلك رصدنا تحتها الاشتقاق لأنه لا يتعدد ويمكن تركه أيضا لإفساح المجال لمختلف المواد الاشتقاقية وتركنا الصيغة غير محددة لتنويع البنية السطحية

ولما رأينا أن الجملة الفرعية تتقدمها أداة أفردنا للأداة فرعا خاصا قبل كلمة « جملة » وبهذا يمكننا أن نعبر عن هذه الجملة بالبنيات السطحية الآتية :

أريد أن أقرأ	أريد القراءة
أنا مريد أن أقرأ	أنا مريد القراءة
أردت أن أقرأ	إرادتى أن أقرأ

وهلم جرا مما يمكن إرجاعه جميعه إلى التخطيط السابق فإذا غيرنا الاشتقاق فى المكون الفعلى الأول إلى (ن و ى) وفى الثانى إلى (ص ل و) فقد نصل إلى جملة « نويت أن أصلى »

٢ – قرأت الكتاب الذى ألفه زيد :



ويتضح من هذا المنثور التحليلى للبنية العميقة أن العناصر النهائية بالترتيب هى :

أنا + ق ر أ + الكتاب ١ + الكتاب ٢ + زيد + أ ل ف + الكتاب ٣ .

وبقواعد التحويل نصل إلى ما يأتى :

أنا + ق ر أ تتحول إلى قرأت

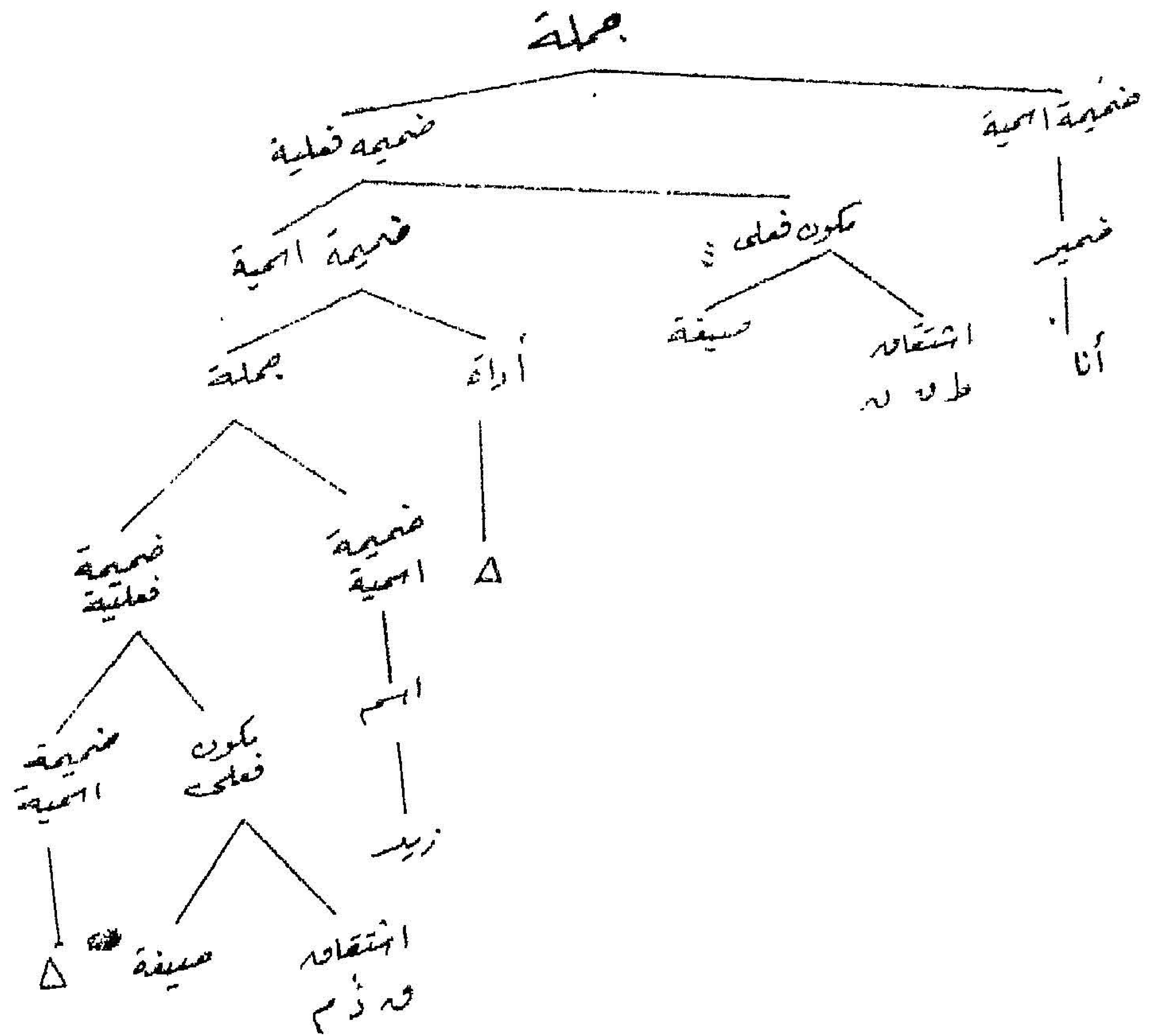
الكتاب ٢ تتحول إلى الذى لمراعاة التطابق المعجمى والإشارى بينه وبين الكتاب (١)

الكتاب (٣) تتحول إلى ضمير متصل للسبب نفسه بينه وبين الكتاب (٢)

زيد ألف الكتاب تتحول إلى ألفه زيد بعد وضع الضمير الموصول موضعه

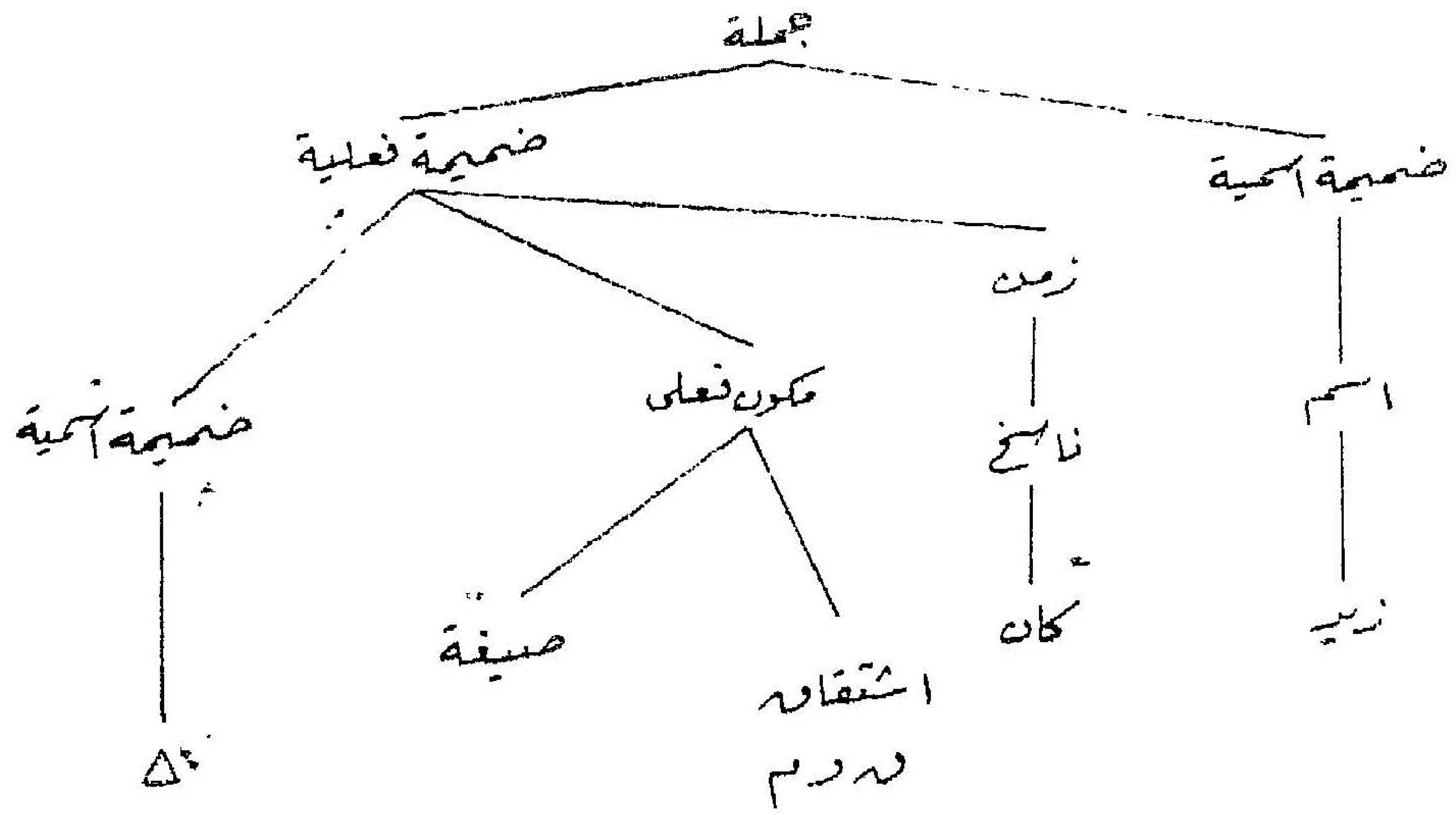
وهذا هو المقصود بالتحويل الذى سمى النموذج باسمه .

٣ ـ ظننت زيداً قائماً :



الأداة التي لم تظهر هي (أن) ولو ظهرت لترتب على ظهورها تنشيط قواعد تحويلية أخرى بالنسبة للإعراب . أما عدم ذكر الضميمة الاسمية الأخيرة فمعناه اللزوم مع اللازم والحذف مع المتعدى .

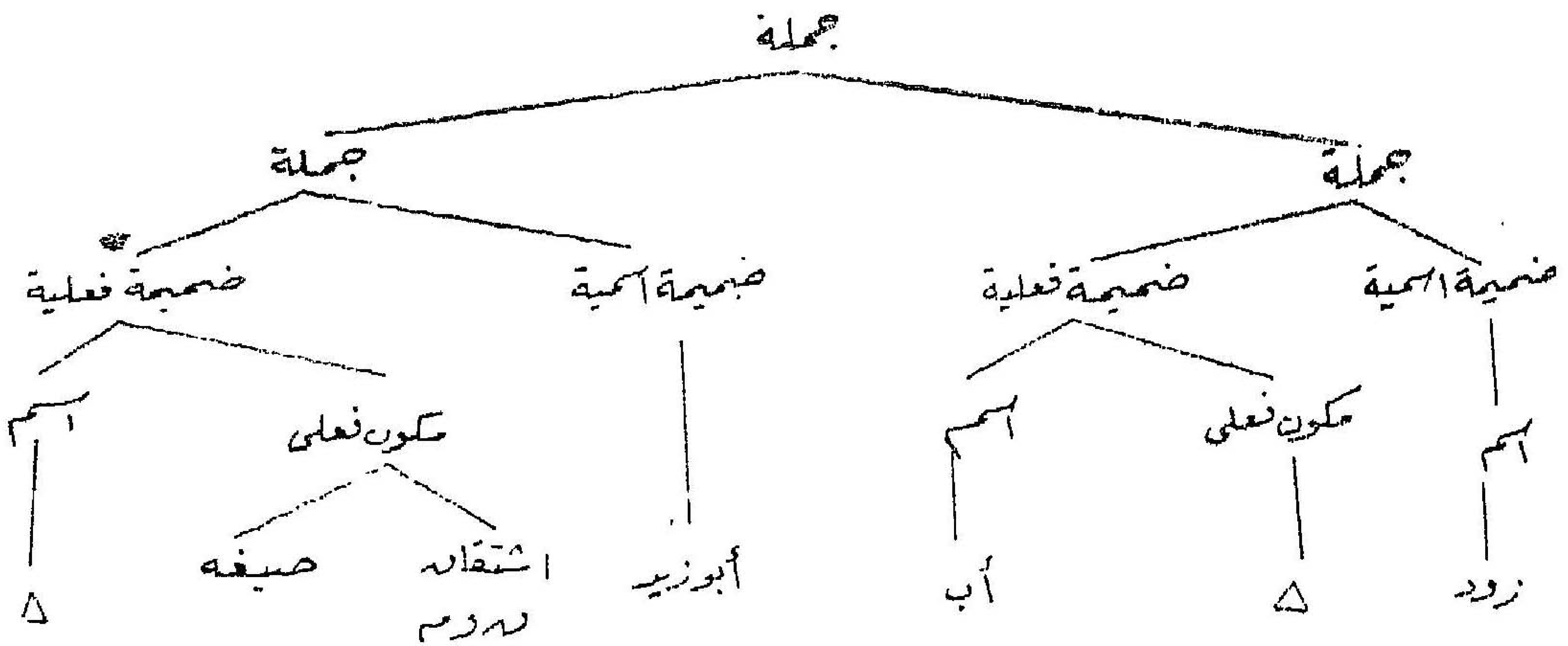
كان زيد قائما :



ويلاحظ :

١ ـ أن المركب الفعلي مكون من الناسخ وخبره مفعوله محذوفا كما في : كان زيد ضاربا عمرا .

٢ ـ أن الخبر بصورته الحاضرة قد يكون لازما كما في المثال الذي لدينا وقد يكون زيد أبوه قائم :

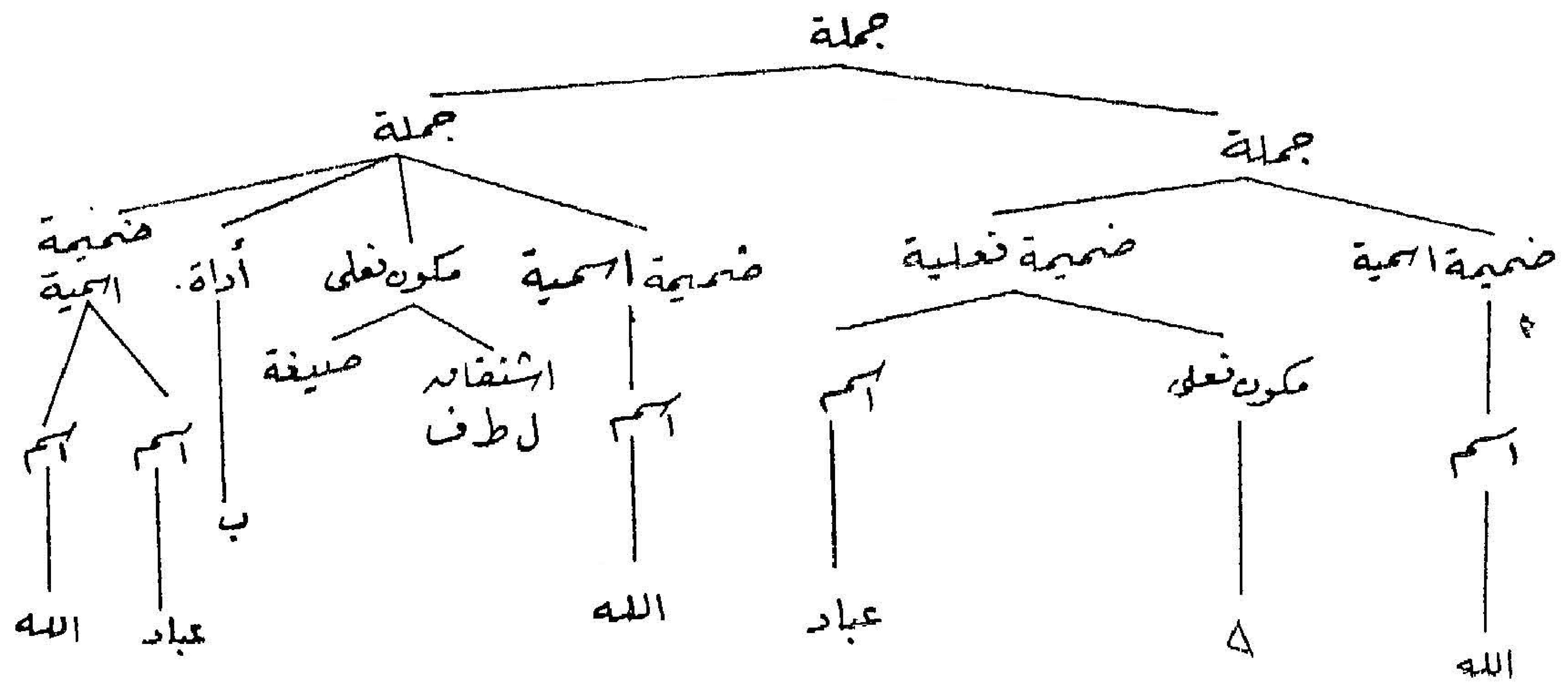


ومعنى هذا التخطيط أن البنية العميقة مكونة من شقين :

(أ) زيد له أب (حيث ترجحت الملكية التى دلت عليها « له » إلى سكون فعلى = يجوز أو يتخذ ، أو نحوها) .

(ب) أبو زيد قائم .

الله لطيف بعباده :



يلاحظ هنا :

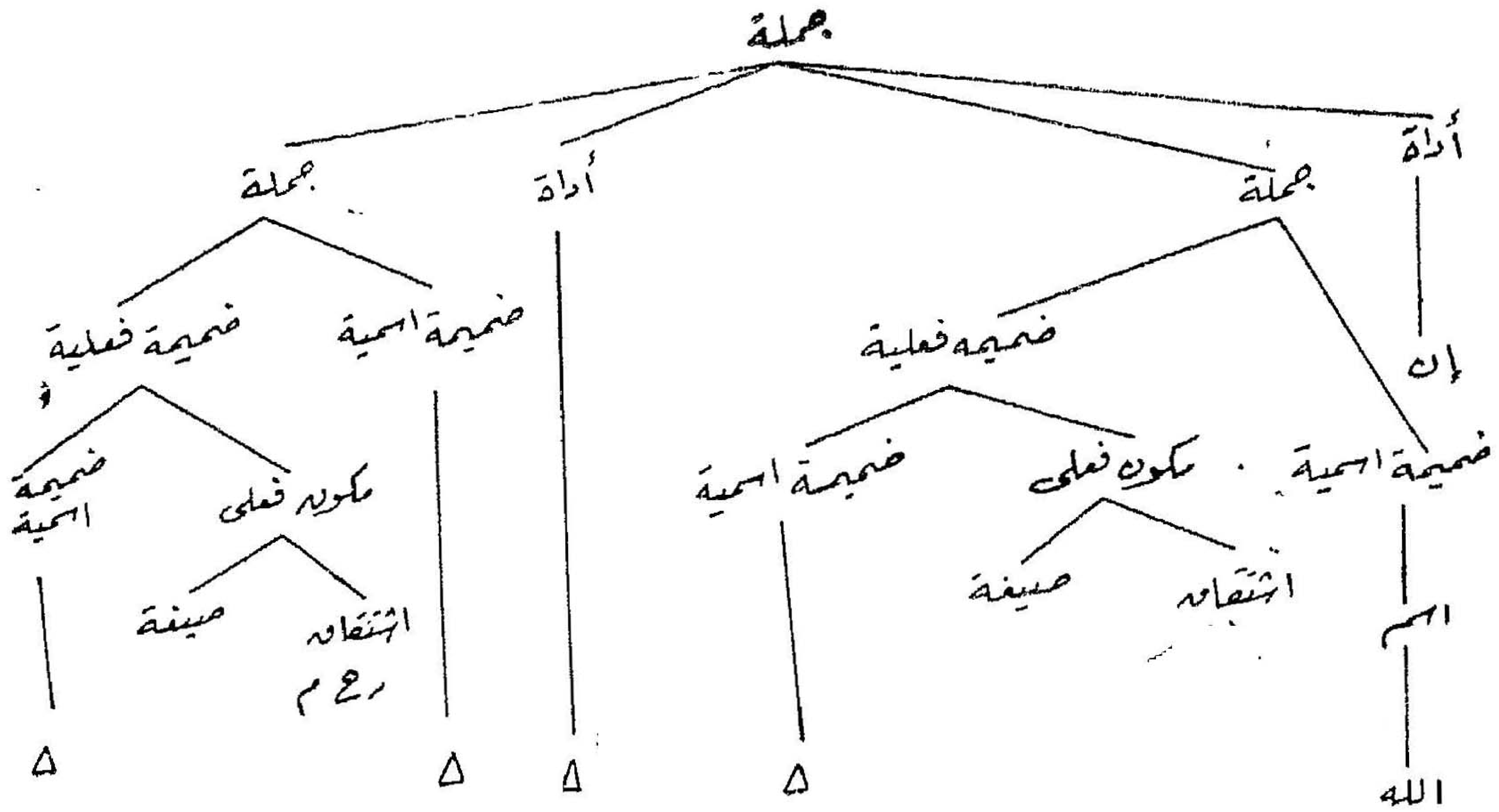
(أ) أن الضميمة الاسمية مكونة من اسمين مما يدل على الإضافة .

(ب) أن الاسم الثانى (الله) يتطابق معجميا وإشاريا مع اسم سابق فيتحول إلى ضمير يعود على السابق

(ج) مرة أخرى تركنا الصيغة خالية لنستطيع أن نضع فيها ما يمكن من الأفعال والأوصاف والمصادر .

(د) هنا إذا تكررت الإضافة تعددت الأسماء تحت الضميمة الاسمية كما فى : « الله يغفر ذنوب عباده » .

إن الله غفور رحيم :



يلاحظ هنا :

(أ) أن المكونين الفعليين من أصل اشتقاق متعد ولكن المفعول لم يذكر (انظر ظننت زيدا قائما) .

(ب) أن البنية السطحية لهذه الجملة من قبيل تعدد الخبر ولكن البنية العمقية جعلت ذلك من قبيل تعدد الجملة أى أن تعدد الخبر عولج بتقدير تعدد المبتدأ أى تعدد الجملة .

(ج) أن الأداة التى لم تذكر (Δ) هى واو عطف مقدرة فى البنية العمقية .

(د) أن الضميمة الاسمية الأولى فى الجملة الثانية هى لفظ الجلالة أو ضميره وإن لم يذكر .

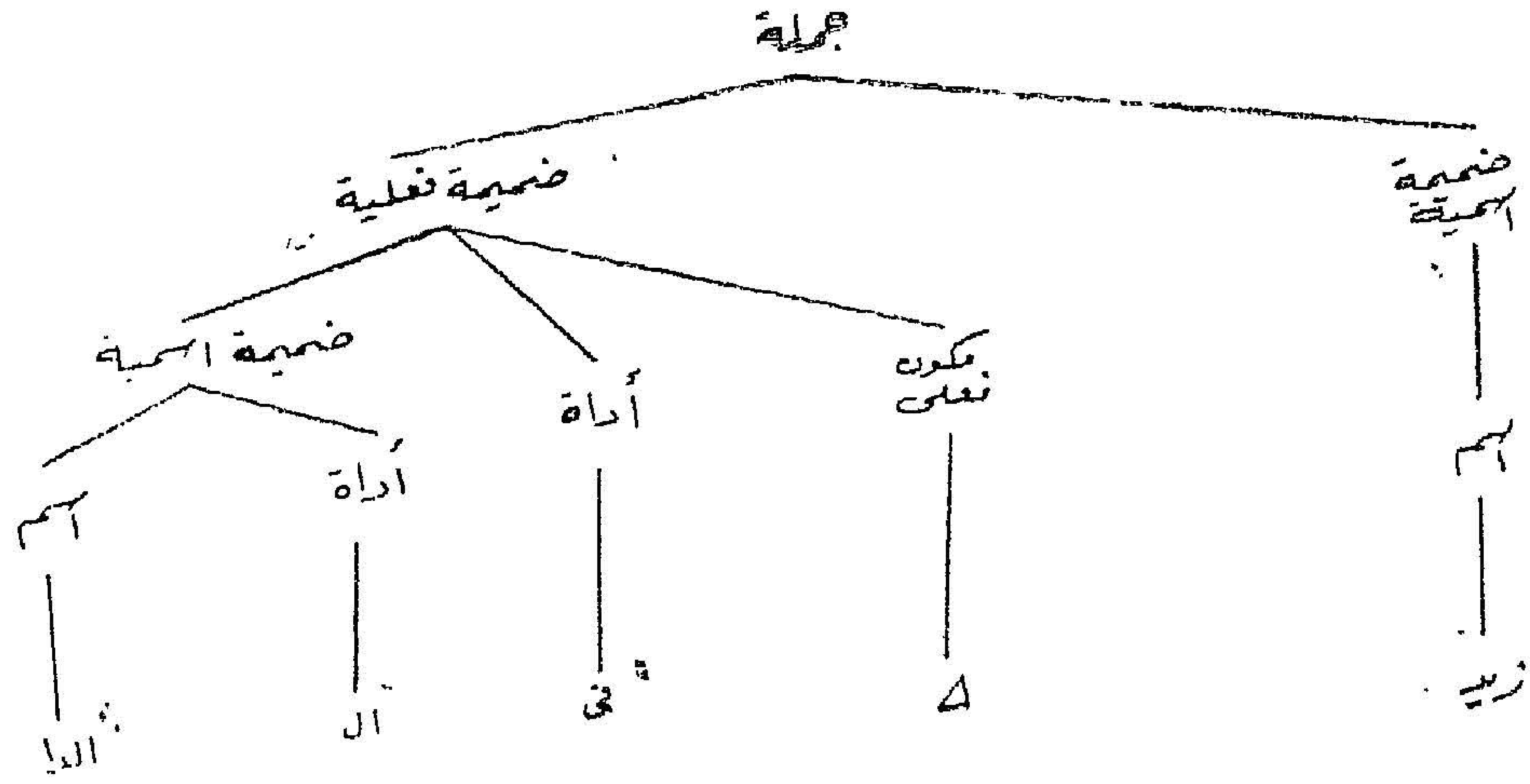
(ﻫ) نستطيع أن نغير الأصل الاشتقاقى للمكونين الفعليين فنحصل على بنيات أخرى عمقية لجمل سطحية

مثل : إن الله لطيف خبير

إن الله قوى قدير

إن الله رحمن رحيم

٦ – فى الدار زيد :



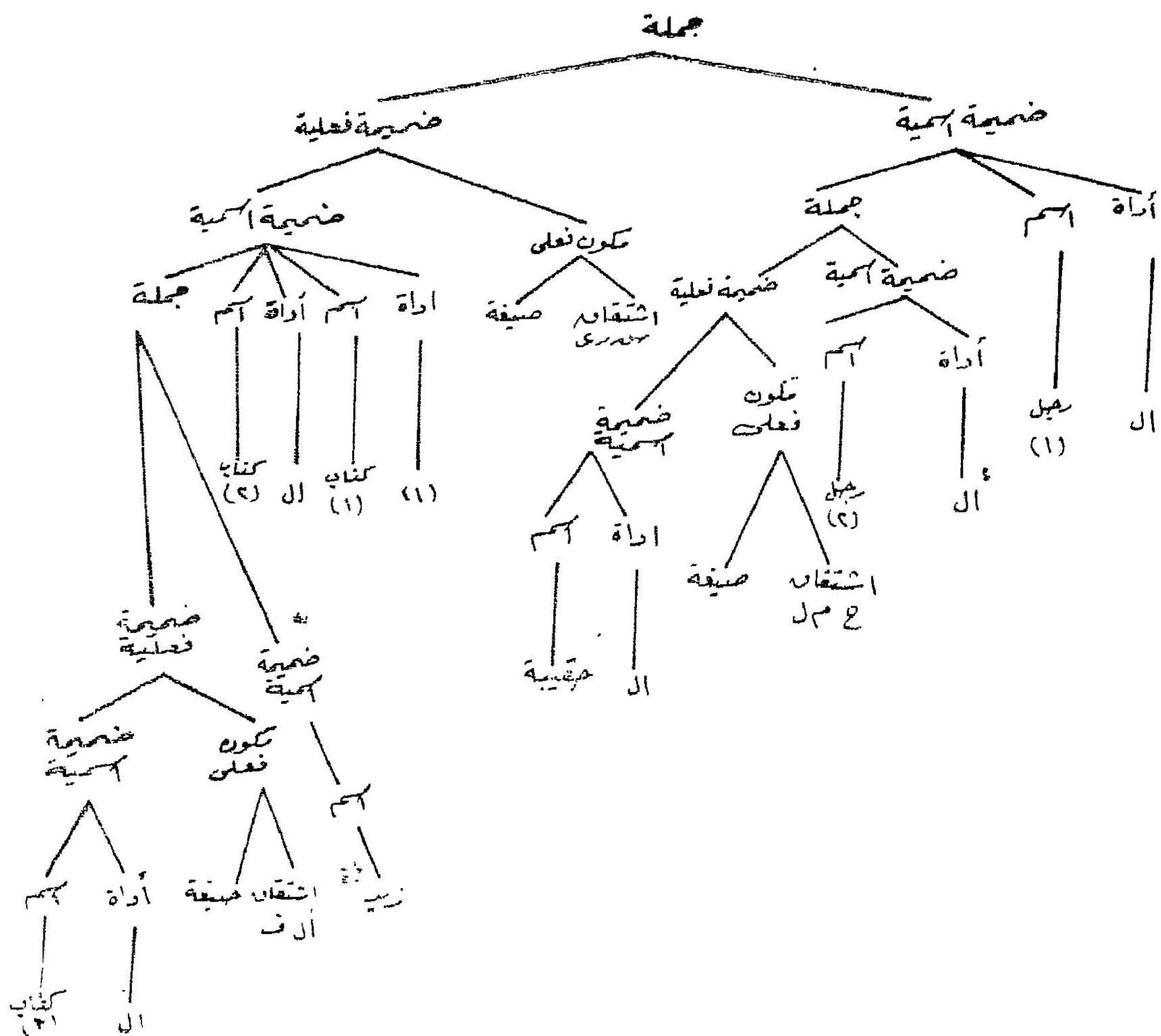
ويلاحظ هنا أن إدخال المكون الفعلى فى الشجرة مع عدم ذكره فى البنية السطحية للجملة يربط الوشائج العميقة بين هذه الجملة وجمل سطحية أخرى مثل :

استقر زيد فى الدار   زيد يقرأ فى الدار

زيد مستقر فى الدار   ينام زيد فى الدار إلخ

وقد أحسن النحاة العرب صنعا من وجهة نظر هذا النموذج أن قدروا هذا المتعلق على عدم ذكره واعتبروه محذوفا جوازا وقسموه إلى كون عام وكون خاص .

٧ – الرجل الذى يحمل الحقيبة اشترى الكتاب الذى ألفه زيد :



ونلاحظ :

أن الرجل (٢) تحول إلى الضمير الموصول وأن الكتاب (٢) تحول إلى موصول أيضا والكتاب (٣) تحول إلى ضمير المفعول .

وأن هذا التحويل يخضع لقاعدة التطابق الدقيق الذى يشمل التطابق المعجمى والإشارى.

وينبغى أن نعود هنا إلى الإشارة إلى أن التحليل العميق ينتهى بذكر أقسام الكلم من أداة واسم إلخ وأن خصوص الأداة

أو الاسم أو المكون الفعلى يعتمد على تطبيق قيود التوارد المعجمية التى أشرنا إليها عند قولنا لا يسند الفعل يبكى إلا إلى من يصح منه البكاء ثم العنصر الدلالى الذى يمدنا بالمعانى الضرورية للبنية السطحية ثم قواعد التحويل ، ثم العنصر الفونولوجى والذى يعبر بالألفاظ عن هذه المعانى .

والعنصر الذى تحكمه الشروط النحوية (كالتعدى واللزوم الخ) أو القيود المعجمية (كالإنسان والمعدود الخ) يعتبر عنصرا مركبا مكونا من عدد من الخصائص التى تتطلب أن تراعى وتعتبر هذه الخصائص من القرائن النحوية . وتتدرج هذه الخصائص فى الأهمية بحسب ضرورتها للمعنى فالشروط النحوية إذا لم تراع خرج التركيب عن حدود الصحة أما الشروط المعجمية فإنها إذا لم تراع يظل التعبير قابلا للصحة إذا أمكن تفسيره فى ظل المجاز ، مثال ذلك :

١ – ضرب زيد عمرا . تعبير صحيح ومناسب .

٢ – قد زيد عمرا . تعبير خطأ الجمع بين المتنافيين (قد والاسم)

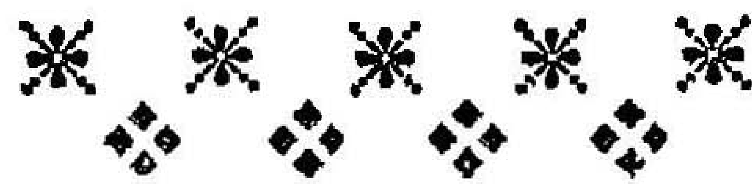
٣ – جلس زيد عمرا الخطأ أيسر ولكنه قائم بسبب لزوم الفعل مع وجود مفعول .

٤ – أكل زيد عمرا التركيب صحيح نحويا ولكنه مخالف لقيود التوارد المعجمية ويصح تفسيره بالمجاز إذ يمكن للمعنى أن يكون غمطه حقه » .

وهكذا يبدو أن النموذج التحويلى يمكن أن يطبق على اللغة العربية ، ويمكن للغة العربية أن يعاد وصفها لسانيا من خلاله . وقد حرصت على أن أشجر الجمل التى اخترتها لبيان بنيتها العمقية ، ولم أثقل على القارئ أو السامع بإيراد تفاصيل القواعد التى يمكن التعبير بها عن كل جملة وبخاصة لأن بعضها رموز منطقية إن سهلت قراءتها فمن الصعب إبرازها فى الكلام هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يلزمنى أن أعرب هذه الرموز، وهذا التعريب يتطلب الأناة والروية .

تمام حسان

عضو المجمع



ثلاث كلمات من التوراة والإنجيل

للدكتور عمر فروخ

بدأ الاستشراق منذ زمن بعيد – بعد الحروب الصليبيَّة – وكانت الغاية من هذه الحركة درس اللغات الشرقية والثقافة العربية الإسلامية. ولقد كان ذلك فى سبيل أن يفهم الأُورُوبيُّون أحوال البلاد الإسلاميَّة خاصَّة وأن يدركوا مناهج حياة المسلمين للتوصُّل بسهولة إلى استغلال خيرات الشرق عامَّة وإلى حكم البلاد الشرقية إذا كان استغلال مواردها الطبيعيَّة لا يتأتَّى إلَّا بعد حكمها حكمًا مباشرًا أو حكمًا شبيهًا بالمباشر.

ولا شكَّ فى أنَّ نفرًا كثيرين من المستشرقين كانوا أُمناء للرسالة التى ندبوا لها أنفسهم فظلُّوا فى نطاق الاستشراق العلمى فلم يغمسوا أقلامهم ولا مدُّوا أيديهم إلى ميدان السياسة والحرب. وفى المستشرقين نفر لا يغيب عن بال اللاحظ أنَّ استشراقهم حملهم على حب اللُّغة العربية، والثقافة الإسلاميَّة حبًّا جمًّا صحيحًا. غير أن ذلك لم يكن القاعدة.

وهنالك نفر من المستشرقين أعلنوا عداءهم للغة العربية وللثقافة الإسلامية وللإسلام نفسه. ثمَّ مدوا أعناقهم إلى التطاول على الشخصيَّات الإسلامية بدءًا بمحمَّد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجرَّدوا أقلامهم للطعن على الدين وعلى القرآن الكريم بما لا يدل على شئ من العلم ولا من الإنصاف الإنسانى.

ومن رؤوس المستشرقين المنصفين تيودور نولدكه، ومع ذلك فإنَّ آراءه لم تخل من مآخذ ترجع إلى أن الغريب عن لغة – مهما يتقن تلك اللغة – لا يستطيع أن يحس عند قراءتها ما يحسُّ به ابن اللغة

التي نشأ بين أهلها . فقد ذكر نولدكه ، مثلًا ، أنّ القرآن يجعل اعتماد مصر على الغيث (المطر) ، فهم ذلك من قوله تعالى : « ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » . (سورة يوسف ١٢ : ٤٩) . غير أن الفعل المجهول هنا « يُغَاثُ » ليس من المجرّد « غاث » اليائي في قولنا : « غاث الله البلاد » : سقاها المطر . ولكنّ الصيغة الواردة في القرآن الكريم مزيدة بالهمزة من أغاث يغيث... الواوي بمعنى : ساعد ، أنقذ .

(راجع تاج العروس الكويت ٥ : ٢١٤ العمود الثاني ، السطر الرابع وما بعد) .

هذا المعنى الثاني ملموح في القرآن الكريم من غير حاجة إلى الرجوع إلى القاموس . لقد نزلت تلك الآية في معرض الكلام على القحط في مصر من القصور في فيض نهر النيل . فالإغاثة هنا (مصدر يغاث المجهول) هي رجوع الخصب إلى أرض مصر برجوع نهر النيل إلى الفيضان الطبيعي بعد سنوات القحط .

هذه المقدّمة القصيرة ضروريّة هنا للدخول في هذا الموضوع الجديد : ثلاث كلماتٍ في التوراة والإنجيل تحمل غير معانيها اللغويّة . وأنا هنا :

— لن أعرض لغير الوجه اللغوي البحت ،

— ولن أعلّق على ذلك بشيء من عندي أخرج به عن مقتضى العلم .

* * *

أريد أن أبدأ بالكلمة الواردة في الإنجيل لأنّ الطريق إليها أيسر مسلكًا . وسأعتمد إنجيل متّى لأنّه أقدم الأناجيل الأربعة القانونية التي أجازتها الكنيسة من نسخ الأناجيل الأربعمائة التي كان نفر من حواريي المسيح عيسى ابن مريم ، ونفر آخرون غيرهم ، قد وضعوها لسرد تاريخ حياة المسيح ولحكاية جانب من أعماله كما تخيّلوا هم ذلك أو كما أحبّوا هم أن يكون تاريخ حياته وأن تكون حكاية أعماله ، نعرف ذلك من أن كلّ واضع لإنجيل من هذه

الأناجيل الأربعة قد أكَّد جانبًا معيَّنًا من حياة المسيح .

ثمَّ إنَّ متَّى كان قد وضع إنجيله باللغة الآراميَّة المتأخرة ، تلك اللغة التي كان المسيح نفسه يتكلَّمها ، أو على الأصح : كان المسيح عيسى ابن مريم يتكلَّم لهجة عبريَّة قد تأثَّرت بتلك اللهجة الآراميَّة . وهنا يغمض طريق الباحث قليلًا أو كثيرًا ذلك لأنَّ الأصل الذى كان متَّى قد وضعه باللغة الآراميَّة قد ضاع . وإنجيل متَّى الموجود بأيدى الناس اليوم رواية باللُّغة اليونانيَّة لذلك الأصل الآرامي .

أما الكلمة المأخوذة من الإنجيل والتى هى موضوع البحث هنا فهى كلمة « رب »

إذا كان عيسى ابن مريم قد نشأ بين قوم يتكلَّمون لغة معيَّنة وأنَّه قد دعاهم إلى اتِّباع دين قد جاء به إليهم ، فإنَّ المنطق يقضى بأنَّه كان يتكلَّم لغة أُولئك القوم وأنه كان يدعو أولئك القوم باللغة التى كانت مألوفة عندهم . والحكم فى تلك اللغة القاموس العبرى والقاموس الآرامى . فما معنى كلمة « رب » فى ذينك القاموسين وكيف استعملت تلك الكلمة فى ذينك القاموسين وكيف استقرَّت فى الأناجيل الأربعة عامَّة وفى إنجيل متَّى خاصَّة ؟

أولا – فى القاموس العبرى :

إنَّ الجذر « رب » فى القاموس العبرى وبحسب الصيغ المختلفة المشتقَّة منه يدل على العدد الكثير والمقدار الكبير وعلى القوَّة وعى التقدُّم فى السن وعلى الرئيس فى قومه والقائد وعلى العالم والبارع فى صناعته وعلى المعلِّم والشيخ الفقيه . ولقد وردت هذه المعانى فى العهد القديم فى أماكن كثيرة مختلفة ومفرَّقة فى الإصحاحات (الأبواب ، الفصول) .

ثانيا – فى القاموس الآرامى :

وهذا الجذر نفسه « ربّ » فى القاموس الآرامي لا يبعد كثيرًا عمًّا جاء فى [القاموس العبري . إنَّها هنا تدلُّ على الكبير

والعظيم الجليل والزعيم والرئيس والسيِّد. والرب أيضًا هو الأستاذ والإمام. وهنالك فى القاموس الآرامى ، الربَّة (مؤنَّث الرب) : الرئيسة والسيِّدة . وربَّانى ، (بتفخيم الألف أو بإمالتها نحو الواو) كلمة من العبريَّة معناها معلمى .

ثالثا – فى القاموس العربى :

واللغة العربية المُضَريَّة أُختٌ شقيقة للغة العبريَّة وللغة الآراميَّة (أو هى – على الأصح – خالتهما) لا تبعد فى معانى الجذر « ربّ » عمَّا جاء فيهما . فالكلمة « ربّ » تطلق فى اللغة على المالك والسيِّد والمدبِّر والمربى والمتمِّم . وقالوا فى الجاهليَّة «الرب» للملك . قال الحارث بن حلزة فى معلَّقته :

وهُوَ الرَّب والشَّهِيدُ عَلَى يَو
مِ الحِيارَيْنِ والبلاءُ بَلَاء

وكذلك جاءت كلمة « رب » فى القرآن الكريم للدلالة على الملك (١٢ : ٥٠ ، سورة يوسف) مرَّتين فى المعنيين الدالَّين على الملك وعلى الله تعالى :

« وقَالَ الْملِكُ : ائْتُونِى بِهِ . فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُول قَال : ارْجِعْ إلَى ربِّكَ فَاسْأَلْهُ : ما بال النِّسْوةِ اللَّاتِى قَطَّعْن أَيْدِيهُنَّ إنَّ ربِّى بكَيْدِهِنَّ عليمٌ » .

وجاءت فى آية سابقة من سورة يوسف (١٢ : ٤٢) مرَّتين بمعنى الملك فقط :

« وقَال لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُما : اذْكُرْنِى عِند ربِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فى السِّجْن بِضْعَ سِنِينَ » .

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ قَالَ : مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِح الظَّالِمُونَ » .

وكلمة « رب » هذه بمعنى صاحب أو مالك لا تأتى ، حتَّى حينما يراد بها الله تعالى ، إلَّا مضافة إلى ضمير – أو إلى اسم ظاهر

عام الدّلالة مطلقًا ــ فى اللّغــات الثلاث المقصودة هنا :

* ففى القرآن الكريم :

« رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ » .

« الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

« قُلْ : أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا ؟ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ » . (٦ : ١٦٤ سورة الأنعام).
« رَبِّ السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » « ٢٧ : ٣٧ ، سورة النبأ) .

* وفى المنادى تأتى كلمة « رب » مجرّدة وتكون مبنيّة على الكسر و على الضّم ، أو على الفتح : يا ربِّ ، يا ربُّ ، يا ربَّ ذلك لأنّ التوجه بذلك إلى الله وحدَه يقوم لها مقام الإضافة إلى ضمير المتكلّم .

* وأمّا إذا كان الاسم الظاهر قاصرًا ، ومحدودًا ، فى نطاق المكان والزمان ، فكلمة « ربّ » تدلّ حينئذ على الإنسان :

ربّ الدّابّة ، رب الدّار ، رب البيت ، ربّة البيت ، ربّات الحجال .

ربّ العمل ، أرباب السياسة .

* والربّانى (فى اللغة العربية أيضًا) تدل على العالم المعلم .

وقد خوطب عيسى المسيح بالقول : « يا معلم » (متّى ٨ : ١٩ ، ١٢ : ٢٨ ، ٢٢ : ١٦ ، ٢٤ ، ٣٦) ، كما قال عن نفسه : « المعلم » (٢٦ : ١٨) . وهنالك تعابير أخرى خوطب بها لا حاجة إلى الاستشهاد بها لأنّنى قد اقتصرت فى هذا البحث على لفظ واحد . من أجل ذلك كان نقل كلمة « رب » عن معناها اللغوى إلى معنى يدل على « الأُلوهيّة » تصرُّف فى النقل (الترجمة) وَلْنُضِف إلى ذلك أن التوراة والإنجيل قد دخل عليهما تحرير مرّات كثيرة . وفى المدّة الأخيرة (منذ نحو عشرين سنة أو تقل قليلًا) دخل عليهما تحريران : تحرير قام به اليسوعيُّون وعمل فيه الصديق بطرس البستانى (ت ١٩٦٩ م) ، ثمّ تحرير آخر قام به المرسلون الأمريكيون وشارك فيه صديقى جبرائيل جبُّور (وهو لا يزال على قيد الحياة) . ثمّ إنّ النسخ التى طبعت منها التوراة والتى طبعت منها الأناجيل لا ترقى إلى أبعد من القرن السابع للميلاد .

أمّا الكلمتان الباقيتان فهما من التوراة ، والكلام فيهما أكثر إيجازًا .

٢ ــ جاء فى التوراة (الملوك الأوّل ، الإصحاح ١٧ ، العدد ٦) :

ــ ... وكانت الغِربان (بالغين المنقوطة والمكسورة) تأْتى إليه (إلى إيليّا التشبىّ) بخبز ولحم صباحًا وبخبز ولحم مساء .

وبالرجوع إلى النص العبرى نجد كلمة « عرِبيم » (بإمالة الياء بعد العين المهملة بلا نقطة) بمعنى الغِربان . ونحن نعلم من تاريخ التوراة خاصّة أن النص الذى طبعت منه التوراة التى بأيدى الناس ، والذى لا يرقى إلى أبعد من أواخر القرن السابع للميلاد ، كان غير منقوط ، ولم تكن كلماته مفصولًا بعضها من بعض فى الخطّ . ولا شكّ فى أن الشكل الحاضر فى التوراة كان من اجتهاد أحبار اليهود .

ولقد كان بإمكان أُولئك الأحبار أن يضبطوا كلمة « عرِبيم » بفتح العين ، فتصبح العِربان بمعنى الأعراب فيصح المنطق حينئذ ، فإنَّ الطُّيور (سواءٌ أكانت الغربان أم غير الغربان) لا تستطيع أن تحمل شيئًا إلى أحد ولا تعقل فعله . أمّا العربان أو الأعراب ، أى البدو ، فيمكن أن يفعلوا ذلك قُدرةً وإرادة وعقلًا . ومَعَ أنَّ الصِّيغة « عربان » ليست فى القاموس ، فإنَّها ــ على كلِّ حال ــ مسموعة ، وقد وردت فيما أذكر فى الشعر : « من عجم وعربان » .

٣ ــ جاء فى التوراة (صموئيل الأوّل ، الإصحاح السادس ، العدد الخامس) :

« واصنعوا تماثيل بواسيركم وتماثيل فيرانكم التى تفسد الأرض ، وأعطوا إلٰهَ إسرائيل مجدًا لعلّه يُخَفِّفُ يده عنكم وعن آلهتكم وعن أرضكم » .

والشاهد هنا فى « بواسيركم » ، والباسور والبواسير مرض يحدث من تمدُّد وريدى فى الشَّرَج (بفتح ففتح : باب البدن) ويُنزَف (بالبناء للمجهول : يسيل منه دم) .

وبالرجوع إلى النص العبرى وإلى النص اليونانى تبيَّن أن الكلمة هنالك تعنى البواسير (المرض الذى يسبِّبُ نزيفًا

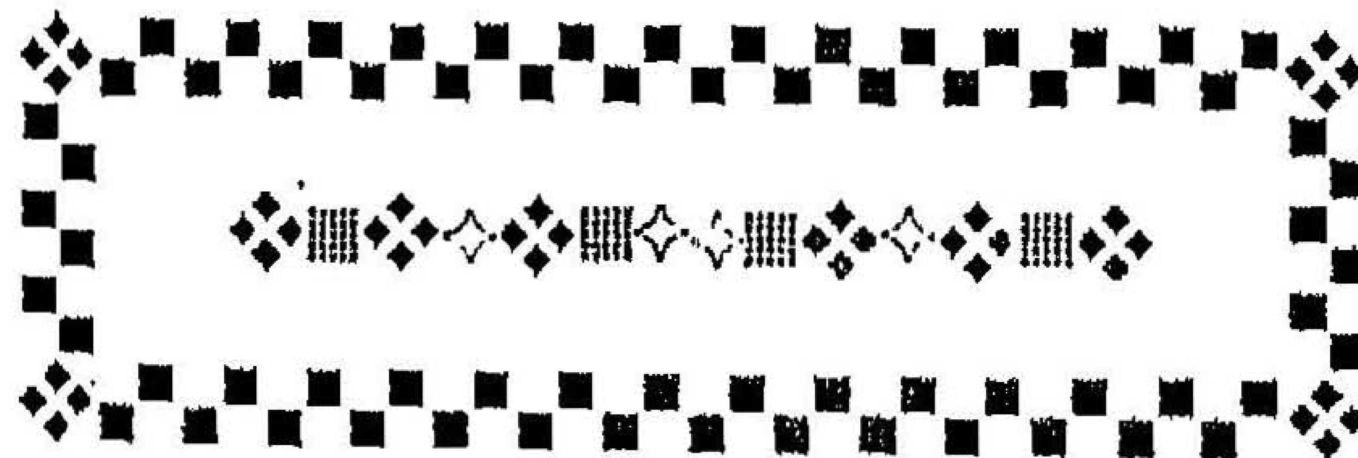
دمويًّا) . وهذا أيضًا موجود فى النصوص المختلفة من عربية وغير عربيّة .

ورجعت إلى تفسير للكتاب المقدّس (1) ، وهو فى أجزاءٍ كثيرة ، فوجدته (الجزء الثانى ، الصفحة ٩٠٦) قد فسّر « وأعطوا إلهَ إسرائيل مجدًا » ، وسكت عن لفظة البواسير .

لقد كان بالإمكان أن أمضى فى القاموس العبرى والقاموس اليونانى لأرى فيهما كلمات تقرب فى لفظها أو شكلها من كلمة « بواسير » عندهم (وفى اليونانية ، مثلا كلمة تقرب من ذلك وتدل على « حبة يسبّب عضّها نزيفًا ») . ولكنّ معرفتى بالعبريّة وباليونانية لا تزيد على تمييز بعض حروف أبجديّتهما من بعض . فوقفت عند حد علمى .

لعلّ الذين يعرفون التوراة والإنجيل أكثر منّى أو الذين يعلمون من اللّغات الآراميّة والعبريّة واليونانية علمًا صحيحًا يولونَ هذا الجانبَ من البحث اهتمامًا وافيًا ولعلى قد أخطأت فى عرض عدد من الحقائق ، وعذرى فى ذلك قلّة علمى ، بالموضوع مع سكوت العلماء عن الكلام فيه .

عمر فرّوخ
عضو المجمع من لبنان



---

(1) The Interpreter's Bible, N.Y. copyright 1953.

نظرية النحو القرآني
نشأتها وتطورها وتكوينها
للدكتور أحمد مكي الأنصاري

أبـادر فأقول : إنى لست أول من دعا إلى هذه النظرية ، فقد سبقنى إليها علماء أجلاء منذ مئات السنين . فهى قديمة قدم المدافعين عن كتاب الله ضد الطاعنين فى القرآن الكريم متمثلا فى قراءاته المتواترة الموثوق بها كل الثقة وذلك حين تصطدم القواعد النحوية بالآيات القرآنية المحكمة .

غير أن الدعوة إلى هذه النظرية شيء ومحاولة إخراجها إلى حيز الوجود شيء آخر أو فرق كبير بين مجرد الدعوة والتفكير وبين[1] العمل والمعالجة والتنفيذ وقد هدانى الله تعالى — بفضله ومنة وكرامة — إلى تخطيط لهذه النظرية وتصور تام لأبعادها وتكوين كامل لها متمثلا فى عناصرها الأربعة وهى :

١ — الإطار العام .

٢ — والمحور .

٣ — والعمود الفقرى .

٤ — والمقومات الأساسية .

---

(١) تكرار (بين) مع الاسمين الظاهرين جائز على مذهب الكوفيين ، خلافا للحريرى فى درة الغواص ، ذلك الذى رفض هذا التكرار استنادا إلى ما استنبطه استنباطا من مذهب البصريين دون اعتماد على نص صريح فى ذلك من النحاة السابقين على أن هناك نصوصا مسموعة جاء فيها التكرار ، من ذلك قول الشاعر العربى المطبوع (عمرو الكلبى) :

ماذا لقينا من المستعر بين ومن قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا

ثم قال :

وحرضوا بين عبد الله من حمق وبين زيد فطال الضرب والوجع

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم وبين قوم على إعرابهم طبعوا

إلى آخر ماقاله ... وانظر شرح ديوان المتنبى ج ١ ص (س ـ ب) من المقدمة ، ومعجم الأدباء ١٢ / ١٠٢ ط دار المأمون (ترجمة ابن جنى) وانظر سيبويه والقراءات للمؤلف ص ٢٣٤ فما بعدها ، وإنباه الرواة للقفطى (ترجمة الأخفش) وهناك رواية (عمار بدل عمرو) فى بعض المراجع .

وقبل أن أخوض فى الحديث المستفيض عن كل ذلك يجدر بنا أن نلم إلمامة سريعة بالنشأة الأولى لهذه النظرية ثم نقفز قفزات متعددات فى طريق التطور إلى أن نصل إلى عصرنا الحاضر لنرى أنها كانت فى جميع القرون الغابرة مجرد فكرة أو خاطرة تجيش بها نفوس الذين يغارون على النحو القرآنى ، فتنطلق ألسنتهم بالدعوة إليه وإلى اعتماد القرآن الكريم أساسا لكل تقعيد .

صحيح أن التعبير عن هذه الدعوة يختلف من شخص إلى آخر ولكن المضمون واحد متحد لا يكاد يختلف ويتلخص فى أن القرآن أولى مما سواه عند تقعيد القواعد .

وأول من نادى بهذه النظرية — فيما أعلم — هو أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧ هـ) وكان لزاما عليه أن يدافع عن كتاب الله فى زمن كثرت فيه النحل والفتن والأهواء واشتدت فيه العصبية المذهبية واشتطت فى طعنها على القرآن الكريم إلى درجة خرجت فيها عن المعقول ، حين قال قائلهم إن القرآن الكريم جسم يجوز أن ينقلب مرة رجلا ومرة حيوانا[١]

وتبعا لسنة الحياة والأحياء تأثر النحو بهذه الأجواء ، فاختلف النحاة فى بعض الآيات اختلافا كبيرا وتملكتهم العصبية المذهبية فتعصبوا للقواعد النحوية ضد القراءات القرآنية فوصفوا اللغة التى جاءت بها هذه القراءات بالرداءة[٢] والقبح[٣] وما إلى ذلك من الصفات التى لا تناسب القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فى مثل هذه الأجواء التى اشتدت فيها العواصف الهوج ، وقف الفراء يكافح وينافح وينافح ، ويدافع عن كتاب الله ، فقال قولته المشهورة الخالدة : إن لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق[٤] كما قال فى موطن آخر : الكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر[٥] .

وكان خليقا بالفراء أن يقف مثل هذا الموقف القوى وهو العالم التقى الورع ولكن السؤال الذى يفرض نفسه الآن : هل كان الفراء على درجة عالية من الذكاء تتيح له أن يلمح هذه النظرية فى عهدها المبكر جدا قبل أن تولد بمئات السنين؟

(١) قالها الجاحظ كما جاء فى كتاب « الملل والنحل » للشهرستانى ١ / ٨١ ط . مطبعة الأزهر ، وانظر أيضا كتاب (أبو زكريا الفراء) للمؤلف ص ٩٠ — الطبعة الأولى .

(٢) الكتاب ١ / ٢٣٣ ط . بولاق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) انظر كتاب العربية — يوهان فك — ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص ٥ وانظر ص ٢ من سيبويه والقراءات — للمؤلف وانظر ص ٥١٢ من كتاب (أبو زكريا الفراء) للمؤلف .

(٥) معانى القرآن للفراء ١ — ١٤ .

والجواب نجده عند القدامى والمحدثين على السواء أولئك الذين شهدوا له بالذكاء الخارق والعبقرية النادرة . استمع إلى الإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة النعمان يقول له : ما ظننت آدميا يلد مثلك[1] وانظر إلى تقدير الخليفة المأمون للفراء[2] واقرأ معى ما سطره القدماء من إجلال وإكبار يفوق كل تصور حين بالغوا فجعلوه هو الأساس فى اللغة العربية بوجه عام وقالوا فيه :

لولا الفراء ما كانت اللغة[3] ولا كانت العربية[4] لأنه حصلها[5] وخلصها[6] وهذبها[7] وضبطها[8] لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب[9] ولولاه لضاعت لغة الضاد ، لغة القرآن الكريم فجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء .

من أجل هذا وذاك نصبوه سيد أعلامهم ، فقال فيه سعيد بن سالم لأصحابه من العلماء حينما دخل عليهم الفراء : قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد أهل العربية[10] وأكبر من هذا أنهم لقبوه بأمير المؤمنين حين جعلوه أميراً على النحاة أجمعين فقالوا : الفراء أمير المؤمنين فى النحو[11]

على أن هذه الإكبار لم يقتصر على القدماء ، بل امتد إلى عصرنا الحاضر ، وطبق الآفاق فى الشرق والغرب على السواء . فهذا هو المستشرق الألمانى (يوهان فلك) يقدره حق التقدير ، فينعته فى كتابه القيم بأنه الفراء

---

(١) قالها له بعد أن سأله سؤال تعجيز فى الفقه . . فأجابه الفراء إجابة سديدة استنبطها من النحو . وذلك حينما سأله عن حكم من سها فى سجود السهو . ففكر الفراء قليلا ثم قال له : لاشىء عليه . قال : لم ؟ قال الفراء : لأن المصغر لا يصغر . فأعجب الإمام الشيبانى بذلك وقال له : « ماظننت آدميا يلد مثلك » انظر تاريخ بغداد . ط السعادة ، وتهذيب التهذيب للعسقلانى ١١ / ٢١٢ ط . حيدر آباد .

(٢) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ ـــ ٣٠٢ ط بولاق ، وتاريخ بغداد ١٤ ـــ ١٥٠ ط السعادة وغيرهما من المصادر التى تعرضت « لحادثة النعلين » تلك الحادثة التى وقعت للفراء مع اثنين من أبناء الخليفة المأمون وكان يؤدبهما . فحينما انتهى من الدرس ونهض للخروج هب كل واحد منهما وأسرع إلى نعل الفراء ليستأثر بشرف تقديم هذا النعل لشيخه العظيم . . وحدثت بينهما مشادة وأخيرا اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردا من الحذاء ليقتسما هذا الشرف الكبير . وعندما علم الخليفة المأمون بذلك كان له موقف إكبار وتقدير للفراء كما هو مذكور فى مواطنه بإسهاب .

(٣) معجم الأدباء ٢٠ / ١١ ط دار المأمون .

(٤) شذرات الذهب لابن العماد ٢ / ١٩ الطبعة الأولى .

(٥) معجم الأدباء ٢٠ / ١١ .

(٦) دائرة معارف القرن العشرين ٧ / ١٣٩ ط ثانية .

(٧) شذرات الذهب ٢ / ١٩ ط أولى .

(٨) طبقات القراء ٢/٣٧١ط أولى .

(٩) انظر مثلا وفيات الأعيان ٢ / ٣٠١ وتاريخ بغداد ١٤ / ١٤٩ ، ومعجم الأدباء ٢٠ / ١١ ومرآة الجنان ٢ / ٣٨ ، والطبقات لابن الجزرى ٢ / ٣٧١ .

(١٠) معجم الأدباء ١١ / ٢٢٧ .

(١١) تهذيب التهذيب ١١ / ٢١٢ ط أولى .

العظيم[1] وكذلك المستشرق (بكاله) يقدره ويكبره ويرى فيه النحوى الضليع[2] وكذلك فعل الدكتور طه حسين[3] وغيرهم كثير وكثير ويبلغ التقدير ذروته حين يقولون فيه : عبقرية الفراء عبقرية نادرة لا نظير لها فى تاريخ آداب العربية على الإطلاق، اللهم إلا أن يكون الخليل بن أحمد» ولا عجب فى ذلك فقد كان الخط الرئيسى فى شخصية الفراء هو الحرية الفكرية التى ترتكز على أساس سليم من الدين القويم[4] .

هذا وبالرغم من إعجابى بالفراء فإنه لا يفوتنى أبداً أن أسجل وجهة نظرى فى هذا الثناء عملا بالمنهجية المطلقة دون تعصب له أو عليه، وخلاصتها أن هذا الثناء فيه شىء من المبالغة والإسراف . ولا يخفى ذلك على أى ناقد منهجى ، ولكن الذى لا يخفى أيضا هو ما فيه من دلالة على مكانة الرجل عند القدماء والمحدثين على السواء .

من كل ما سبق يتضح لنا الجواب عن ذلك السؤال الذى يقول : هل كان الفراء على درجة من الذكاء إلى آخر ما رأينا آنفا فى صدر هذا الحديث ؟

والآن آن لنا أن نلقى نظرة عجلى على مسيرة هذه الفكرة عبر القرون بعد الفراء ؛ فنقتبس لمحة من هنا ولمحة من هناك للدلالة على أن الفكرة قائمة فى أذهان العلماء الأجلاء، وأن الإحساس بها ، والشعور بأهميتها يظهران على ألسنتهم فيما يصوغونه من عبارات . وإليك بعض ما قيل إيثارا للإيجاز :

قال ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) : إنى تدبرت قراءة الأئمة السبعة من أهل الأمصار الخمسة المعروفين بصحة النقل وإتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ ، فرأيت كلا منهم قد ذهب فى إعراب ما انفرد به من حرفه مذهبا من مذاهب العربية لا يدفع : وقصد من القياس وجها لا يمنع ، فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية غير مؤثر للاختيار على واجب الآثار[5] .

وفى موطن آخر يقول : « قد أجمع الناس جميعاً على أن اللغة إذا وردت فى القرآن فهى أفصح مما فى غير القرآن لا خلاف فى ذلك »[6] .

---

(١) انظر كتاب (العربية) ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار – ط دار الكتاب العربى .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مقدمة إحياء النحو ص (ل) طبع سنة ١٩٥١ م .

(٤) راجع بوجه عام كتاب (أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة) للمؤلف .

(٥) كتاب الحجة لابن خالويه ص ٦١ فما بعدها (بتصرف يسير) الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧ (دار الشروق) .

(٦) المزهر ١ /٢٥٧ ط . الحلبى .

ويقول أبو عمرو الدانى (ت ٤٤٤ هـ) : وأئمة القراءة لا تعمل من القرآن فى شىء على الأفشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية ، بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة . لأن القراءة سنة متبعة ، فلزم قبولها والمصير إليها[1] .

وقال ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) متعجبا من موقف النحاة من القراءات : لا عجب أعجب ممن إن وجد لامرئ القيس أو لزهير أو لجرير أو الحطيئة أو الطرماح ، أو لأعرابى أسدى أو سلمى أو تميمى ، أو من سائر أبناء العرب لفظا فى شعر أو فى نثر جعله فى اللغة وقطع به ولم يعترض عليه ، ثم إذا وجد لله تعالى خالق اللغات وأصلها كلاما لم يلتفت إليه ولا جعله حجة ، وجعل يصرفه عن وجهه ويحرفه عن موضعه ، ويتحيل فى إحالته عما أوقعه الله عليه[2] .

وقال القشيرى (٤٧٥ هـ) معقبا على الزجاج الذى عارض بعض القراءات : « ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم تواترا يعرفه أهل الصنعة . وإذا ثبت شىء عن النبي فمن رد ذلك فقد رد على النبي صلى الله عليه وسلم . واستقبح ما قرأ به ، وهذا مقام محذور ، لا تقلد فيه أئمة اللغة والنحو »[3] .

وفى موطن آخر يقول : « قال قوم : هذا قبيح — وهذا محال ، لأنه إذا ثبتت القراءة بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو الفصيح لا القبيح »[4] .

ويقول الفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) ، إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول فجواز إثباتها بالقرآن العظيم أولى ، وكثيراً ما نرى النحويين متحيرين فى تقرير الألفاظ الواردة فى القرآن ، فإذا استشهدوا فى تقريرها ببيت مجهول فرحوا به . وأنا شديد التعجب منهم ، فإنهم إذا جعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان أولى»[5] .

---

(١) منجد المقرئين ص ٢٤٣ .

(٢) كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ص ٢٩ ط سنة ١٣٤٧ هـ : ١٩٢٨ م

(٣) إبراز المعانى لأبى شامة ص ٢٧٥ (شرح الشاطبية) .

(٤) جامع أحكام القرآن للقرطبى ٧ / ٩٣ .

(٥) تفسير الفخر الرازى ٣ — ١٩٣ (سورة النساء) .

وقال الحريرى (ت ٦١٥ هـ) معقبا على المبرد حينما عارض قراءة محكمة[1] : « وهذا من جملة سقطاته وعظيم هفواته ، فإن هذه القراءة من السبعة المتواترة ، وقد وقع فى ورطة وقع فى مثلها بعض النحاة بناء على أن القراءات السبع عندهم غير متواترة ، وأنه يجوز أن يقرأ بالرأى وهو مذهب باطل ، وخيال فارغ[2] .

ويقول ابن المنير (ت ٦٣٣ هـ) : وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة[3] .

ويقول الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة . ولكن من لم يكن عالما بها ، أو لم تثبت عنده . . . فليس له أن يقرأ بما لا يعلمه فإن القراءة سنة ، يأخذها الآخر عن الأول ولكن ليس له أن ينكر على من علم ما لم يعلمه من ذلك[4] .

وقال أبو حيان (ت ٧٤٥ هـ) : «ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ولا غيرهم ممن خالفهم ، فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون ، وكم حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون»[5] .

ويقول الدماميني (ت ٨٢٧ هـ) : لا يكون نقل القراء أقل من نقل ناقلى العربية والأشعار والأقوال ، فكيف يطعن فيما نقله الثقات بأنه لم يجئ مثله ؟ ولو نقل ناقلون عن مجهول الحال لقبلوه ، فقبول هذا أولى »[6] .

وقد طفح الكيل بابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) فقال منكرا على هؤلاء القوم : « أنى يسعهم إنكار قراءة تواترت واستفاضت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نويس لا اعتماد عليهم حملوا على ما علموا من القياسات ، وظنوا أنهم أحاطوا بجميع لغات العرب أفصحها وفصيحها ، حتى لو قيل لأحدهم شيء من القرآن على غير النحو الذى أنزله الله يوافق قياسا ظاهرا عنده — ولم يقرأ أحد بذلك — لقطع له بالصحة ، ولو أنه سئل عن قراءة لا يعرف لها قياسا لأنكرها ولقطع بشذوذها[7] .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ٢ — ٧٤٩ ، وشرح المفصل ٣ — ٧٨ ، ودرة الغواص ص ٩٥ ، وانظر كتاب (الدفاع عن القرآن) للمؤلف ص ٦ .

(٢) درة الغواص ص ٩٥ ط أولى (بتصرف يسير) .

(٣) الانتصاف على الكشاف ١ / ٤٧١ فما بعدها — الطبعة الثانية ببولاق .

(٤) منجد المقرئين ص ١٢٩ فما بعدها .

(٥) البحر المحيط ٣ / ١٥٦ فما بعدها .

(٦) المواهب الفتحية ١ / ٥٤ عن اللغة والنحو ص ٩٧ .

(٧) منجد المقرئين ص ٢٤١ .

وفى موطن آخر يقول : « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالا ،وصح سندها فهى القراءة الصحيحة ، لا يجوز ردها ولا يصح إنكارها »(١) .

ويقول السيوطى (ت ٩١١ هـ) فى كتاب الاقتراح : « فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به فى العربية ، سواء أكان متواترا ، أم آحادا ،أم شاذا »(٢) .

ثم نجيء إلى العصر الحاضر ونكتفى منه بنص واحد ؛ إيثارا للإيجاز فقط» وإلا فلدينا منه الكثير . وإليك ماجاء فى تفسير المنار للشيخ رشيد رضا — حين قال : « نحن لا يروعنا ما يراه المفسرون من الصعوبة فى إعراب بعض الآيات ، أو فى حكمها لأن لهم مذاهب فى النحو والفقه يزنون بها القرآن ، فلا يفهمونه إلا منها ، والقرآن فوق النحو والفقه والمذاهب كلها ، فهو أصل الأصول ، ما وافقه فهو مقبول ، وما خالفه فهو مردود ومرذول ، وإنما يهمنا ما يقوله علماء الصحابة والتابعين فيه ، فهو العون الأكبر لنا على فهمه(٣) .

تلك بعض اللمحات الخاطفة ، والمقتطفات الموجزة ، اخترتها لك من بين الكثير والكثير من النصوص التى يزخر بها تراثنا الغنى العريق ، على مدى التاريخ عبر القرون العديدة فى سالف الأزمان . ومع كل هذه الكثرة الكاثرة من النصوص التى تجمعت بين يدى فلست أزعم جمعت أننى كل شيء . بل لا يصح إطلاقاً أن يدور بخلد أى باحث مثل هذا الزعم الواهم الزائف . فكم من المراجع لم نطلع عليها حتى الآن ؛ مراجع مطبوعة بله المخطوطات . وما أكثر المخطوطات التى لم تر النور بعد وما تزال تنتظر النشر ! وقد جاء فى آخر إحصائية متخصصة فى ذلك أنها أكثر من ثلاثة ملايين مخطوطة متفرقة بين المكتبات العامة والخاصة فى أنحاء العالم،ومهما جمع الباحث نصوصا من المراجع فلن يتجاوز المئات فضلا عن الملايين .

لهذا يجمل بنا الآن أن نكتفى من النصوص بهذا القدر الذى يحقق الهدف المقصود وهو وجود الفكرة والإحساس بها فى مشاعر العلماء عبر القرون منذ الزمن الغابر إلى العصر الحاضر ، لأن إيراد جميع النصوص التى قيلت فى هذه الأحقاب الطويلة أمر متعذر كما أنه يشبه المستحيل .

---

(١) النشر ١ — ٩ .

(٢) الاقتراح ص ٤٨ .

(٣) تفسير المنار عند قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم) من سورة المائدة آية ١٠٦ .

تلك هى النشأة ، وذلك هو التطور . وبقى علينا الآن أن نتحدث عن التكوين . لهذا كان لزاما علينا أن نذكر تكوين هذه النظرية كما جاءت فى الكتاب[1] المخصص لذلك ، وإليك نص ما جاء هنالك :

« أما تكوين النظرية (نظرية النحو القرآنى) فقد جاء متمثلا فى عناصرها الأربعة، وهى :

١ — الإطار العام .

٢ — والمحور .

٣ — والعمود الفقرى .

٤ — والمقومات الأساسية .

أما الإطار العام لهذه النظرية فهو القرآن الكريم ، وهو أوثق مصدر فى الوجود فينبغى أن يكون المصدر الأول للتقعيد .

وأما المحور الذى ترتكز عليه هذه النظرية فهو الاصطدام بين القواعد النحوية والقراءات القرآنية .

وأما العمود الفقرى فهو المواطن نفسها، تلك المواطن التى تصطدم فيها القواعد النحوية بالنصوص القرآنية ، فكل موضع اصطدمت فيه قاعدة نحوية بآية قرآنية ، يعد فقرة من فقرات هذا العمود ، أو بعبارة أخرى يعد حلقة فى سلسلة هذا العمود الفقرى وما أكثر الحلقات والفقرات فى هذا العمود كما سيأتى بالتفصيل . وأما المقومات الأساسية فلها جانبان : جانب الاتفاق ، وجانب الاختلاف .

أما جانب الاتفاق بين القواعد النحوية والنصوص القرآنية فهو الغالب الكثير ، وهو القسم الأكبر فى هذه النظرية ، غير أن أمره يسير لأنه موضع اتفاق بين الجميع .

وأما جانب الاختلاف بين القواعد النحوية والنصوص القرآنية فهو موضع الثقل والتركيز فى هذه النظرية. وله مظاهر متعددة تنحصر فى الظواهر الآتية :

١ — ظاهرة المعارضة الصريحة[2] .

٢ — وظاهرة المعارضة الخفية[3] .

٣ — وظاهرة التأويل[4] .

ولعلك تلحظ أن الفرق الجوهرى بين النحو القرآنى والنحو المألوف ينحصر فى العمود الفقرى لهذه النظرية ، وهى مواطن الاصطدام بين القواعد النحوية. والنصوص القرآنية كما سيأتى بالتفصيل .

---

(١) هذا البحث الذى بين يديك مقتبس من كتاب للمؤلف بعنوان : (نظرية النحو القرآنى : نشأتها ، وتطورها ، ومقوماتها الأساسية) أرجو أن يرى النور قريبا بإذن الله .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى كتاب سيبويه والقراءات المؤلف ص ١١ فما بعدها — توزيع دار المعارف بمصر .

(٣) المصدر السابق ص ٣٩ فما بعدها .

(٤) المصدر السابق ص ١٧٠ فما بعدها .

ذلك هو التصور العام « لنظرية النحو القرآني » متمثلة في عناصرها الأربعة كما رأيناها آنفا . وقد عشت معها ردحا من الزمن » زهاء ثلاثين عاما منذ أن فجر الفراء شعلتها الأولى في كياني وحسي آنذاك[1] . وأشهد أنها فيما سبق لم تكن واضحة أمامي كل الوضوح ، ولكنها كانت مجرد فكرة تراودني ، كما أنها مجرد دعوة أرددها وأنادي بها ، وأضم صوتي إلى أصوات الداعين إليها قديما وحديثا — جزاهم الله جميعاً خير الجزاء .

هذا ولا يفوتني أن أسجل اعترافي بالجميل لكل من سبقني إلى الدعوة بهذه النظرية ، أو الإشادة بها ، أو الإشارة إليها ، أقدم لهم جميعاً جزيل الشكر والعرفان والامتنان حيث كانت آراؤهم بالنسبة إلى بمثابة صوى ومعالم على الطريق ، أهتدي بها في مسيرة هذا التاريخ السحيق .

ولكن إنصافا للحقيقة ، وتسجيلا للحقائق في سجل التاريخ أقول : إن موقفهم من هذه النظرية — كما رأيت في النصوص السابقة — لا يكاد يتجاوز الإحساس بها والتعاطف معها ، والشعور بأهميتها شعورا مبهما غامضا ، لا يرقى إلى مستوى التصور المنهجي لتكوين نظرية . وغاية ما يرقى إليه هو ذكر نماذج متفرقة من الملاحظات ، لا أكثر ولا أقل .

ذلك مبلغ شعورهم بهذه النظرية ، مهما اختلفت مشاعرهم في الدرجة ، أو تباينت أساليبهم في التعبير عنها — أما إدراك حقيقتها ، وكيفية تكوينها ، واستنباط عناصرها ، وإبراز مقوماتها واستخراج خصائصها ، فكل ذلك ليس له وجود عندهم على الإطلاق .

وكان من فضل الله على كاتب هذه السطور أن هداه الله إلى السير في طريق الخير وأقول : مجرد السير فقط ، ولا أريد أن أزيد على ذلك حرفا واحدا تواضعا لله ثم للعلم .

وهناك النماذج التطبيقية[2] التي ترتب عليها تعديل كثير من القواعد النحوية طبقاً للنصوص القرآنية المحكمة ، فصار النحو تابعاً للقرآن الكريم ، وخاضعا لقراءاته الصحيحة المتواترة بعد أن كان معارضا لكثير من القراءات المحكمة (كما هي الحال في النحو المألوف) ولا شك أن تطبيق هذه النظرية تطبيقاً دقيقاً كاملا يعطينا ثمرة عملية ، ويفيدنا فائدة محققة وهي تصحيح الوضع الخاطىء في العلاقة بين النحو والقراءات المحكمة ، فبدلا من أن نعرض القراءات على النحو ليحكم لها أو عليها ، ينبغي أن يكون العكس . فالعكس هو الصحيح ، وذلك بأن نعرض النحو على القراءات المحكمة ، فالنص القرآني

---

(١) حيث كان الفراء موضوع رسالتي في الدكتوراه ، وهي بعنوان : «أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة» .

(٢) ذكرناها بإسهاب في الكتاب نفسه ، وأرجو أن يكون بين يديك قريبا بإذن الله .

هو الأصل والنحو تبع له ، ويجب أن يستنبط منه ويخضع له ، لا أن يكون حاكما متحكما فيه ، وبهذا الصنيع يستقيم الأمر ويعتدل « الهرم المقلوب » .

ورب قائل يقول : إن كتب النحو تغص بالشواهد القرآنية المحكمة ، فما الجديد الذى جاءت به هذه النظرية ؟

والجواب أننا لا ننكر وجود هذه الشواهد فهى داخلة فى « نظرية النحو القرآنى » فى جانب الاتفاق بين النحو والقراءات — كما رأينا آنفا فى تكوين النظرية . وإنما الجديد كله يتجلى فى جانب الخلاف بين النحو والقراءات . ويظهر ذلك جليا حينما تصطدم القاعدة النحوية بقراءة محكمة هنا يأتى الجديد . وهو اعتماد النص القرآنى المحكم ، وتعديل القاعدة النحوية طبقاً للنص القرآنى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وقد عدلنا كثيرا من القواعد النحوية وأخضعناها للنصوص القرآنية الموثوق بها كل الثقة . ولولا خشية الإطالة الآن لذكرت لك كثيرا من القواعد المعدلة نتيجة لتطبيق هذه النظرية .

على أن هناك نقطة دقيقة ينبغى أن يتنبه لها القارىء الكريم ، وهى الفرق بين الاستشهاد والاستنباط ، وخلاصته أن القواعد النحوية ينبغى أن تستنبط أولا من النصوص القرآنية ، ثم يأتى بعد ذلك الشعر وغيره من مصادر السماع ، ولو فعلنا ذلك ما كان هناك تعارض على الإطلاق بين النحو والقراءات . ولكن الواقع جاء على خلاف ذلك ، حيث كان الشعر هو المصدر الأول فى استنباط القواعد النحوية . ولهذا رأينا تعارضا كبيرا بين كثير من القواعد النحوية والقراءات القرآنية المحكمة ، ولو طبقنا هذه النظرية لاختفى هذا التعارض تماما وانتفى من الوجود ، لأن النص القرآنى سيكون هو المصدر الأول فى كل تقعيد وتقنين .

ومما سبق يتضح لنا الفرق بين الاستشهاد والاستنباط . فالاستشهاد — أو بعبارة أدق — بعض الاستشهاد بالآيات يأتى بعد وضع القاعدة واستنباطها من مصادرها الأول كائنا ما كان : شعرا أو نثراً أو من القرآن الكريم فى بعض القواعد ، وربما كان جانب الاتفاق فى هذه النظرية خير دليل على ذلك .

ولا يغيب عن ذهن القارىء أننا لا ننفى استنباط بعض القواعد من القرآن الكريم . وإنما الذى نتمناه ، وندعو إليه هو استنباط جميع القواعد من القرآن الكريم وقراءاته المحكمة كلما أمكن ذلك ، بمعنى أننا نجعل القرآن الكريم هو المصدر الأول فى التقعيد قبل الشعر الذى استبد

بهم فى سالف الزمن فنشأ عن ذلك هذا التعارض الذى نراه بين النحو والقراءات فى مواطن كثيرة تناولناها بالتفصيل فى بعض البحوث السابقة كما تناولناها بإسهاب فى نظرية النحو القرآنى .

وكنت أود أن أورد لك فى هذا البحث بعض النماذج التطبيقية التى توضح هذه النظرية ، وتشرح أبعادها فى الجانبين معا : جانب الاتفاق ، وجانب الاختلاف بين النحو القرآنى والنحو المألوف ؛ غير أن الظروف لا تسمح بذلك الآن .

فإلى لقاء آخر فى مبحث قادم بإذن الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

(للبحث صلة)

أحمد مكى الأنصارى
أستاذ الدراسات النحوية
بقسم الدراسات العليا
بجامعة أم القرى
مكة المكرمة



بين الحركات والحروف فى الإعراب

دراسة تاريخية مقارنة

للدكتور(*) أحمد علم الدين الجندى

لمحة تاريخية :

توهم القدماء من علمائنا ضآلة قيمة الحركات ، وأنها أمر ثانوى بالقياس على الحروف ، وفى هذا القول بعض المغالاة ، فللحركات خطورتها فى تنويع أصل كل معنى ، وعن طريقها يتحقق تغاير المعنى الصرفى ، كما أنها تمثل عنصرا هاما فى كل من : النبر فى الجانب الصرفى ، والتنغيم فى الجانب النحوى . زد على ذلك أنها تكون قمم مقاطع فى العربية ، ومكانتها أخيرا فى العروض العربى لا تنكر حيث حلت مكانا مرموقاً فى موازيق الشعر[1] .

وتاريخ الحركات جزء هام من تاريخ الكتابة العربية فى عصورها الإسلامية غايتها تصوير كل صوت برمز كتابى يدل عليه ، وفى العربية نجد أنماطا من الحركات المختلفة من بسيطة ومزدوجة Diphtong ومطولة ومخطوفة أو مختلسة ، على أن الحركات ، وهو الأهم فى موضوعنا ، يمكن أن ترتبط بنظرية نحويى العربية الذين يرون أن الحركات الأساسية هى التى بواسطتها تحرك نهاية الكلمة فى حالات الإعراب ، غير أنه يوجد إلى جانب هذه الحركات حركات أخرى نشأت بتأثير الحرف الصامت سابقاً أو لاحقاً ، مع بعض العوامل الأخرى على أن هذه الحركات والسكنات عندما تتقاضف على الصيغة تؤلف نمطا منسجما يتواكب مع المعانى الوظيفية ، وفيضا غامرا من اختلاف الأوجه وديناميكية الانتقال من صيغة إلى أخرى فما يعد نمطا فريدا لسياسة الحركات الذى يتوج التمدن اللغوى الحضارى للأمة العربية[2] .

(*) أفضت فى الحديث عن الحركات الإعرابية فى بحث نشرته فى : مجلة معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة . العدد الثانى ١٤٠٤ — ١٩٨٤ بعنوان « علامات الإعراب بين النظر والتطبيق » من ص ٢٧٥ — ٣٢٣ .

(١) انظر كتابنا : « نحو القلوب الصغير » ص : ١٩٠ ط الدار العربية للكتاب بتونس ، وفى هذا الكتاب أثبت أن للحركات قيمة هامة أخرى فى الجانب الصوفى وخلعت عليها تسمية مبتكرة باسم (صوفية الحركات) ، أو (أخلاقية الحركات) .

(٢) انظر مقالنا فى مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٩ .

على أننا لا ننكر صعوبة تأريخ الحركات فى سائر اللغات العربية الجاهلية لأن أبجديتنا أبجدية حروف صامتة تهمل الحركات وأمثالها من ضغط ونبر وتنغيم . كما أن مخالفة الكتابة للنطق كثيرا ما يكون مصدرها تطور الصوت فى الكلمة ، ونشاهد ذلك فى رسم المصحف الشريف والساميات أخوات العربية حيث نشاهد فى العبرية (صان) ونطقها (صون) وكذلك (راش) بمعنى رأس ، ونطقها (روش) .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نرى أن بعض قدماء النحاة لم يوفقوا حين ظنوا أن الحركات ليس لها من الأهمية ما للحروف فقد زعموا أن حركات العلة أعراض ، والحروف الساكنة جواهر وأصول ، ثم دخلوا فى متاهات ومشكلات منها :

١ — محل الحركة من الحرف . أما سيبويه فيذهب إلى أن الحركة تحدث بعد الحرف ،وقال غيره : معه ، وذهب غيره إلى أنها تحدث قبله ويذكر ابن جنى ابتداء تلك القضية فيقول: واعلم أن الحركة التى يتحملها الحرف لا تخلو أن تكون فى المرتبة قبله ، أو معه أو بعده[1] ؟

والفارسى على رأس الذين يرون أن الحركة تحدث مع الحرف[2] على أن ابن جنى يستنكر أن تكون الحركة فى المرتبة قبل الحرف[3] .

ونحاتنا فى هذا الخضم العريض تتناحر آراؤهم وتتشاجر فعندما يقررون أن الحركات أضعف من الحروف نرى أن الصواب قد جانبهم فى ذلك ، إذ الدراسات الحديثة قد أثبتت أن جميع الحركات القصيرة والطويلة مجهورة ، وأنها أقوى فى الوضوح السمعى من الأصوات الساكنة[4] .

٢ — ثم نراهم ينقضون مبدأهم فيقررون أن الحركة أصل للإعراب وأن حرف المد فرع عنها وذلك فى قول ابن جنى . « فالألف والياء والواو فى جميع هذه الأسماء الستة دواخل على الفتح والكسر والضم ، ألا تراها تفيد من الإعراب ماتفيده الحركات : الضمة والفتحة والكسرة . وإنما الموضع فى الإعراب للحركات فأما الحروف فدواخل عليها[5] .

وإذا كان نحاتنا يرون أن الحركات أضعف من الحروف لأن الحركة فى حقيقتها ناقصة

(١) سر الصناعة : ٣٢ .
(٢) السابق : ٣٧ .
(٣) انظر أدلته فى سر الصناعة ص : ٣٢ .
(٤) نحو القلوب الصغير : ١٨٤ .
(٥) الخصائص : ٣ / ١٣٥ تحقيق الأستاذ محمد النجار . دار الكتب المصرية .

لأنها لا تقوم بنفسها وهى محتاجة لكى توجد إلى حامل هو الحرف . ثم إن الحركات جزء من شيء آخر سابق عليها وهو الحرف التم الكامل ، وابن جنى يقرر ذلك حين يقول : اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهي الألف والواو والياء ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث : الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة : الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة »[1] .

فنص ابن جنى يؤكد أن الحركات أبعاض لهذه الحروف ، وإذا كان كذلك فكيف تنقلب الفكرة عندهم رأسا على عقب حين يقررون أن أصل الإعراب أن يكون بالحركات ، كما قالوا أيضاً بأن الحروف أقوى من الحركات وأصل لها ، وفى الإعراب نقضوا عهدهم أيضاً حين قالوا بأن حروف المد فرع أو دواخل على الحركات وهى الضم والفتح والكسر . على أنه لا فرق بين الحركات وحروف المد إلا فى الكمية من وجهة نظر الدرس اللغوى الحديث . وعلماء العربية الأقدمون يذهبون إلى مثل ذلك أيضا ، حيث يقرر ابن جنى ذلك فيقول : ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذى هى بعضه »[2] فكأن الحركات حين تشبع تنشأ الحروف ، وكان على النحاة من خلال هذا الفهم أن يعتصموا بأن الإعراب لايكون إلا بالحركات وحدها لا غير حتى لا يثيروا بلبلة واضطرابا وتناقضا فى مسائل النحو كما سنرى ، لأنه ليس بين الإعراب بالحركات والحروف من فرق إلا فى الكم أما فى الكيف فهى هى : الحركات أصوات مد قصيرة ، والأحرف أصوات مد طويلة ، والواو التى زعموا أنها علامة رفع فرعية ليست إلا ضمة مشبعة ، والياء ليست إلا كسرة مشبعة ، والألف كذلك ليست إلا فتحة مشبعة ، فالفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو ولكن النحاة شقوا على أنفسهم وعلى غيرهم حين ذكروا علامات أخرى للإعراب سموها العلامات الفرعية ، وجعلوها نائبة عن العلامات الأصلية ، وسيقابلك حشد من آرائهم المتصارعة فى الإعراب بالعلامات الفرعية . وعلى سبيل المثال فالأسماء الستة تراهم يختلفون فى إعرابها إلى مذاهب قددا :

---

(١) سر الصناعة : ١٩ ، وانظر : الأشباه والنظائر ١ / ١٧٢ للسيوطى . القاهرة

(٢) سر الصناعة : ٢٠ .

١ ـ أن الواو والألف والياء فيها حروف إعراب والإعراب مقدر فيها كما يقدر فى الأسماء المقصورة . وهذا قول سيبويه .

٢ ـ أنها معربة من مكانين بالحروف والحركات التى قبلها . وهو رأى الكوفيين

٣ ـ أن هذه الحروف حروف الإعراب وعلامته فالواو بمنزلة الدال والضمة فى نحو : قاتل الجند ، والياء بمنزلة الدال والكسرة فى نحو أتيت على الجند . والذى جعلهم يقولون بذلك : أن حروف العلة لو سقطت اختلت معانى هذه الأسماء فهى كحروف الإعراب توجد بوجوده . وتزول بزواله فهى كعلامته .

٤ ـ وذهب بعض النحويين إلى أن هذه الأسماء إذا كانت فى موضع رفع كان فيها نقل بلا قلب ، وإذا كانت فى موضع نصب كان فيها قلب بلا نقل ، وإذا كانت فى موضع جر كان نقل وقلب[1] .

٥ ـ وذهب بعضهم إلى أن الياء والواو والألف نشأت عن إشباع الحركات[2] وهذا الرأى قريب من رأى المحدثين اللغويين حيث يرون أن اختلاف وقوع النبر هو السبب فى مطل هذه الحركات أو تقصيرها

فلو قلت : (أخوك) كان النبر على المقطع الثانى (خو) أما (أخاك) بدون مطل فالنبر على المقطع الأولى (أ) .

ومثل هذا الخلاف يطالعنا فى باب التثنية والجمع كذلك بين البصريين والكوفيين وبين أفراد كل فريق منهم ، فيذهب سيبويه إلى أن الألف والواو والياء هى حروف الإعراب . وذهب أبو الحسن الأخفش ، وأبو العباس المبرد ومن تابعهما إلى أنها تدل على الإعراب وليست بإعراب ولا حروف إعراب . وذهب أبو عمرو الجرمى إلى أن انقلابها هو الإعراب وذهب قطرب والفراء والزبادى إلى أنها هى الإعراب[3] وحكى عن الزجاج أن التثنية والجمع مبنيان .

والذى ورط النحاة فى قولهم : الإعراب بالحروف فرع عن الإعراب بالحركات التى هى أصول — مايذهبون إليه دائما من القول بالأصل والفرع فى كل مشكلة تقابلهم ، ولهذا يعج النحو العربى ، وتطالعك نظرية الأصول والفروع — التى ترتبط بمنهج أصول الفقه فى كل باب من أبوابه ومن ذلك :

---

(١) الإنصاف ١ / ٢٢ .

(٢) أسرار العربية لابن الأنبارى ١ / ٤٤ فما بعدها ط دمشق ، واللمع لابن جنى : ١٠١ فما بعدها وانظر التحقيق للدكتور حسين شرف ط ١٩٧٨ والرضى على الكافية ١ / ٢٧ ، وشرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ ٥٨ فما بعدها .

(٣) سيبويه ١ / ٤ ط بولاق ، وأسرار العربية : ٥١ ، واللمع لابن جنى : ١٠٣ وانظر المحقق ، وشرح المقدمة النحوية لابن باب شاذ : ٦٤ تحقيق د . أبو الفتوح شريف ط ١٩٧٨ . والإنصاف ١ / ٣٣ .

١ – باب من غلبة الفروع الأصول(١) .

٢ – حمل الأصول على الفروع .

٣ – باب فى المستحيل وصحة قياس الفروع على فساد الأصول(٢) .

٤ – مراجعة أصل واستئناف فرع .

٥ – نقض الأصول وإنشاء أصول غيرها منها(٣) .

٦ – مراجعة الأصل الأقرب دون الأبعد .

٧ – مراعاة الأصول تارة وإهمالهم إياها أخرى . وقد تكثر الفروع وتطرد حتى حتى تصير كالأصول فتشبه الأصول بها .

٨ – حط الفروع عن الأصول .

٩ – هجر الأصل حتى يعد النطق شذوذا

١٠ – قد يكون للشىء أصلان(٤) والأصول لا تحتاج إلى علامات ، وإنما تحتاجها الفروع ، كما نرى هذه الأصول فى جزئيات الفصول والأبواب النحوية مثل قولهم :

١ – لماذا كان(٥) الأصل فى الخبر الإفراد؟ ومتى يأتى الخبر على خلاف الأصل ؟

٢ – لماذا كانت إلا – هى الأصل فى الاستثناء ؟

٣ – لماذا كان الأصل فى الأفعال التصرف ولماذا كان الأصل فى الأفعال الدلالة على الحدث والزمان ؟

٤ – لماذا كان الفعل أصلا للاسم فى الصحة والإعلال ؟

٥ – الأصل فى الأسماء التذكير ، والتأنيث فرع عليه

٦ – الحذف للجزم أصل للحذف للنصب .

٧ – الباء هى الأصل فى حرف القسم .

٨ – النكرة أصل والمعرفة فرع عليها .

٩ – وحسبنا أن نختم هذا بما يتصل بموضوعنا (الإعراب ومشكلاته) ونشير إلى قضيتين : أولاهما : قولهم : الأصل فى الإعراب أن يكون بالحركات ، والإعراب بالحروف فرع عليها . وإنما كان الإعراب بالحركات هو الأصل لثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن الإعراب دال على معنى عارض فى الكلمة ، فكانت علامته حركة عارضة فى الكلمة لما بينهما من التناسب

---

(١) الخصائص ١ / ٣٠٠ .
(٢) الخصائص ٣ / ٣٢٨ .
(٣) الخصائص : ٣ / ٢٢٧ .
(٤) الأشمونى : ٤ / ٢١٢ .
(٥) ألاحظ اهتمام النحو التقليدى بالعلة : لماذا كان ؟ فلم يكن يلاحظ ويستقرىء ويفسر تفسيرا يقوم على الحقائق اللغوية ، بل كان نحوا معياريا صوريا لا يركز على الاستعمال اللغوى كما هو .

والثانى : أن الحركة أخف من الحرف وأقل منه ، وهى كافية فى الدلالة على الإعراب ، وإذا حصل الغرض بالأخف الأقل ، فلا يتكلف غيره ، ولذلك كثرت الحركات فى بابها ، وقل غيرها مما أعرب به ، وقدر غيرها بها ، ولم تقدر هى به[1] .

والثالث : أن الحرف من جملة الصيغة الدالة على معنى الكلمة اللازم لها ، فلو جعل الحرف دليلا على الإعراب ، لأدى الأمر إلى أن يدل الشىء الواحد على معنيين وفى ذلك اشتراك ، والأصل أن يخص كل معنى بدليل . وإنما أعرب المثنى وجمع المذكر والأسماء الستة بالحروف لأمر اقتضاه ، فأعربوا المثنى وجمع المذكر بالحروف للفرق بينهما وبين المفرد ، ولم يعكس الأمر ليكون الأصل للأصل والفرع للفرع ، فإن الحركات أصل للحروف ، والمفرد أصل للمثنى والجمع[2]

وثانيهما : قولهم : هل حركات الإعراب أصل لحركات البناء، أو حركات البناء أصل لحركات الإعراب ، وقد اختلف النحاة فى ذلك :

فذهب بعضهم إلى أن حركات الإعراب هى الأصل، وأن حركات البناء ، فرع لأن الأصل فى حركات الإعراب أن تكون للأسماء وهى الأصل ، فكانت أصلا ، والأصل فى حركات البناء أن تكون للأفعال والحروف ، وهى الفرع ، فكانت فرعا .

وذهب آخرون إلى أن حركات البناء هى الأصل ، وحركات الإعراب فرع ، لأن حركات البناء لا تزول ولا تتغير ، وحركات الإعراب تزول وتتغير وما لا يتغير أولى أن يكون أصلا مما يتغير[3] .

ولا تعجب بعد ذلك أن تجد خلطا بين كثير من النحويين فى علامات كل من حركات الإعراب والبناء حيث أطلق بعضهم ألقاب الإعراب على ألقاب البناء والعكس[4] .

والأعجب مما سبق أن البصريين والكوفيين عندما وضعوا أصولهم وفروعهم فى النحو لم يلتزموا تلك الأصول والفروع عند التطبيق فقد ناقض كل فريق (أصله)[5] وكان ذلك سببا من أسباب التضارب والتناقض والتخالف والتشابك فى مسائل العربية .

---

(١) انظر شرح المفصل ١ / ٥١ .

(٢) انظر حواشى النحو المطولة ، والأشباه والنظائر ٢ / ٢٢ للسيوطى . ط القاهرة. القواعد الكلية د . فريب نافع ، نشر : مكتبة الأزهر سنة ١٩٧٥ .

(٣) أسرار العربية لابن الأنبارى : ٢٠ ط دمشق ، وانظر الأشباه والنظائر ١ / ١٥٩ القاهرة .

(٤) معانى الفراء ٢ / ٣٥ ، ٤٠ والمقتضب ٤ / ٤ ، ٨٣ .

(٥) الإنصاف مسألة : ٥ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٥ .

ونظرية الأصل والفرع وافدة على النحاة من أصول الفقهاء ، فقد تحدث الأحناف والشافعية عن الأصول والفروع ، واهتم بها أبو حنيفة ومدرسته ، ومعلوم أن تأثير الفقه وأصوله فى النحو كان قويا منذ العصور الأولى فقد كان النحاة ينظرون إلى الفقه وأصوله على أنه علم نابع من الفقه الإسلامى الخالص ، ولهذا رأينا كثيرا من النحاة يتأثرون بالفقهاء ويشاركونهم من أمثال : أبو عمر الجرمى ، والفراء ، والسيرافى ، حتى إن الجرمى والسيرافى كانا يقعدان للفتيا ، والخليل ابن أحمد النحوى يصرح فى أمكنة كثيرة باقتباسه نصوصا فقهية لأبى حنيفة يؤكد بها مسائل فى النحو والعربية[1] ومحمد بن الحسن ألف كتابا فى الإيمان ضمنه مسائل فقهية مبنية على أصول النحو والعربية ، وابن جنى فى الخصائص يتأثر فى مسائله النحوية بالفقهاء وعلماء الأصول[2] وكذلك كتب ابن الأنبارى كالإنصاف ولمع الأدلة ، وتآليف السيوطى كالهمع والاقتراح والأشباه والنظائر ، فهى مبنية على أشباهها من كتب الفقهاء ونرى أن يكون منهج النحو نابعاً من اللغة ويعود على اللغة ، دون السماح لأى فكر آخر غير لغوى أن يتدخل .

والدراسات النحوية الحديثة لم تعترف بفكرة الأصل والفرع كما فسرها النحاة إذ إنها ترى أن فهم اللغة يخضع للشكل والوظيفة ففى العربية كثير من الوظائف كوظيفة الفاعل والمفعول والمبتدأ وكل وظيفة تتخذ لها طريقة شكلية تعبر عنها ، فشكل الفعل مع الفاعل يختلف شكله مع نائب الفاعل ، وهذا الشكل لا يقتصر على الحركات الإعرابية، بل يتسع ليشمل الترتيب بين الكلمات مثل : التقديم والتأخير ، وغيره من القرائن التى تظهر من سياق الكلمات السابقة واللاحقة .

وفكرة الاعتماد على القرائن فى فهم التعليق النحوى ينفى عن النحو : كل تفسير ظنى أو منطقى ، كما ينفى أصالة بعض الكلمات فى العمل وفرعية الأخرى[3] كما أن مسائل

---

(١) كتاب العين : ٢٨٥ تحقيق الدكتور عبد الله درويش .

(٢) الخصائص : ١ — ١٦٣ فما بعدها ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ .

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان ص ٢٣٣ .

الأصل والفرع بالصورة التى تخللت جزئيات ومسائل النحو العربى مرفوضة لأن اللغة لها خصائصها وسماتها التى تختلف عن خصائص وسمات القياس المنطقى الجدلى الذى تأثر به النحاة ، وقضية (الأصالة والفرعية) لا ترتبط بمقاييس ثابتة عند علماء النحو العربى ومن هنا اضطربت الآراء والمشارب ؛ فما يعتبره نفر منهم أصلا يعتبره الآخرون فرعا لهذا الأصل . ونظرية الأصل والفرع ترتبط أولا وأخيرا بالقياس الذى فرض سلطانه على النحو وترجح أن تعتمد القضايا النحوية على الاستقراء . ولهذا أرى إلغاء فكرة نيابة الحروف عن الحركات لبنائها على الأصالة والفرعية ، ويكون إعراب الأسماء الستة بالحركات الثلاثة مع مدها ، أما جمع المذكر فالضمة فيه علم الرفع وعلم الإسناد والواو إشباع ، والكسرة علم الجر ، والإضافة والياء إشباع وأغفل الفتح لأنه ليس بإعراب ، فلم يقصد إلى أن يجعل له علامة خاصة ، لأنه إذا أريد إلى أن يجعل نصبا وأتى له بالفتحة اشتبه بالمثنى ، ولهذا أغفل الفتح فيه ، وجعلت الصيغة المستعملة فى الإضافة هى صيغة المنصوب[1] أما المثنى فالألف فيه ليست علامة للرفع ؛ لأن الضمة وحدها هى علم الرفع ، أما الألف فهى للتثنية لا غير وإذا أريد رفعه بالضمة فيجب أن تزول الألف ، وبزوالها يزول المعنى فتركت الكلمة وهى مسند إليها ، بلا علامة تدل على الإسناد فإذا أريد أن يكون مضافا إليه استعين بالياء وهى جزء من الكسرة ، وممطولة لها وأبقيت الفتحة الدالة على ألف الاثنين قبلها ، وتحقق فى الصيغة إذن : دلالتها على التثنية ، ودلالتها على الإضافة .

---

(١) إحياء النحو : ١١١ ط ١٩٥١ .

(٢) انظر : فى النحو العربى ٩٠ د . مهدى المخزومى . ط . أولى . بيروت .

تذييل وتكميل ومقارنات

فى الأسماء الستة :

مما سبب الخلط والتعارض فى أقوال علماء العربية ، إعراب الأسماء الستة ، وظهور مذاهب كثيرة كمذهب الكوفيين[1] وجمهور البصريين ، وعلى بن عيسى الربعى[2] ، والمازنى ، والأخفش ومعه المبرد[3] ، والجرمى[4] ، والرضى[5] ، وأبى على الفارسى[6] وغيرهم ، وأكثر هؤلاء يرى تثليث تلك الأسماء ، ويكون الحرف الثالث منها هو حرف الإعراب كالدال من زيد ، وبناء على هذا يقدرون ويتأولون ، فالأصل فى (جاء أبوك) جاءَ أَبَوُكَ . فالضمة على الواو علامة الرفع ، ثم سلبوا الحرف الذى قبل الواو حركته فسكن ثم ضموه إتباعا لحركة الواو ، ثم حذفوا حركة الإعراب ، وهى الضمة استثقالا لها على الواو ، فصار اللفظ (أبوك) (*) .

غير أن القول (بثنائية) هذه الأسماء — بدليل أنها عندما تضاف إلى ضمير المتكلم تحتفظ بثنائيتها (أبى – أخى – حمى) — يخلصنا من هذه الفروض والأوهام ، وهو ما يذهب إليه كثير من الباحثين فى الشرق والغرب على السواء[7] .

---

(١) الإنصاف ١ — ١٧ (٢) السابق (٣) المقتضب ٢ — ١٥٢

(٤) شرح الكافية ١ — ٢٧ فما بعدها . بيروت . (٥) السابق . (٦) السابق ١ — ٢٨

(٧) من أمثال : الأب مرمرجى الدومنكى فى كتابه : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية . ط القدس ١٩٣٧ م . ومعجمات عربية سامية ٧٩ فما بعدها ط لبنان ١٩٥٠ .

وجرجى زيدان فى كتابه : الفلسفة اللغوية ٣٨ فما بعدها . القاهرة ١٨٨١ .

وعبد الله العلايلى فى كتابه : مقدمة لدرس لغة العرب ١٣٣ ط العصرية بمصر .

وأحمد فارس الشدياق فى كتابه : سر الليال فى القلب والإبدال .

والأب مارى أنستاس الكرملى فى كتابه : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها . ط ١٩٣٨ .

وانظر مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ ترى فيها أسماء كثير من المستشرقين الذين آمنوا بالثنائية ، واستشهدوا لها بالساميات أخوات العربية . ونذكر منهم : فورست وجزينس وريتان .

وانظر : ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية . د — أمين فاخر .

وأصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ٧٤ — ٨٩ د — توفيق شاهين . مكتبة وهبة . القاهرة .

(*) الإعراب بالحروف ١٦ د . عبد الكريم الزبيدى . دار البيانى العربى . جدة .

هذا ؛ وقد أشار أسلافنا القدماء إلى الثنائية وإن لم ينصوا عليها صراحة ، حيث بدءوا بها فى معجماتهم عند ترتيبها كالخليل فى كتابه (العين) وابن دريد فى (الجمهرة) والأزهرى فى (التهذيب) والقالى فى (البارع) وابن سيده فى (المحكم) .

وعلى مذهب (ثنائية) الأسماء الستة فلا مشكلة فى إعرابها ، ويكون الإعراب على الحرف الثانى ، وليست حروف العلة فيها سوى آثار لإشباع حركات الإعراب ، فقولك : جاء أبوك — فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على الباء والواو إشباع ، وقس على ذلك حالة النصب والجر فيها ، وهذا مذهب المازنى بناه على (ثنائية) هذه الأسماء[1] ، وهذا يذكرنا بما ورد فى النقوش النبطية من إشباع حركات الإعراب وذلك مثل : إضافة الياء إلى المضاف إليه فى الأسماء المركبة تركيب إضافة مثل (عبد اللهى) . وهذا يشبه ما جاء عن أزد السراة من قولهم : جاء زيدو ، ورأيت زيدا ، ومررت بزيدى ، فالواو والياء يمكن أن تكون دليل الإعراب فى تلك اللغة ، وفعلوا ذلك لحرصهم على بيان الإعراب ولا سيما عند الوقف[2] .

* * *

فإذا انتقلنا إلى التراث العربى وجدنا أنماطا كثيرة لتلك الأسماء الستة ومن ذلك :

١ — بأبه اقتدى عدى فى الكرم
ومن يشابه أبه فما ظلم
سوى أبك الأعلى وأن محمدا
علا كل عال يابن عم محمد

٢ — وحكى عن بعض العرب : هذا أباك ، ورأيت أباك ، ومررت بأباك . ومن ذلك :

إن أباها وأبا أباها
قد بلغا فى المجد غايتاها[3]

وما روى عن أبى حنيفة : لا ، ولو رماه بأباقبيس ويراها الأشمونى لغة صحيحة[4] .

«مكره أخاك لا بطل» وبعضهم رواه «أخوك» .

وكما حكى فى الأب من وجوه حكى كذلك فى الأخ[5] .

٣ — وحكى بعضهم التشديد : هذا أبّك[6] وهذه الصورة أقدم الصور ، ثم تحول صوت التضعيف فيما بعد إلى حرف مد :

---

(١) انظر الإنصاف ١ — ١٧ ، ٢٣

(٢) اللهجات العربية فى التراث : المستوى النحوى . د . أحمد علم الدين الجندى .

(٣) انظر أوضح المسالك لابن هشام رقم ٩ .

(٤) ١ — ٧١

(٥) الأشمونى ١ — ٧١ والهمع ١ — ٥٩

(٦) الهمع ١ — ٣٩ .

ألفا أو واوا أو ياء وهذا التحول في اتجاه الثلاثي لتصبح الكلمة مماثلة لأكثر الكلمات العربية الثلاثية .

ويرى بعض علماء العربية أن تشديد : أب وأخ — عوض من لاميهما ، فإن أصلهما : أبو وأخو . جاء في الجمهرة : أن بعض العرب يقولون : أخّ وأخّه ، وقال ابن مالك في التسهيل : إن تشديد خاء (أخ) وباء (أب) لغة[1] .

٤ — لزومها الواو وذلك في قراءة من قرأ : « تبت يدا أبولهب وتب[2] » وحكاه أبو معاذ[3] .

وفي الرسالة للإمام المطلبي[4] : أخبرنا سفيان عن سالم أبو النضر . . . أن رسول الله (ﷺ) قال : لا ألفين أحدكم . . . (الحديث) .

وفي أسفل الوثيقة التي أرسلها رسول الله (ﷺ) إلى بني جنْبة وإلى أهل مقنا «وكتب علي بن أبو طالب بخطه ورسول الله يملي عليه حرفا حرفا »[5] .

ولذا رجحت أن صيغة الواو لهجة قرشية[6] .

* * *

فإذا انتقلنا إلى الساميات والنقوش في تلك الأسماء وجدنا ما يلي :

١ — ورد في اللهجة الصفوية « بابه . أي : بأبيه . وباخه . أي : بأخيه[7] وورد في اللهجة الصفوية كذلك «ابه . يعني : أبوه ، وذلك في النص : ورمى له ابه . أي : ورمى له أبوه[8]» وهذه تشبه حالة النقص في العربية .

وفي نقش صفوي آخر عبارة « وندم على أخه وأخته » أي : وندم على أخيه وأخته . وفي نقش صفوي أيضا عبارة « لحلم ابن أب أنس ورمى[1] » فالأب والأخ وردا في النقشين على حرفين مع كونهما مضافين . وهذا يؤكد مذهب الثنائية فيهما ، وهي تشبه حالة النقص في العربية كذلك .

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ١ — ١١٩ تحقيق : طه عبد الرءوف سعد .

(٢) انظر الكشاف .

(٣) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ١٨٢ . (٤) ص ٨٩

(٥) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي : المقدمة (كد) ط الثانية . د . محمد حميد الله الحيدر آبادي . لجنة التأليف والترجمة . القاهرة .

(٦) انظر : كتابنا : اللهجات العربية في التراث . النظام النحوي

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧ — ٢٣٤ د . جواد علي . ط المجمع العراقي ١٣٧٦ — ١٩٥٧

(٨) المرجع السابق ٧ — ٢٤٣

٢ — وفى الفقرة ١٩٥ من قانون حمورابى (١٧٩٢ — ١٧٥٠ ق م) المدون باللغة البابلية القديمة يوجد فيه الإعراب كما هو فى اللغة العربية الفصحى وفيه imtahas Šummā matu abāšu بمعنى : إذا ضرب ابن أباه » نجد كلمة abāšu بمعنى : أباه — وهى فى حالة المفعولية منصوبة بالألف لأنها من الأسماء الخمسة كما فى العربية[2] وإن كنت أرجح أنها منصوبة بفتحة طويلة .

٣ — أما العبرية فاستقر أمرها على :

אָבִיךָ (أبيك)

وعلى : אָחִיךָ (أخيك) ،

٤ — واستقرت السريانية على : أبوك وأخوك .

وكذلك الآرامية سلكت مسلك السريانية فى هاتين الكلمتين .

٥ — أما فى لهجاتنا الحديثة فلا نكاد نرى بها إلا صورة واحدة هى : أبوك وأخوك . كما تسقط الهمزة من (أبو) حيث يقال فى كنية القرد : بوزنه ، والأصل : أبوزنة ، وفى تونس والجزائر يقولون : بومدين ، بوتفليقة كما تنتشر فى الجزيرة العربية أسماء : بافضل ، باكلا ، حسن باجوده[3] ، وهذه الظاهرة ، امتداد للهجات قديمة ، حتى ظنها بعض علمائنا القدامى من اللحن[4] .

فى المثنى :

يقال : ثنى الشيء . أى : رد بعضه على بعض فتثنى وانثنى ويكون المعنى عبارة عن جزأين ، أعيد أو رد كل جزء إلى آخر ، ومن ذلك أيضا جاء (الثنيان) بضم الثاء للرجل الذى يلى السيد . والتثنية أو المثنى ظاهرة لغوية وجدت فى اللغات السامية وغيرها .

كما نجد التردد فى الأساليب العربية فى المثنى حتى زمن القرآن الكريم ، فلم تكن تراعى العربية المثنى من حيث نظام الحمل ، وربما يرجع عدم المراعاة من أن المثنى كان داخلا فى حيز الجمع أيضا ، ولهذا لم يكن ثابت القاعدة . انظر مثلا قوله تعالى :

١ — «ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا[5] » حيث قال : خروا . ولم يقل : خرا على التثنية .

---

(١) اللغة العربية فى عصور ماقبل الإسلام ١٢٨ . أحمد حسين شرف الدين .

(٢) فصول فى فقه العربية ٣٨٣ د . رمضان عبد التواب ط الثانية . الخانجى .

(٣) ويشتغل الآن رئيس قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

(٤) انظر بحوث ومقالات فى اللغة ٢٧٤ د . رمضان عبد التواب ، الناشر : الخانجى والرفاعى .

(٥) يوسف ١٠٠

٢ – « هذان خصمان اختصموا فى ربهم[١] »

٣ – « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما[٢] » .

٤ – « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين[٣] » .

كما شاع فى العربية الخطاب للمفرد بصيغة المثنى كما فى الشعر مثل قولهم (خليلىّ) و (قفا) و (افعلا ذلك) ومن ذلك قوله تعالى : « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد[٤] » وهو خطاب لمالك خازن[٥] النار .

* * *

فإذا رجعنا إلى النحو العربى وجدنا المثنى فيه يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء ، وبعضهم يرى أن الألف والياء دليل الإعراب وليست بإعراب ولا حروف إعراب[٦] . وعن ثعلب أن الألف فى المثنى بدل من ضمتين[٧] ، ويطول الخلاف بين علماء العربية فى هذا[٨] ، ثم ينشط تعليل النحاة وقياسهم فيعللون لرفع المثنى بالألف دون غيرها ، وهل كان الإعراب متأخرا فى نشأته عن علامة التثنية أم كان مصاحبا لها ؟

ويرى صاحب شرح الكافية أن الإعراب فى التثنية والجمع لم يكن مصاحبا لأصل التثنية والجمع ، بل دخل عليهما بعد ذلك « وعندما أدخلوا الإعراب على التثنية لما دعت الحاجة إليه أقروا الألف فى الرفع ؛ لأنها عماد التثنية وعلامتها الأصلية ، والرفع علامة العمد التى لاتستغنى الجمل عنها . . . فناسب لذلك أن تكون الألف التى هى علامة التثنية فى الأصل علامة الرفع أيضا . وبقى الجر والنصب ، وعلامة الجر الأصلية الياء التى تكون الكسرة بعضها فأعطى الجر علامته الأصلية وهى الياء ، واستغنوا عن الألف التى هى علامة التثنية بالفتحة التى هى بعضها ، فصارت الفتحة على ما قبل الياء علامة للتثنية . فالياء علامة الجر فهى إعراب ، أما علامة التثنية فهى الفتحة المختصرة من الألف . وبقى من الإعراب النصب وعلامته الأصلية الألف التى تكون الفتحة بعضها ، ولكنهم عندما أقروا الألف

---

(١) الحج ١٩ (٢) الحجرات ٩

(٣) فصلت ١١ وانظر : فقه اللغة المقارن د . إبراهيم السامرائى ٨٢ ط بيروت .

(٤) سورة ق ٢٤ (٥) فقه اللغة وسر العربية ٣٢٩ للثعالبى . مط : الحلبى ط ١٣٩٢ – ١٩٧٢

(٦) الإيضاح للزجاجى ١٣٠ ط ٣ تحقيق مازن المبارك ١٩٧٩ بيروت .

(٧) المرجع السابق ١٤١

(٨) انظر الإنصاف ١ – ٣٣ فما بعدها ، والكتاب ١٧ فما بعدها و ٣ – ٣٨٥

فى الرفع ، لم تبق للنصب علامة ، فالحق بالمجرور ، وأعطوه علامته وهى الياء ، وبقيت الفتحة قبل الياء دليلا على التثنية .

والخلاصة : أن الألف فى المثنى علامة للتثنية وعلامة إعراب أيضا ، والياء فى النصب والجر إعراب والفتحة قبلها علامة للتثنية[١] »

* * *

فإذا انتقلنا إلى التراث العربى وجدنا فيه أنماطا مختلفة للمثنى ، ومن ذلك[٢]

شواهد لزوم الألف :

تزوّد منّا بين أذناه طعنةً
دعته إلى هابى التراب عقيم

طاروا علاهنّ فطرْ علاها
واشدد بمثنى حقب حقواها[٣]

أعرف منها الأنف والعينانا
ومنخرين أشبها ظبيانا[٤]

فأطرق إطراق الشجاع ولو ترى
مساغاً لناباه الشجاع لصمما[٥]

وقول أبى النجم العجلى :

قد بلغا فى المجد غايتاها[٦]

ومن النثر :

حمُل بعيراك وخذ ديناراك .

جلست بين يداه .

لا وتران فى ليلة[٧] .

وفى القرآن :

قرأ ابن مسعود : « فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدان فيها[٨] » سورة الحشر ١٧ :

« فلما ترى الجمعان[٩] . . . » وقراءة العامة : « فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى ... »

: « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنان[١٠] » .

: « إن هذان لساحران[١١] » .

وأصحاب هذه اللغة : كنانة وبنو الحارث ابن كعب ، وبنو العنبر[١٢] وبنو الهُجَيْم ، وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وهمدان وفزارة وعذرة[١٣] .

---

(١) الإعراب بالحروف ٣٥ فما بعدها . د . عبد الكريم الزبيدى ، دار البيان العربى . جدة .
(٢) انظر : اللهجات العربية فى التراث : فى النظام النحوى . د . أحمد علم الدين الجندى .
(٣) خزانة البغدادى ٣ — ١٩٩ (٤) التصريح ١ — ٧٨
(٥) مقدمتان فى علوم القرآن ٢٢٧ (٦) الهمع ١—١٣٤ تحقيق سالم .
(٧) الهمع ١ — ٤٠ ط أولى . وانظر : اللهجات العربية فى التراث : فى النظام النحوى .
(٨) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ١٥٤ وانظر الكشاف للزمخشرى .
(٩) الشعراء ٦١ وعزاها عيسى بالرفع على تلك القراءة لتميم وانظر ابن خالويه ١٠٧
(١٠) البحر ٦ — ١٥٥ (١١) طه ٦٣ وانظر البحر المحيط ٦ — ٢٥٥
(١٢) وهما من تميم ، ولاحظ قراءة الرفع فى « فلما ترى الجمعان » وعزاها عيسى إلى : تميم .
(١٣) الهمع ١/١٣٣ تحقيق سالم وانظر : الإكليل ٨ — ١١٢ والبحر ٦ — ٢٥٥ :
وفى الطبعة الأولى للهمع توجد : مزاده . بدل : فزارة . ولاتوجد قبيلة عربية مسماة بهذا الاسم .

ومن العرب من يلزم المثنى الألف كما سبق ولكنهم يخالفونهم فى حركات النون ، حيث إن هؤلاء العرب يعربون المثنى بالحركات على النون ، من ذلك :

يا أبتــا أرّقــنى القِــذانُ

فالنــوم لا تعــرفه العينــانُ

وقال الشيبانى :

ضم نون التثنية لغة . قال أبو حيان : يعنى مع الألف لا مع الياء ، لأنها شبهت بألف غضبان وعثمان ، وقد حكى الشيبانى : هذان خليلانُ[1] .

والعرب استعملت الألف للدلالة فى جميع كلامها فقالوا : قاما وذهبا ، وأنتما وهما ، ولذلك كانت الألف أنسب من غيرها إلى أن تكون علامة للتثنية التى هى أول الجمع وأخف منه وأكثر استعمالا من الجمع السالم .

وأرجح أن لغة إلزام المثنى الألف فى الأحوال الثلاثة القادمة هى اللغة القدمى — وكانت قبل دخول الإعراب عليه، كما أن لزوم الياء والنون لغة أيضا، يؤيد هذا وجودها فى لغات سامية سنشير إليها ، كما أن هذه الياء والنون لغة كثير من العرب المعاصرين ، وربما كانت الياء فى المثنى لها صلة بإمالة الألف ، يقوى ذلك وقف حمزة والكسائى وخلف على : «كلتا الجنتين آتت أكلها : الكهف ٣٣» بإمالة الألف[2] .

وفى الإتحاف[3] : أمال الألف العراقيون قاطبة .

* * *

النون فى المثنى :

أما النون فى المثنى فألحقوها للدلالة على تمام اللفظ ؛ لأنها كالتنوين الذى يتمّ به الواحد وهى عوض من الحركة والتنوين اللذين يستحقهما الاسم فى الأصل ، ثم صارتا بعد من خصائص التثنية ، وقد اختلف العلماء فى هذه النون على مذاهب :

١ — لرفع توهم الإضافة ، وهو رأى ابن مالك .

٢ — عوض من حركة المفرد . وهو رأى الزجاج ، وردّه ابن مالك بأن الحروف نائبة عنها فلا حاجة إلى التعويض بالنون .

٣ — عوض من تنوين المفرد ، وعليه ابن كيسان .

٤ — عوض من الحركة والتنوين معا ، وعليه ابن ولاد :

---

(١) الهمع ١ — ١٦٠ سالم .

(٢) إرشاد المبتدى وتذكرة المفتى فى القراءات العشر ٤١٦ لأبى العز الواسطى . تحقيق : عمر الكبيسى . الفيصلية بمكة المكرمة (٣) ص ٣٩٠

٥ – عوض من الحركة والتنوين فيما وجدا فى مفرده . ومن الحركة فقط فيما لا تنوين فى مفرده كمثنى ما لا ينصرف . ومن التنوين فقط فيما لا حركة فى مفرده ، كعصا .

٦ – فارقة بين رفع المثنى ونصب المفرد ، لأنك إذا قلت : زيدا ، يلتبس بالمفرد المنصوب حال الوقف ، ثم حمل سائر التثنية والجمع على ذلك . وعليه الفراء .

٧ – أنها التنوين نفسه[1] .

ويلاحظ أن النون فى المثنى لم تحل محل المعوض عنه ، وهو التنوين ، إذ محل التنوين فى المفردات يعتقب حرف الإعراب وهو الميم من (مسلم) وأما النون فى المثنى فلم تكن بعدها ، بل بعد علامة الإعراب ، وهى الألف والياء فى المثنى ، وعليه فلم تقع النون موقع التنوين لوقوعها بعد علامة الإعراب فيه[2] .

أما حركة النون فى المثنى فالشائع فيها الكسر ، وإنما حركت لالتقاء الساكنين ، وفتحها لغة أسد ، وقيل ذلك خاص بحالة الياء بخلاف حالة الرفع ومن أمثلة ذلك :

على أحوذيينَ استقلّت عشيةً
فما هى إلا لمحةٌ وتغيب

ويرى برجشتراس أن النون فى المثنى : يدان أو يدين مكسورة ، وربما كان أصلها yadāma فأبدلت الفتحة بالكسرة للمخالفة الصوتية[3] .

وقال الشيبانى ضم النون لغة . قال أبو حيان يعنى مع الألف لا مع الياء[4] .

وتحذف هذه النون للإضافة ، وجوز الكسائى حذفها فى غير ذلك كقوله :

أقول لصاحبى لما بدالى
معالم منهما ، وهما نجيا

أى : نجيان وعليه يجوز : قام الزيدا – بغير نون . قال أبو حيان : ويشهد له ما سمع بيضك ثنتا ، وبيضى مائتا[5] .

* * *

فإذا انتقلنا إلى الدراسات السامية المقارنة فى المثنى وجدنا :

١ – إن علامة التثنية فى العربية[6] كما سبق (– ان) فى الرفع و (ين) فى النصب والجر ؛

(١) انظر الهمع ١ – ١٦٣ فما بعدها . سالم . (٢) التعويض وأثره فى الدراسات النحوية واللغوية ١١٣ د . عبد الرحمن إسماعيل ط أولى (٣) التطور النحوى ١١١ نشره وعلق عليه د . رمضان عبد التواب .

(٤) الهمع ١ – ١٦٦ سالم وانظر شرح الكافية الشافية ١ – ١٩٩ تحقيق د . هريدى . دار المأمون .

(٥) الهمع ١ – ١٦٩ سالم .

(٦) تنتمى إلى المجموعة الجنوبية

٢– وعلامتها فى الأوكريتية[١] مثل العربية Amai للمذكر فى الرفع و Emai فى حالتى النصب والجر(*) وتلازم هذه العلامة الكسرة فى نهايتها كنون التثنية التى تلازم الكسر فى العربية .

أما الحركة الإعرابية فتسبق العلامة وهى A فى الرفع و E فى النصب والجر ، وهنا أيضا تطابق العربية من حيث الإعراب .

أما علامة التثنية للمؤنث فهى Tamai فى الرفع و Temai فى النصب والجر .

ويلاحظ أن علامة التثنية فى الأوكريتية تشبه علامة التثنية فى العربية تماماً من جهة ، وأن Amai تقابل (ان) فى الرفع ، و Emai, تقابل (ين) فى النصب والجر مع استبدال النون العربية بالميم فى الأوكريتية .

٣ – وعلامتها فى العبرية[٢] –ايم فى جميع الأحوال

(ַיִם) רַגְלַיִם

بالياء المكسورة (ֵ ִם)

٤ – وفى الآرامية[٣] – EN

٥– وفى الأكدية[٤] –AN فى الرفع و IN أو EN فى النصب والجر وبذلك جرت مجرى العربية فى إظهار الإعراب قبل النون مع إسكان ما بعدها .

وفى الفترات المتأخرة سقط حرف النون منهما كما ضعف التمييز بين حالات الإعراب فى المثنى الأكدى تدريجيا ؛ حتى طغت : ين على : ان .

٦ – أما علامته فى المعينية[٥] فهى (نى) مثل : معلينى ، وتعنى : عاليان .

٧ – وعلامته فى السبئية[٦] (ن) (آن) مثل : ثن ىمرن وتعنى : اثنان تمران[٧] .

وكأن إعراب المثنى بالألف فى اللهجات العربية القديمة له جذور فى السبئية حيث يكون المثنى باضافة (ان) للاسم وهى مرحلة متأخرة[٨] .

٨ – وعلامته فى اللغة الثمودية (ىن)[٩]

---

(١) تنتمى إلى المجموعة الشمالية الغربية
(٢) تنتمى إلى المجموعة الشمالية الغربية
(٣) من المجموعة الشمالية الغربية
(٤) من المجموعة الشرقية ، وانظر : صيغ المجموع فى اللغة العربية . د . باكيزة رفيق حلمى .
(*) Moscati and Others,P.q3.
(٥) لغة جنوبية عربية قديمة
(٦) جنوبية عربية قديمة
(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٧ / ١٠٨
(٨) المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية ١٣ غويدى .
(٩) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٧ / ٢١٢

٩ — وفى اللحيانية[١] ai (اى) فى حالة الجر والإضافة ، و (اين) و (و) فى حالة الرفع ، وتلحق هذه العلامات آخر الاسم . ومن أمثلة المثنى : قهرى : ومعناها : القاهرين .

١٠ — وفى اللهجات العربية المعاصرة يلزم المعنى الياء فى أية حالة إعرابية ، وشأنه ، فى ذلك شأن العبرية ، كما تظهر[٢] : الواو والنون ملحقة بالمثنى فى البابلية الحديثة مما يدل على وجود خلط بين جمع المذكر والمثنى ، على حين وجدت لاحقة المثنى فى اللغة البابلية التى خلفها حمورابى تشبه اللغة العربية الفصيحة[٣] .

١١ — وفى عربية النقوش أو العربية البائدة نجد فى نقش النمارة الذى عثر عليه بالشام ، وكتب شاهداً على قبر امرئ القيس بن عمرو وأرخ بشهر كسلول (تشرين الثانى — كانون الأول) من سنة ٢٢٣ من تاريخ بُصرى أى سنة ٣٢٨ للميلاد وفى السطر الثانى نجد (الأسدين) وهى مثناة مفعول به منصوب بالياء . والأسْد (الأزْد) قسمان : أزد شنوءة وأزد السراة فى الغرب ، وأزْد عمان فى الشرق[٤] .

جمع المذكر السالم

قال الزجاجى « ومن الجموع ما جاء على حد التثنية وهو أن تضم أسماء ببعضها إلى بعض ، متفقة الألفاظ ، فيزاد فى آخر واحد منها علامة الجمع فيعلم أن الجماعة كقولنا : الزيدون والعمرون . . وجعل هذا اللفظ لما بعد الاثنين فاشترك فيه القليل والكثير ، وربما اقتصرو به على ما دون العشرة وربما جاوز ذلك »[٥] .

ونرى أن إعراب الجمع هذا مر بأدوار تطورية ، وكل مرحلة لها ظروفها وصيغها التى تتلاءم معها ، ونلمس هذا التطور من خلال خلافات النحاة حول إعرابه . أيعرب بالحروف كما رآه قطرب والزجاج وغيرهما أم يعرب بحركات مقدرة على ما قبل هذه الحروف كما رآه الأخفش أم يعرب بحركات مقدرة على الحروف نفسها[٦] ، وإذا كان

(١) هى لغة شمالية عربية وانظر المرجع السابق ٧ / ١٦٣ . وانظر بحثا عنوانه « اللغة العربية » د . فؤاد حسنين — نشر بمجلة معهد البحوث والدراسات العربية عدد ٤

(٢) Grundriss der Akkadichen Grammatik, Wolfram. Von Soden, Rome, 1957

(٣) من مقال للأستاذ إدوار دروم فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٢ / ١٨٩ . بعنوان « اللغة العربية الفصحى ولغة حمورابى » .

(٤) الكتابة العربية والسامية ١٣١ د. رمزى بعلبكى .

(٥) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ١٢٨ تحقيق د . مازن المبارك . ط ٣ بيروت .

(٦) الهمع ١٦١ فما بعدها تحقيق د . عبد العال سالم .

النحاة يشترطون فيه أن يكون لعاقل[1] ، فإن شيوعه فى أصول غير عاقلة يشير إلى بدء مرحلة استعمال هذا الجمع ، فقد جمعت ألفاظ العقود من العدد على هذا الجمع ، وهناك ألفاظ ألحقها النحويون به وهى : أرضون ، وابلون ، أهلون عالمون ، وجاء منه كلمات ذات أصول ثنائية مثل : بنون ، قلون ، سنون . عضون[2] .

وما ألحق بجمع المذكر السالم يعرب بالواو رفعا وبالياء جر أو نصبا على لغة الحجازيين وعليا قيس ، والتميميون يجعلون الإعراب السابق بالحركات على النون الأخيرة ، كما يلتزمون الياء فى جميع الأحوال رفعاً ونصبا[*] وجرا ، فان نونت النون كانت لغة بنى عامر ، وإذا تنون فهى لغة عتيم[3] .

وفى الجمع لغات أخرى غير ما تقدم :

(أ) أن يجعل كغسلين فى التزام الياء وجعل الإعراب فى النون مصروفا .

(ب) أن يجعل كهرون فى التزام الواو وجعل الإعراب على النون غير مصروف للعلمية وشبه العجمة .

(ج) التزام الواو وفتح النون مطلقا[4] وقد ساق علماء العربية شواهد من التراث نظما ونثرا شمل تلك الحالات كما نجد شواهد كثيرة من القرآن : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابؤن والنصارى » فقد عزى الجمع بالواو على كل حال كما هنا وهى لغة بلحارث بن كعب[5] . غير أن النحاة يتأولون ذلك ويقولون : حقه أن ينصب[6] .

أما حركة النون فى الجمع وما ألحق به :

فهى مفتوحة فى الفصحى ، وأحيانا مكسورة ، فقيل لغة وقيل ضرورة وقيل ذلك خاص بحالة الياء بخلاف حالة الرفع ، وقد ورد فى التراث شواهد[7] لذلك .

وتحذف النون للإضافة ، وقد تحذف فى غير ذلك ، وخرج عليها فى القرآن :

« والمقيمى الصلاة » بالنصب (الحج ٣٥) « غير معجزى الله » بالنصب التوبة ٣ (« وقراءة الأعمش » وما هم بضارى به » البقرة ١٠٢) أى : بضارين . « لذائقوا العذاب » بالنصب (الصافات ٣٨) .

---

(١) شرح الكافية الشافية ١ / ١٩١

(٢) الهمع ١ / ١٥٥ فما بعدها . تحقيق د . عبد العال سالم .

(٣) التصريح ١ / ٧٦ فما بعدها ، وانظر كتابنا : اللهجات العربية فى التراث المستوى النحوى .

(٤) شرح الكافية الشافية ١–١٩٤ فما بعدها (٥) التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى ٥٢ ، ٤ تحقيق البجاوى .

(٦) مجاز القرآن ١ / ١٧٢ لأبى عبيدة (٧) المرجع السابق ١/ ٢٠٠ ، وشرح التسهيل لابن عقيل ١ /٤٥

* ولعل لذلك صلة بميلهم نحو الإمالة ، ولهجتنا فى مصر تلتزم الياء فى جمع المذكر وما ألحق به فهى تشبه فى هذا لهجة تميم .

كما حذفت لغير إضافة فى الشعر مثل :

ولسنا إذا تأبون سلما بمذعنى ،
لكم غير أنا إن نسالم نُسالم

أى بمذعنين[1] .

وقول الآخر :

لو كنتم منجدى حين استعنتكم
لم يقدموا ساعداً منى ولا عضدا[2]

* * *

فإذا انتقلنا إلى علم المقارنات السامية فى جمع المذكر وجدنا :

١ - فى العربية ون : فى الرفع ون-ين فى النصب والجر .

٢ - فى الأوكريتية[3] : وهى أقرب اللغات السامية إلى العربية ، إذ إن علامة جمع المذكر السالم فيها wma أو -ومَ فى الرفع و- Ima أو - يمَ فى النصب والجر مع استبدال النون العربية بالميم .

ووجه الشبة بين اللغتين :

(أ) علامة الإعراب فى العربية تسبق علامة الجمع وهى : الواو فى الرفع والياء فى النصب والجر .

(ب) نهاية علامة الجمع تلازم الفتح فى العربية كما تلازمها فى الأوكريتية .

(ج) علامة الجمع تكون على صورتين إحداهما بالواو للرفع والأخرى بالياء للنصب والجر .

(د) تشير علامة الجمع (م) فى الأوكريتية إلى شبيهتها فى العبرية التى تكون (يم) فى جميع الأحوال .

٣ - أما الأكدية[4] والآشورية فعلامة جمع المذكر على صورتين :

(أ) Anw للرفع وتقابل - ون العربية ، إلا أن الأكدية تظهر حركات الإعراب على آخر النون وتلازم ما قبلها الفتح ، أما العربية فبالعكس .

(ب) Ani للنصب والجر ، وتقابل - ين العربية مع إظهار الحركة على آخر النون ولزوم ما قبلها الفتح بعكس العربية ، وأحيانا نجد الواو علامة الحالات الثلاث فى الأكدية القديمة والوسطى .

(ج) وفى البابلية : الواو والنون رفعا والياء نصبا وجرا[5] ومعنى ذلك أن اللغتين البابلية والعربية تشتركان فى أدق وأقدم الظواهر السامية مثل التثنية والجمع .

٤ - أما فى الآرامية والسريانية ففى جمع المذكر تكون in أى بالياء قبلها وتشبه فى ذلك

---

(١) شرح التسهيل لابن عقيل ١ / ٤٦ (٢) الهمع ١ / ١٦٩ تحقيق عبد العال سالم .

(٣) انظر صيغ الجموع فى اللغة العربية مع بعض المقارنات السامية . د . باكيزة رفيق حلمى . ط الأديب البغدادية ١٩٧٢

(٤) فى قواعد الأكادية انظر : فون سودن : روما ١٩٥٢ م .
Grundriss der akkadischen Grammatik. W. Von Soden.

(٥) مجلة مجمع اللغة العربية ١٢ / ١٨٩ - ١٩٠

العبرية مع استبدال الميم العبرية بالنون وسكون الآخر ، شأن بعض اللغات السامية وبعض اللهجات العربية المعاصرة ، حيث لا تستخدم حالة الرفع ، وربما يرجع ذلك إلى سهولة صوت الكسرة عن الضمة ، وتحذف النون في حالة التركيب ، ولدينا آثار من الجمع بالياء والنون في أسماء الأماكن الآرامية .

٥ – أما في الحبشية فعلامة الجمع AN وهي تلازم حالة واحدة وربما كانت هذه الألف أقرب إلى الواو أوه في مرحلة ما ثم تطورت إلى الألف وهي تقابل IN في الآرامية و ـــِـ ם في العبرية و ـــُـون و ـــِـين في العربية .

٦ – وفي العبرية يضاف (يم) إلى نهاية المفرد المذكر . ولدينا جموع عبرية بالياء والنون وردت في أسفار العهد القديم المتأخرة وفي نصوص شعرية[1] .

٧ – وفي السبئية[2] يلحق آخر الاسم (ن) ويرجح غويدى أن تكون حركاته موافقة لحركات نون الجمع العربي أي (و ن) في الرفع و(ين) في النصب والجر .

٨ – وفي اللحيانية والثمودية والصفوية[3] نجد علامة جمع المذكر فيها un و IN وهي في ذلك كالعربية تماما . وأحيانا نرى العلامة Ay كنهاية للجمع . ونون الجمع تسقط فيها للإضافة ويقول بعض الباحثين[4] : إننا لا نستطيع تعيين حركة النون لعدم وجود الشكل والعلامات التي تعين الحركة داخل الكلمة فلا ندري أكانوا ينطقون بها : ون un أو ين in أم كانوا ينطقون به بصورة واحدة ؟ .

ومثاله : أصدقن – وتعني : أصدقون أو أصدقين – جمع أصدق .

٩ – كما يختم المذكر السالم بالميم عند العرب الجنوبيين مثل (حميرم) يعني : الحميريون و (أزدم) يعني : الأزديون[5] .

١٠ – وفي نقش جاهلي قديم وهو (النمارة)[6] يوجد في السطر الثالث (ونزل بنيه) وهو ملحق بجمع المذكر السالم ، مفعول به منصوب بالياء ، كما يلاحظ حذف النون من المضاف والأصل : بنينه ، فلما حذفت النون صارت (بنيه) وتلك قاعدة هامة في العربية الفصحى أيضا .

---

(١) فقه اللغة المقارن ١٤٤ د . إبراهيم السامرائي بيروت ط ٢ – ١٩٧٨

(٢) المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ١٣ . أغناطيوس غويدى . القاهرة ١٩٣٠ م

(٣) وهي لغات عربية شمالية بائدة .

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧ / ١٦٤ جواد علي .

(٥) لهجات اليمن قديما وحديثا : ص ١٧ لأحمد حسين شرف الدين ١٩٧٠ / ط الجبلاوى

(٦) انظر : تاريخ اللغات السامية ١٩٣ ولفنون ، وتاريخ الأدب ٥٩ – ٦٠ حفني ناصف ، القاهرة والتاريخ العربي القديم ، هومل وآخرين ، ترجمه د . فؤاد حسانين . القاهرة ١٩٥٨ . والكتابة العربية والسامية ١٣٨ د . رمزي بعلبكي وسترى في هذا الكتاب الأخير قراءات أخرى لهذا النص .

الأفعال الخمسة

فى العربية ترفع بالنون ، وتنصب وتجزم بحذفها ، وحمل النصب على الجزم ، كما حمل على الجر فى المثنى والجمع ، هذا مذهب الجمهور .

وقيل : إن الإعراب بالألف والواو والياء كما أنها فى المثنى والجمع السالم كذلك .

ورده صاحب البسيط بأنه لو كان كذلك لثبتت النون فى الأحوال الثلاثة .

وقيل : الإعراب بحركات مقدرة قبل الثلاثة والنون دليل عليها ، وعليه الأخفش والسهيلى .

ورده ابن مالك بعدم الحاجة إلى ذلك مع صلاحية النون له .

وقيل : إنها معربة ، ولا حرف إعراب فيها ، وعليه الفارسى قال : لأنه لاجائز أن يكون حرف الإعراب النون ، لسقوطها للعامل ، وهى حرف صحيح ، ولا الضمير لأنه الفاعل ، ولأنه ليس فى آخر الكلمة ولا ما قبله من اللامات الملازمتها لحركة ما بعدها من الضمائر من ضم وفتح وكسر ، وحرف الإعراب لا يلزم الحركة ، فلم يبق إلا أن تكون معربة ، ولا حرف إعراب فيها [1] .

ويرى بعض الباحثين أن النون فى (يفعلان) وما على مثالها ، للحفاظ على علم التثنية والجمع والتأنيث ، فلو حذفت النون لتعرض ذلك كله للحذف أو التغيير ، فتضيع الدلالة عليه ، فالنون إذن فى هذه الأفعال الخمسة إنما هى لوقاية الألف والواو والياء من الحذف أو التقصير لا للدلالة على أنها معربة مرفوعة ، والعربية حريصة على إظهار النوع والعدد ، ولهذا جاءت بالنون لإشباع الألف والواو والياء ، ففى إعراب هذه الأفعال يكتفى بالإشارة إلى ما لفاعله من صفة العدد أو النوع . أما الزمان فيشار إليه (بلم وأن)[*] .

النون فى الأفعال الخمسة :

ورد حذف النون حالة الرفع فى النثر والنظم :

١ ــ قرىء : « قالوا ساحران يظّاهرا » القصص ٤٨ [2] .

٢ ــ قال « أتحاجونى فى الله » الأنعام ٨٠ ، وذهب سيبويه أن المحذوف نون الرفع [3]

---

(١) الهمع ١ / ١٧٦ تحقيق د . سالم وانظر : الإنصاف ١ / ٣٩

(٢) وانظر حاشية الصبان ١ / ٩٧

(٣) الكتاب ٣ / ٩٩ والكافية الشافية ١ / ٢٠٨

(*) فى النحو العربى ١٣٧ د . مهدى المخزومى . بيروت ١٩٦٤ .

وقد عزيت هذه اللهجة إلى قبيلة غطفان[1].

٣ – وفى الصحيح : لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا »[2].

والأصل : لاتدخلون ولا تؤمنون ، لأن لا : نافية .

٤ – أبيت أسرى وتبيتى تدلكى
وجهك بالعنبر والمسك الذكى[3]

والأصل : تبيتين وتدلكين – فحذف النونين دون ناصب أو جازم .

٥ – فإن يك قوم سرهم ما صنعتم
سيحتلبوها لاقحاً غير باهل

فحذف النون

وعندى أن حذف النون فى الأصل يدل على أن الفعل لم يتم أو لم ينفذ ، بعكس بقاء النون فيه والذى يدل على تنفيذه الفعل وتمامه .

كما ورد إثبات النون فى حالة النصب فى النثر والنظم :

١ – فى الحديث : « قلت يارسول الله – إنى امرأة أشد ضَفر رأسى ، أفأنقضه لغُسل الجنابة ؟ قال : لا ، إنما يكفيك أن تحثين على رأسك ثلاث حثيات من ماء ثم تفيضين على سائر جسدك » .

فالمضارع مرفوع بعد أن المصدرية فى مكانين من هذا الحديث .

٢ – أن تقرآن على أسماء ويحكما
منى السلام وأن لا تشعرا أحدا

٣ – إنى زعيم يانويقة إن نجوت من الرزاح
أن تهبطين بلاد قوم يرتعون من الطلاح

٤ – إذا كان أمر الناس عند عجوزهم
فلا بد أن يلقون كل يبـاب

٥ – ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح

أبى الناس ويح الناس أن يشترونها
ومن يشترى ذاعلة بصحيح[4]

ويذهب الزمخشرى إلى أن الرفع بعد (أن) المصدرية لغة[5] .

---

(١) البحر ٤ / ١٦٩ . وانظر كتب القراءات فى « فبم تبشرون » الحجر آية ٥٤ وفى « تأمرونى » سورة الزمر ٦٤ وانظر المنصف ٢ / ٣٣٨ حيث يرى أن المحذوف هى نون الرفع . وانظر ابن يعيش ٣ / ٩١ وشواهد التوضيح والتصحيح لابن مالك فى حذف نون الرفع لمجرد التخفيف ١٧٠ ومغنى اللبيب ٢ / ٣٤٤ لابن هشام . تحقيق الشيخ محيى الدين

(٢) أخرجه مسلم فى باب الإيمان ٩٤ وانظر أحاديث أخرى فى شواهد التوضيح ١٧١

(٣) الهمع ١ / ١٧٦ والكافية الشافية ١ / ٢١٠

(٤) انظر كتابنا : اللهجات العربية فى التراث : القسم الثالث (فى النظام النحوى) .

(٥) خزانة الأدب ٣ / ٥٦٠ للبغدادى ط بولاق .

حركة النون :

الأصل في هذه النون السكون . وإنما حركت لالتقاء الساكنين . فكسرت بعد الألف على أصله وفتحت بعد الواو والياء طلبا للخفه ، لاستثقال الكسر بعدها ، وقيل تشبيها للأول بالمثنى والثاني بالجمع .

وقد تفتح بعد الألف أيضا ، قرئ : «أتعدانَنِي أن أخرج[1] » بفتح النون ، وقرأ بها عبد الوارث عن أبي عمرو[2] ، وقال العكبري هي لغة شاذة ، وحسنت هنا لكثرة الكسرات[3] وفي إعراب النحاس[4] : وفتح هذه النون لحن .

وقد تضم وقرئ : « طعام ترزقانُه » بضم النون[5] .

* * *

فإذا انتقلنا إلى المقارنات السامية :

١ — في السريانية قد استقرت على صيغة واحدة ، حيث تنتهي بالنون : تقتلون ، وتقتلين .

٢ — كما استقر الأمر في العبرية على صيغة أخرى ، حيث كانت بغير النون[6] :

תִּקְטְלוּ (تِقْطلو) ،

תִּקְטֹלְנָה (تِقطلِي)

وفي القتبانية نجد الفعل المضارع المسند إلى جماعة الذكور الغائبين نجده : يفعلو (يقتلو) ويضاف إلى آخره النون فيكون : يفعلن . يفعلون (يقتلن) (يقتلون) [7] .

وقد اشتملت بعض نصوص التوراة على عدة أمثلة وردت فيها النون ، واعتبرت من بقايا مراحل قديمة ، فإذا نظرنا إلى كتابنا الكريم وجدنا الآيات الآتية :

(ا) «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق[8]

قرأ ابن مسعود : « وتكتمون »[9] .

(ب) « فإذن لا يؤتون الناس نقيرا »[10] قرأ ابن مسعود وابن عباس وأبي : لا يؤتوا »[11] .

---

(١) الأحقاف ١٧

(٢) مختصر شواذ القراءات ١٣٩ لابن خالويه .

(٣) إملاء ما من به الرحمن ٢ / ٢٣٤ للعكبري .

(٤) ٣ / ١٥٢

(٥) الهمع ١ / ١٧٧ تحقيق د . سالم .

(٦) من أسرار اللغة ٢٧٣ د . إبراهيم أنيس ط السادسة .

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧ / ٩٧ د . جواد علي .

(٨) البقرة ٤٢ (٩) البحر ١ / ١٨٠ (١٠) النساء ٥٣

(١١) مختصر شواذ القرآن ٢٧ لابن خالويه ، والبحر ٣ / ٢٧٣ ومعاني الفراء ١ / ٢٧٣ وتفسير الرازي ٣١ / ٢٥٣

(ج) : « وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا »[١] وفى قراءة ابن مسعود وأُبى « لا يلبثوا »[٢].

(د) : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون[٣] إلا الله » وفى قراءة أبى وابن مسعود « لا تعبدوا »[٤] على النهى. قال الفراء وجماعة : المعنى — أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله وبأن يحسنوا للوالدين ، وبألا يسفكوا الدماء. ثم حذف : أن والباء فارتفع الفعل لزوالهما .

قال المبرد : هذا خطأ ، لأن كل ما أضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرا .

وقال القرطبى : ليس هذا بخطأ ، بل هما وجهان صحيحان وعليهما أنشد سيبويه :

ألا أيها ذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

بالنصب والرفع فالنصب على إضمار (أن) والرفع على حذفها[٥] .

(هـ) : « وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم »[٦] « لا تسفكون » مثل « لا تعبدون » فى الآية السابقة .

وبعد هذه المقارنات بين العربية وأخواتها الساميات فى لاحقة المثنى والجمع يظهر :

١ — أن نهايات المثنى فى الساميات كانت مكونة من حركة طويلة أو مركبة + يم فى العبرية ، أو نون فى سائر اللغات السامية الأخرى وتسقط الميم أو النون فى الإضافة ، وتكون ساكنة فى اللغات السامية باستثناء العربية الشمالية حيث تكون مكسورة أو مفتوحة أو مضمومة نادرا .

وقد تكون الحركة السابقة للميم أو النون مركبة كما فى العبرية

[illegible]

والعربية ين (للنصب والجر) وقد تكون طويلة كما فى العربية الشمالية تان (للرفع) والأكادية ān للرفع . ولا يعرب المثنى إلا فى العربية الشمالية والأكادية حيث تستعمل نهايتان إحداهما للرفع والأخرى للنصب والجر .

---

(١) الإسراء ٧٦

(٢) البحر ٦ / ٦٦ ومختصر شواذ القرآن ٢٧ لابن خالويه ، والكشاف ٢ / ٤٦٢ ، وتفسير الرازى ٢١ / ٢٤ وانظر : شرح الكافية ٢ / ٢٣٨ وشرح التصريح ٢ / ٢٣٥

(٣) البقرة ٨٣

(٤) مختصر شواذ القرآن ٧ والبحر ١ / ٢٨٢ والكشاف ١ / ٧٩ ومعانى الفراء ١ / ٤٩ وتفسير الرازى ١ — ٤٠٥

(٥) تفسير القرطبى (سورة البقرة).

(٦) البقرة : ٨٤

٢ — كما تختلف نهايات الجمع السالم فى الساميات ،وهى مكونة من حركة طويلة + ميم فى العبرية ونون فى سائر الساميات الأخرى . وفى الأكدية تستعمل الحركة الطويلة نهاية للجمع (ū للرفع و ī للنصب والجر) ويعرب هذا الجمع فى العربية الشمالية والأكدية حيث تستعمل نهاية للرفع وأخرى للنصب والجر .

٣ — كما وضحنا فيما سبق آراء علماء العربية فى علامة المثنى والجمع ، وإعرابهما ، وفى النون اللاحقة بكل منهما . وكما اختلف علماء العربية فيما سبق،اختلف المستشرقون كذلك حيث ذهب بعضهم أن عنصر الجمع السالم هو مد حركة إعراب المفرد ، وبذلك نشأت فى اللغات السامية النهايات ūn و in و ān التى استعملت كنهايات للمثنى وجمع المذكر السالم دون مراعاة للحالة الإعرابية التى تدل عليها حركة المفرد . وذهب نفر منهم إلى أن النهايات الأصلية للمثنى والجمع السالم كانت ā للمثنى المرفوع و ū للجمع المرفوع و i للجمع المنصوب أو المجرور و ai للمثنى المنصوب والمجرور . كما حاول بعضهم تفسير اختلاف دلالات النهاية ām فى الساميات ، فهى تكون نهاية للمثنى فى العربية الشمالية والأكدية ، ونهاية الجمع المذكر السالم فى الحبشية كما ذهب بعضهم أنها كانت فى الأصل نهاية عامة للجمع ،غير مرتبطة بالجنس[1] .

كما ذهب بعض الباحثين « أن أصل هذه اللواحق كانت كلمات قائمة بنفسها ثم تحولت إلى آلات نحوية بتحويل الكلمات المليئة إلى كلمات فارغة ، فالأدوات النحوية التى تستعملها اللغات ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قديمة ، أفرغت من معناها الحقيقى ، واستعملت مجرد موضحات ، أى مجرد رموز[2] » والحقيقة أن هذه اللواحق ماهى إلا رموز للتثنية أو الجمع وليست فارغة من الدلالة كما يتصور ، بل استعملت كدلالات صوتية نستدل من خلالها على فهم الباب النحوى وتحديده .

ويرى نفر من العلماء أن هذه الزيادات واللواحق — إنما هى اعتباطية وغير منضبطة. والحقيقة أنها لم تكن اعتباطية ولا عشوائية ، وإنما بدأت غير مستقرة وقلقة ثم سارت رويدا رويدا نحو الاستقرار ، وأصبح لها مقاصد وأهداف .

ويرى بروكلمان أن نهايات المثنى والجمع السالم متطورة عن نهايات أسماء المعنى مثل

(١) اقتبست هذا من : التثنية والجمع فى اللغة العربية : فاروق جودى . رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ١٩٦٥ كلية الآداب . جامعة القاهرة .

(٢) التطور اللغوى ٩٧ د . رمضان عبد التواب . ط الخانجى والرفاعى .

جموع التكسير ومما هو جدير بالذكر أن علامات جمع التصحيح جرت مجرى نهايات الضمائر وأسماء العدد ، فالعربية تجمع الضمائر بالنون تارة والميم أخرى مثل : نحن ، أنتن ، هن ، وهى تدل على الجمع وتختلف عن المفرد بزيادة النون ، أما ضمائر الغائبين والمخاطبين فهى : هم ، وأنتم ، وهما بالميم بدل النون ، كما أن ضمائر التثنية : هما . وأنتما بالميم ، ومعنى ذلك أن العربية تجمع بين العلامتين : النون والميم فى استعمالها للدلالة على التثنية والجمع .

أما العبرية فيغلب فيها استعمال الميم للدلالة على التثنية والجمع ، بعكس الآرامية التى يغلب فيها النون . فاللغات التى تستعمل الميم فى الضمائر للدلالة على الجمع تستعملها فى جمع الأسماء أيضا كما أن اللغات التى تستعمل النون للدلالة على الجمع فى الضمائر تستعملها أيضا فى جمع الأسماء . وقس على ذلك صيغ العقود وألفاظ العدد[1] .

أما الميم والنون فى نهايات المثنى والجمع السالم ، فهى نون (التنوين) وميم (التمييم) ولكن أيهما أقدم ؟ فبعضهم يرى أن الميم هى الأصل وأن النون متطورة عنها ، وآخرون من المستشرقين يرون أن النون هى الأقدم ، كما يرى فريق آخر أنهما نشأتا معاً فى اللغات السامية ، دون أن تتطور إحداهما عن الأخرى ، والعلاقة الصوتية قوية بين الميم والنون كما أن الميم تؤدى وظيفة النون فى اللهجات الجنوبية ، كما نجد الميم فى نهايات الجموع المذكرة والمثنى فى الأوكريتية .

وقد بقيت فى العربية بقايا من التمييم عوملت الميم فيها معاملة الحرف الأصيل بعد أن بعد العهد باستعمالها القديم مثل : شدقم . شهرم . ابنم . شجعم . حلقوم . زنيم . زرقم . خضرم . بلعوم . ومعروف كذلك قلب الميم نونا فى العربية مثل : دخشم ودخشن ، بنان وبنام[2] ، وفى اللهجة اللبنانية الحديثة يقولون : كتابكن كتابكم ، فميم الجمع أصبحت نونا .

* * *

وفى النهاية :

فى ما سبق من المقارنات بين العربية والساميات مايؤكد أن هذه اللغات مرت بأدوار تطورية ، وكل دور منها يختلف عما قبله ، وظهر هذا فى لواحق المثنى والجمع والأسماء الستة والأفعال الخمسة ،

---

(١) الجموع فى اللغة العربية ٢٣٩ ، ٢٥٤ د . باكيزة حلمى

(٢) زيادة الميم فى بعض كلمات اللغة . الشيخ عبد القادر المغربى (مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق م ٣ ج ٣ سنة ١٩٢٣) .

وبعض الأدوار فيها أسرع وبعضها الآخر تلكأ أو جمد لظروف اجتماعية أو غيرها ، كما أن الإعراب بالحروف لم يوجد دفعة واحدة ، بل تطور فى أدوار ، فوجد الألف أو الواو أو الياء ، ثم بعد فترة وجدت النون ، ودليل ذلك :

١ ــ هما خطتا اما إسار ومنّة
وإما دمٌ والقتل بالحر أجدر

٢ ــ خليليّ ماإن أنتما الصادقا هوىً
إذا خفتما فيه عذولا وواشيا

فقد أجهد النحاة أنفسهم فى التخريج والتأويل ، وأن النون حذفت للإضافة المقدرة فى الشاهد الأول ، كما حذفت النون فى الشاهد الثانى للاقتصار ، والحقيقة أن هذه الحالة كانت طريقة الأداء الأولى فى التعبير بالمثنى ، وبعض النحاة لمس هذه الحقيقة عندما رأى أن حذف النون جاء على لغة بعض القبائل لغير مايستدعى حذفها ؛ كالإضافة فعدم وجود النون كان مرحلة من المراحل فى المثنى لم يتنبه له بعض النحاة .

كما لا شك فيه أن الإعراب بالحركات كان أولا ثم تطور إلى الإعراب بالحروف ، ثم مر دور اجتمع فيه الإعراب بالحركات مع الإعراب بالحروف ، ومن ذلك ما روى عن السيدة فاطمة رضى الله عنها : ياحسنانُ وياحسينانُ ، وهى ولاشك لغة بعض القبائل .

ومن التطور فى ملحق الجمع السالم تستطيع أن تأخذ شاهدا واحدا من التراث لتجد فيه خلافات القبائل العربية[1] وموقف النحاة منها ورصد مظاهر هذا التطور ، وتحديد موقعه الزمنى أمر نافع فى إعادة بناء النحو وتخليصه من ذيول الخلاف وتعدد الوجوه ، ويمكن أن تدرس هذه الشواهد على هدى من طفولة اللغة ونضوجها . على أن الساميات ومنها العربية لم تلتزم بنظام علامات الإعراب من حركات وحروف إلا فى مرحلة نضجها أما فى مراحلها الأولى فكانت غير منضبطة[2] تماما ، يؤكد ذلك ما يفترضه Wright من أن التثنية كانت تقسم بإلحاق واو ونون فى حالة الرفع وألف ونون فى حالة النصب وياء ونون فى حالة الجر ، وأن هذه العلامات تقلصت إلى الاثنتين المعروفتين[3] .

---

(١) انظر : شواهد : سنين – وما ورد فيها من الإعراب فى : معانى الفراء ٢ / ٩٢ و البحر ٥ / ٤٥٦ والهمع ١ / ١٥٩ تحقيق سالم . وشرح التصريح ١ / ٧٦

(٢) اللغة والنحو ٥٧ د . حسن عون . ط أولى

(٣) Lecture on the Comparative Grammar of the Semitic Languages P. H 9.

ويمكن أن نفترض إلزام المثنى الألف فى الحالات كلها على لغة بالحارث بن كعب تقلصا آخر[*] .

ومن هذا مانجده فى الأعداد من (٢٠ — ٩٠) فالأصل فى لفظ عشرين وهو ملحق بالجمع السالم — أن يكون مثنى ، وذلك لأن العشرين ضعف العشرة ، لكن صيغة المثنى هذه لم تثبت أمام صيغة الجمع التى نجدها فى ثلاثين وما بعدها حتى تسعين وثلاشت صيغة المثنى وحلت محلها صيغة الجمع ، وشأن العربية فى هذه الظاهرة شأن العبرية والآرامية مثل ([illegible]) (عِشريم) وفى الآرامية : عسرين لكننا نجد العكس فى كل من الحبشية والأكادية إذ نجد صيغة المثنى هى التى سادت وعممت فى أسماء سائر الأعداد حتى التسعين مثل : [illegible] (عشرا)[١] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن بعض القبائل العربية اتخذت (آن) لاحقة للجمع أيضا يؤكد هذا ماجاء عنهم « مرت بنا غلمان سودانٌ وسود » معانى الفراء ٣ — ١١٢

ومن ذلك أننا نرى ألفاظا بصيغة الجمع وهى للمثنى كقولهم : فلان عظيم المناكب ، ورجل غليظ الحواجب . وليس للإنسان إلا منكبان وحاجبان ، ومن ذلك قوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » بلفظ الجمع ، ولهما قلبان .

كما يمكن تسجيل درجات التطور فى صيغة لهجية لقبيلة عربية وهم (بنو الحرماز) من تميم فقد كانوا يلزمون صيغة مَقْتوين[٢] الياء والنون مع المفرد مذكرا كان أو مؤنثا ومع المثنى والجمع بنوعيها فجعلوا حركات الإعراب تتعاقب على النون فقالوا : هذا رجل مَقْتوينٌ وامرأة مَقْتوينٌ ورجلان مَقْتوينٌ وامرأتان مقتوينٌ ورجال مَقْتوينٌ ونساءٌ مَقْتوينٌ .

أما عامة العرب باستثناء (بنى الحرماز) فقالوا فى المفرد هذا رجل مَقْتوِيٌّ ورجلان مَقْتويان وفى الجمع مقْتوون بالرفع ، ومقتوين بالنصب والجر .

(*) ومن تقلص الحركات الإعرابية أن الحركة الواحدة تقوم بوظيفتين ، كما فى الممنوع من الصرف (الفتحة) وجمع المؤنث السالم (الكسرة) .

(١) العدد فى اللغة العربية . د . فؤاد حسانين . مجلة كلية الآداب ج ١٢ ديسمبر ١٩٥٠ وانظر :
Uman, Ethiopic Grammar. Translated by. James A. Grchton. P 290, 291. London, 1907.

(٢) معناها : الخدام . وفى الصحاح ٦ / ٢٤٥٩ « وهم الذى يعملون للناس بطعام بطونهم »

(فالحرمازيون) خالفوا العرب عامة فى كون النون معتقب الإعراب كما حذفوا ياء النسب فى مقتوى .ويقول سيبويه فى ذلك : « وليس كل العرب تعرف هذه[1] الكلمة » أما شاهد لغة عامة العرب تقول شمر : « المقتوون : الخدم. واحدهم مَقْتَوِىّ وأنشد :

أرى عمرو بن ضمرة مَقْتَوِيًّا

له فى كل عام بكرتانِ

ولقد علل الرضى مخالفة (بنى الحرماز) لبقية العرب فى هذه الصيغة ، ولعل تعليله هذا يبرر موقف بنى الحرماز من استعمال تلك الصيغة الشاذة[2] على أن كثرة الشذوذ التى كثرت فى هذا الباب مردها إلى تدرج اللغة وتطورها .

كما يمكن لمح درجات التطور فى لواحق الجمع وما أشبهه فى شرط النحاة لجمع المذكر « أن يكون عاقلا[3] » وبالنظر لآيات القرآن المعجز نراها قد تضمنت أبنية لجمع المذكر السالم لغير العقلاء من ذلك :

١ – « والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين»

٢ – « قالتا آتينا طائعين » ٣ – « لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين » .

كما نجد ألفاظاً كثيرة تفتقر إلى العقل الذى يشترط لجمع المذكر السالم – نجدها جمعت بالواو والنون والياء والنون، كإعراب الجمع السالم[4] ، ومن ذلك ألفاظ العقود[5] ، كما أن جمع المذكر السالم فى كل من الحبشية والأكادية والعبرية والسريانية وغيرها لا يصاغ للعقلاء وحدهم ، بل يشمل [غير العقلاء :

(أ) فى العبرية تجمع אַיִל (ayil . خروف)

على אֵילִם (ēlim خراف)

كما تجمع כֶּבֶשׂ

(Kebes كبش) على כְּבָשִׂים

(Kvāshim كباش)

(ب) وفى الحبشية تجد hadas حديث أو جديد وجمعها hadasan

---

(١) الكتاب ٢ – ١٠٣

(٢) انظر النحو والصرف بين التميميين والحجازيين د . الشريف عبد الله الحسنى : رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة بجامعة أم القرى . وانظر صيغة أخرى لأعرابى من قبيلة (غنى) . وآخر لأعرابى (قيس) فى بحثنا بمجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى بمكة المكرمة عدد ٦ وعنوانه «دراسة حول ثلاثة مصطلحات فى دراسة اللهجات» ص ٨٣ هامش .

(٣) انظر كتب النحو العربى

(٤) الهمع ١ / ١٥٥ فما بعدها . تحقيق د . سالم .

(٥) المرجع السابق ١ / ١٥٦

(ج) وفى الأكادية تجمع alu «مدينة» alamu مُدُن .

فهذا وغيره يؤكد عدم وضع جمع المذكر السالم للعقلاء أصلا[1] كما يرى ذلك علماء النحو العربى – أما الواو والنون أو الياء والنون فهى تدل على جمع العقلاء وغيرهم كما سبق ذلك فى العربية والساميات ، ثم تطور هذا الجمع فى العربية أخيراً وتخصص للعقلاء .

وهناك تعليلات كثيرة فى كتب النحو لما حذفت لامه وكان مؤنثاً وكان لام الفعل حرف علة ، وجمع بالواو والنون أو الياء والنون مثل : ثبة وظبة ومئة ورئة وسنة وعضة وعظة وعزة ، فقد قالوا « فإذا أدخل فى جمع – الواو والنون – شئ ما ليس مذكراً عاقلا ، مثلما ذكرت لك فإن ذلك كما يقول ابن جنى حظ نالته تلك الألفاظ ، وفضيلة خُصت بها ، فلهذا صار جمع ثبة ومئة وسنة ونحو ذلك بالواو والنون تعويضاً لها من الجهد والحذف اللاحق بها » .[2]

وبعضهم يعلل هذه المؤنثات السابقة بالواو والنون فقال : إنما جمعت أرض بالواو والنون فقيل : أرضون عوضاً عن حذف تاء التأنيث ، لأن الأصل أن تقول فى أرض : أرضة فلما حذفت التاء جمعت بالواو والنون عوض عنها كما يرى ابن جنى أنهم جمعوا هذه الألفاظ جمع مذكر سالماً ، وإن كانت الواو للمذكر العاقل ، وهذه مؤنثة غير ذات عقل ، ولكنهم فعلوا ما فعلوا توسعاً ، وعلى ضرب من التأويل ، فإن جاء له نظير فقد عرفت طريقة ، وإن لم تسمع له نظير لم تقس عليه غيره ، لأنه لم ينفذ فى بابه[3] .

والمعروف فى جمع هذه الصيغ أن تكون بالألف والتاء ؛ قالوا فى سنة (سنوات) وفى ثبه (ثبات) وقلات ومئات هذا هو الوجه فى جميعها ؛ لأنها أسماء مؤنثة بالتاء . ومال بعض العلماء فى علة جمع أرض على (أرضون) أن ذلك على سبيل الاستعظام كقول الشاعر :

لقد ضجت الأرضون إذ قام من بنى
سدوس خطيب فوق أعواد منبر

---

(١) مشكلات لغوية ٧٨ د . شوقى النجار . ط أولى . تها.ة م

(٢) مشكلات لغوية ٨٨ نقلا عن سر صناعة الإعراب ٢ / ٤٥٦ مخطوطة برقم ١٩٧ لغة تيمور وانظر :
Palmer E.H.,A.Grammar of Arabic Landuage P. 107. London, 1984 .
ولمع الأدلة فى أصول النحو ١٣٤ للأنبارى . تحقيق سعيد الأفغانى – ط الجامعة السورية

(٣) مشكلات لغوية ٩٢ نقلا عن : سر صناعة الإعراب ٢ / ٤٦٨ .

كما علل ابن جنى (١) جمع تلك الملحقات المؤنثات بالواو والنون لغرض قصدوه قصداً ، وهو إعلام السامع أن هذه الكلمات ليست كغيرها مما لم يجمع بالواو والنون من المؤنث ، وإن ذلك عادة عندهم متى أرادوا أن يعلموا اهتمامهم بأمرو عنايتهم بهأخرجوه عن بابه ، وأزالوه عما عليه نظائره .

وخلاصة ما سبق أن اللغات العربية والساميات أخواتها ، مرت بمراحل كانت الواو والنون فيها لاحقة تدخل على المؤنث والمذكر على السواء ، وما كانت هذه اللاحقة تعنى جنساً ، وإنما كانت تعنى الجمع أو الكثرة (٢) ، ثم بعد ذلك بفترات تاريخية طويلة تحددت هذه اللواحق لإفادة معنى الجمع والكثرة فى الذكور وحدهم ، وبعد فترة زمنية خصصت العربية هذه اللاحقة بالعقلاء المذكرين دون غيرهم ، ومعنى هذا أن اللغة العربية ترقت ترقياً كبيراً ، واكتمل فيها مالم يكتمل فى أخواتها الساميات ، وحفظت لنا صورا أكثر من أخواتها وأنضج ، لتغطية الأحداث والمتطلبات فينميها العربي حين تضطره الحاجة إلى ذلك لتحمل معانى حضارية تدل على الاستقرار واتساع الحياة . والحقيقية أن العربية حين تبنت هذه اللواحق ، قد استعانت بها لإتمام ثروتها اللغوية بحيث تؤدى كل لاحقة المعنى المراد ، وكانت بمثابة المفاتيح التى لا تقل عن المفاتيح الموسيقية ، وذلك حين عبرت كل لاحقة منها عن أداء مميز ومعنى ثابت وقيمة تعبيرية .

---

(١) مشكلات لغوية ٩٤

(٢) فى العربية والعبرية والسريانية كثير من المونثات جمعت جمعا مذكرا فى العبرية נְמָלָה
n'mālā نملة . وجمعها נְמָלִים n'malim
מִלָּה بمعنى كلمة وتجمع على מִלִּים
وفى السريانية تجمع كلمة melta على melle . كما رأينا فى الساميات كلمات جمعت مرة جمعا مؤنثا وأخرى جمعا مذكرا ، فقد جمعت العبرية נָהָר nāhār
نهر على נְהָרוֹת n'hārim و נְהָרִים n'hārott وفى السريانية Roha
روح وجمعها Rohata أو Rohe وفى العربية : أرض وجمعها : أرضات وأرضون . انظر : مشكلات لغوية ٩٤ فما بعدها .

كما ظهر لنا مما تقدم من البحث وطرقه ومقارناته أن العربية تجمعها بالساميات جذور مشتركة وخصائص متقاربة[1] ومعنى ذلك أن الظواهر اللغوية في العربية لم تأت من فراغ أو موضوعة بعد الإسلام، ولكن لها ماض يرجع إلى أكثر من ٢٥٠٠ ق. م

كما أن هذه الدراسة أكدت التشابه بين اللغات السامية، ومنها العربية، كما وضحت الصلات اللغوية بينها في لواحق المثنى والجمع والأسماء الستة والأفعال الخمسة ، وليس الفرق أو الخلاف بين الساميات والعربية في تلك اللواحق إلا من نوع الفروق التي يحدثها التطور اللغوى في بناء اللغة الواحدة ؛ إذ ليست اللغات السامية إلا فروعاً للجذع العريق الذى هو العربية .

هذا وقد تنبه الخليل (ت ١٧٥ هـ) إلى مثل هذا بقوله : «وكنعان بن سام بن نوح ، ينسب إليه الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية »[2] كما أدرك ابن حزم ٤٥٦ هـ وغيره علاقة القربى بين الساميات والعربية أيضاً[3] .

أحمد علم الدين الجندى
الخبير بالمجمع



---

(١) كما ثبت أن الأنظمة الاجتماعية والعقائد الدينية عند الساميين تكاد تكون واحدة . انظر : حضارة مصر والشرق القديم ٣٧٧ د . إبراهيم زرقانة وآخرون .

(٢) كتاب العين ١ / ٢٣٢ للخليل بن أحمد . تحقيق د . عبد الله درويش

(٣) الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ٣٠ فما بعدها وانظر البحر المحيط ٤ / ١٦٣ فى توافق الحبشية والعربية فى القواعد وبعض التراكيب النحوية كحروف المضارعة وتاء التأنيث وهمزة التعدية . وانظر :

Moscati and others, An introduction to the Compaıative Grammar of the Smetic Languages, P. 142 ; oP. cit. P. 85.

وانظر : البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية : أغناطيوس يعقوب الثالث

مصادر جلال الدين السيوطى
فى كتابه "المزهر فى علوم اللغة وأنواعها"

للدكتور رمضان عبد التواب

كتاب «المزهر فى علوم اللغة وأنواعها» أشهر كتب جلال الدين السيوطى اللغوية ، بل إنه أشهر كتب فقه اللغة فى العربية ، جمع فيه مؤلفه حصاد القرون الطويلة ، التى سبقته فى الدراسات اللغوية عند العرب ، واستوعب فيه كل ما وصلت إليه يده من مؤلفات السابقين ، فى القضايا التى أثارها فى كتابه ، بدءاً من حديثه عن أصل اللغة ونشأتها ، ومروراً بطرق تحمل العلم باللغة ، ومعرفة الفصيح والمطرد والشاذ والنادر ، والمعرب والمولد ، وخصائص العربية فى ظواهر الاشتقاق والحقيقة والمجاز والمشترك والتضاد والترادف ، والإتباع والإبدال ، والقلب والنحت ، والمثنى والمكنى والمبنى ، والملاحن والألغاز ، والأشباه والنظائر . . . وانتهاء بالحديث عن آداب اللغوى ، ومعرفة ما ينتاب كتابة اللغة من التصحيف والتحريف ، وطبقات اللغويين وأسمائهم وكناهم وألقابهم وأنسابهم ، وأغلاط الشعراء والرواة وأكاذيب الأعراب ، وما إلى ذلك .

ولقد بلغت مصادر السيوطى فى هذا الكتاب مئتى مصدر ، يعود أقدمها إلى القرن الثانى الهجرى ، كالعين للخليل بن أحمد الفراهيدى ، وأحدثها إلى الفيروزابادى المتوفى (سنة ٨١٧ هـ) قبل السيوطى بحوالى قرن من الزمان .

وقد أتى السيوطى على الكثير من محتويات بعض هذه الكتب ، فنقلها إلى مزهره فقد نقل أكثر ما فى كتاب «الإبدال» لابن السكيت ، ثم قال : «هذا غالب ما أورده ابن السكيت ، وبقيت منه أحرف أخرى ، أخرتها إلى النوع السابع والثلاثين والذى يليه — وفات ابن السكيت ألفاظ جمة مفرقة فى كتب اللغة . ومن

أهم ما فاته الإبدال بين السين والصاد نحو : السراط والصراط[1] » .

ومعنى هذا النص أن السيوطى ، لم يكن ينقل ما فى مصادره ، نقلا عشوائيا ، وإنما هو نقل واع يتبع منهجا وتخطيطا بالغ الدقة .

ومثل ذلك أيضا نقله ما ذكره الفيروزابادى من أسماء العسل فى كتابه : « ترقيق الأسل لتصفيق العسل » ، وقوله بعد أن انتهى منه : « قلت : ما استوفى أحد مثل هذا الاستيفاء ، ومع ذلك فقد فاته بعض الألفاظ[2] » ، ثم استكمل هذه الألفاظ من أمالى القالى ، وأمالى الزجاجى[3] .

ويشبه هذا أيضا صنيعه مع كتاب « المثنى والمبنى » لابن السكيت ؛ فقد نقل منه عشر صفحات كاملة ، ثم قال : « هذا ما أورده ابن السكيت فى هذا الباب ، وقد جمع فأوعى ، ومع ذلك فقد فاته ألفاظ[4] » وقد استدرك السيوطى هذا الفائت من ديوان الأدب ، والغريب المصنف ، والجمهرة ، وغيرها .

وأحيانا ينقل السيوطى فصولا كاملة من مصادره ، كما فعل ذلك حين نقل الفصلين الرابع والخامس من كتاب « لمع الأدلة » لأبى البركات بن الأنبارى (٨٣ — ٨٤) بالحرف الواحد[5] وكما فعل فى باب : « ذكر ما جاء فى فُعالة » ؛ إذ نقله كله من « الغريب المصنف » لأبى عبيد وقال فى آخره : « هذا جميع ما فى الغريب المصنف »[6] .

وفى بعض الأحيان يلخص السيوطى ما فى مصادره تلخيصا شديدا ، كما فعل حين لخص كتاب « مراتب النحويين » لأبى الطيب اللغوى ، فى عشرين صفحة ، وقال فى آخرها : « انتهى كلام أبى الطيب فى كتاب مراتب النحويين ملخصا[7] » وهو لا يغفل الإشارة إلى ما لخصه من نصوص مصادره ، كما رأينا فى العبارة السابقة

---

(١) المزهر ١ / ٤٦٩

(٢) المزهر ١ / ٤٠٩

(٣) فى الأصل : « الزجاج » وهو تحريف

(٤) المزهر ٢ / ١٨٢

(٥) المزهر ١ / ١١٣ — ١١٤

(٦) المزهر ٢ / ١١٩ — ١٢٠

(٧) المزهر ٢ / ٣٩٥ — ٤١٤

وكقوله فى موضع آخر مثلا : « انتهى كلام ابن جنى ملخصا[١] »

وقد نثر السيوطى كثيرا من مسائل « الصاحبى » لابن فارس ، و « الخصائص لابن جنى » فى مزهره ؛ فقد نقل عن الأول ست صفحات كاملة فى أحد المواضع ، ثم قال : « هذا كله كلام ابن فارس[٢] » كما أكثر من النقل عنه فى افتتاحيات كثير من أبوابه[٣] وقد نص السيوطى على استفادته الكاملة من هذا الكتاب ، فقال مرة : « قلت : قد رأيت نسخة من هذا الكتاب مقروءة على المصنف ، وعليها خطه ، وقد نقلت غالب ما فيه فى هذا الكتاب[٤] » كما نقل عن « الخصائص » كثيرا كذلك ؛ إذ نقل منه ست صفحات فى أصل اللغة . وقال فى آخرها : « هذا كله كلام ابن جنى[٥] » وهناك نقل آخر فى سبع صفحات فى موضوع : المهمل والمستعمل ، قال بعده : « انتهى كلام ابن جنى[٦] » وفى باب : سقطات العلماء نقل عنه اثنتى عشرة صفحة ، وقال : « انتهى ما أورده ابن جنى[٧] » :

ومن أمثلة النقل المطول عن المصادر نقله رسالة فى حوالى ثلاثين صفحة[٨] ، من ديوان رسائل الشريف أبى القاسم على بن الحسين المصرى ، فى الألغاز اللغوية ، ثم نقله المقامة الثانية والثلاثين فى الألغاز من مقامات الحريرى كاملة[٩] .

ومع تطويله النقل عن بعض المصادر على هذا النحو ، نراه لا يستخدم فى بعض الأحيان كل الكتب المتخصصة فى الموضوع الذى يكتب فيه ؛ ففى موضوع « المشجر » مثلا ، لم يستخدم السيوطى كتاب : « المداخل » لأبى عمر الزاهد (٣٤٥ هـ) ولا كتاب : « المسلسل » لأبى الطاهر التميمى (٥٣٨ هـ) وفى موضوع « الإتباع » لم يستخدم كتاب : « الإتباع » لأبى الطيب اللغوى (٣٥١ هـ) وكذلك فى موضوع « الإبدال » لم يفد من كتاب « الإبدال » لأبى الطيب اللغوى شيئا ونراه كذلك فى موضوع « الأمثال » لا يستخدم بعض الكتب

---

(١) المزهر ١ / ٣٥٩
(٢) المزهر ١ / ٦٦ – ٧١
(٣) المزهر ١ / ٣٢١ – ٣٤٥
(٤) المزهر ١ / ٤٠٣
(٥) المزهر ١ / ١٠ – ١٦
(٦) المزهر ١ / ٢٤٠ – ٢٤٧
(٧) المزهر ٢ / ٣٦٩ – ٣٨١
(٨) المزهر ١ / ٥٩١ – ٦٢١
(٩) المزهر ١ / ٦٢٢ – ٦٣٥

المهمة : مثل : « جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) و« مجمع الأمثال » للميداني (٥١٨ هـ) و« المستقصى » للزمخشري (٥٣٨ هـ) وغير ذلك .

وتنقسم مصادر السيوطي في مزهره ، إلى أنواع شتى من حيث التخصص ، على النحو التالي :

١ - كتب في فقه اللغة ، كالصاحبي في فقه اللغة لابن فارس والخصائص لابن جني .

٢ - معاجم عربية مرتبة على الموضوعات مثل الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام وفقه اللغة للثعالبي [١] أو مرتبة على المخارج ، مثل العين للخليل بن أحمد . ومختصره لأبي بكر الزبيدي ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة ، واستدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزبيدي أو مرتبة ترتيبا هجائيا أو على المباني ، مثل الصحاح للجوهري والقاموس المحيط للفيروزابادي والعباب للصاغاني ، وجمهرة اللغة لابن دريد ، وديوان الأدب للفارابي ، والمجمل لابن فارس .

٣ - كتب لغوية متخصصة في موضوع واحد ، مثل : الإبدال لابن السكيت والأيام والليالي للفراء ، وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ، والمقصور والممدود لابن ولاد والأضداد لأبي بكر بن الأنباري والإتباع لابن فارس ، وشجر الدر لأبي الطيب اللغوي ، والمقصور والممدود لأبي على القالي ، وما جاء على فعّال للصاغاني ، والمثنى لأبي الطيب اللغوي ، والموازنة لحمزة بن الحسن الأصفهاني ، وخلق الإنسان للصاغاني والأجناس للأصمعي ، والمقصور والممدود لابن السكيت والفروق لأبي الطيب اللغوي والأصوات لابن السكيت والليل والنهار لأبي حاتم السجستاني .

٤ - كتب في النحو والصرف ، مثل الكتاب لسيبويه ، وأصول النحو لابن السراج وارتشاف الضرب لأبي حيان ، والتسهيل لابن مالك ولمع الأدلة لأبي البركات بن الأنباري وشرح التسهيل لأبي حيان ، وسفر السعادة للسخاوي ، والإنصاف لأبي البركات ابن الأنباري ، وشرح فصول ابن معط لابن إياز والغرة في شرح اللمع لابن الدهان ، وشرح المفصل للسخاوي ، وشرح الشافية للجاربردي .

٥ - كتب في لحن العامة ، مثل إصلاح المنطق لابن السكيت ، وتهذيبه للخطيب التبريزي وأدب الكاتب لابن قتيبة وشرحه للجواليقي والزجاجي ، والفصيح لثعلب ، وشروحه لابن درستويه والمرزوقي وابن خالويه والبطليوسي ، وذيله للموفق البغدادي

(١) يلاحظ أن السيوطي لم يستخدم معجما مهما من معاجم الموضوعات ، وهو « المخصص » لابن سيدة .

٦ – كتب الأمالى ، مثل أمالى ثعلب المعروفة بمجالس ثعلب ، والأمالى لأبى على القالى ، وأمالى الزجاجى ، وأمالى ابن دريد وأمالى أبى عبيد .

٧ – كتب النوادر ، كالكتب التى ألفها كل من أبى زيد الأنصارى وأبى محمد اليزيدى ، وابن الأعرابى ، ويونس بن حبيب ، وأبى عمرو الشيبانى والنجيرمى .

٨ – دواوين الأدب والمجاميع الشعرية مثل يتيمة الدهر للثعالبى ، والأغانى لأبى الفرج الإصفهانى ، والكامل للمبرد ، وشرح المعلقات لأبى جعفر النحاس ، وربيع الأبرار للزمخشرى ، ومقامات الحريرى ، ونشوار المحاضرة للتنوخى ، وشرح شعر هذيل للسكرى والحمقى والمغفلين لابن الجوزى ، وجمهرة أشعار العرب لحماد بن أبى الخطاب ، وأيام العرب لأبى عبيدة ، وشروح المقامات للمطرزى والنحاس وسلامة الأنبارى ، وشرح كامل المبرد لأبى إسحاق البطليوسى .

٩ – مجاميع أمثال العرب ، مثل : الزاهر فى معانى كلمات الناس لأبى بكر بن الأنبارى وجامع الأمثال لأبى على أحمد بن إسماعيل القمى .

١٠ – كتب فى البلاغة والنقد القديم مثل : الإيضاح للقزوينى ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجنى ، وسر الفصاحة لابن سنان ، والعمدة لابن رشيق ، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكى ، والطريق إلى الفصاحة لابن النفيس .

١١ – كتب فى الأصول والفقه ، مثل شرح منهاج الأصول للإسنوى ، والمحصول لفخر الدين الرازى ، والوصول إلى الأصول لأبى الفتح بن برهان ، وشرح منهاج البيضاوى لتاج الدين السبكى وشرح المحصول للقرافى والملخص فى أصول الفقه للقاضى عبد الوهاب السبكى ، والروضة للإمام النووى .

١٢ – كتب فى التفسير ؛ مثل : تفسير الطبرى والبحر المحيط للزركشى ، والتفسير لوكيع والتفسير لابن جزىّ .

١٣ – كتب فى الحديث ، مثل : صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، والمستدرك للحاكم وشعب الإيمان للبيهقى ، وغريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام ، والأدب المفرد للبخارى ومسند أحمد بن حنبل .

١٤ – كتب فى التراجم والطبقات مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وأخبار النحويين البصريين للسيرافى ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ومراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ، وطبقات النحويين اللغويين للزُّبيدى ، ومن سمى عمراً من الشعراء لابن الجراح ، والمؤتلف والمختلف للآمدى .

١٥ – كتب تاريخية ، مثل : تاريخ دمشق لابن عساكر ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ حلب للكمال بن العديم وتاريخ المسعودى (مروج الذهب) وذيل تاريخ بغداد لابن النجار .

هذه هى جمهرة المصادر التى رجع إليها جلال الدين السيوطى فى تأليف موسوعته اللغوية : « المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » وبعض هذه المصادر مفقود لا وجود له الآن ، مثل الأجناس للأصمعى ، والأصوات لابن السكيت والليل والنهار لأبى حاتم السجستانى والفروق لأبى الطيب اللغوى ، وشرح الفصيح لابن خالويه ، وأيام العرب لأبى عبيدة والنوادر لأبى عمرو الشيبانى والنوادر ليونس بن حبيب. وهذا الكتاب الأخير كان قليل الوجود فى عصر ابن مكتوم (٧٤٩ ﻫ) ؛ إذ قال عنه السيوطى فى المزهر : « وفى النوادر ليونس رواية محمد بن سلام الجمحى عنه – وهذا الكتاب لم أقف عليه ، إلا أنى وقفت على منتقى منه بخط الشيخ تاج الدين بن مكتوم النحوى وقال عنه إنه كتاب كثير الفائدة قليل الوجود »(١) .

وبعض مصادر السيوطى فى مزهره لايزال مخطوطا ينتظر من يحققه وينشره وينفض غبار الزمن عنه مستعينا على تحقيقه بالنصوص التى اقتبسها السيوطى منه ، مثل الموازنة لحمزة بن الحسن الإصفهانى وشرح المفصل للسخاوى وذيل تاريخ بغداد لابن النجار ومن المصادر المخطوطة ما هو تحت الطبع بعد أن اشتغل بتحقيقها بعض المعاصرين مثل العين للخليل بن أحمد ، والمقصور والممدود للقالى والغريب المصنف لأبى عبيد وارتشاف الضرب لأبى حيان وسفر السعادة للسخاوى والأمالى لابن دريد والنوادر لابن الأعرابى .

ومن المصادر ما رآه السيوطى ثم افتقده فى أثناء تأليفه للمزهر كهذا الكتاب الذى ذكره فى النوع السابع والثلاثين فى معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف فقال « وقد رأيت من عدة سنين فى هذا النوع مؤلفا فى مجلد لم يكتب عليه اسم مؤلفه ولا هو عندى الآن حال تأليف هذا الكتاب ورأيت لصاحب القاموس تأليفا سماه تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين ولم يحضر عندى الآن... فأعملت فكرى فى استخراج أمثلة ذلك من كتب اللغة(٢) .

وكتاب « فتيا فقيه العرب » لابن فارس الذى نشره حسين على محفوظ بدمشق

---

(١) المزهر ٢ / ٢٨٩

(٢) المزهر ١ / ٥٣٧

سنة ١٩٥٨ كان عند السيوطي كذلك، ثم افتقده عند تأليف المزهر فقال: «وقد ألف ابن فارس تأليفا لطيفا في كراسة، سماه بهذا الاسم (فيتا فقيه العرب) رأيته قديما وليس هو الآن عندي. . فنذكر ما وقع من ذلك في مقامات الحريري ثم إن ظفرت بكتاب ابن فارس ألحقت ما فيه[1] ويبدو أن السيوطي لم يظفر بهذا الكتاب مرة أخرى، حتى مات رحمه الله.

ومثل ذلك يتحدث السيوطي عن كتاب «ليس في كلام العرب» لابن خالويه فيقول في باب معرفة الأشباه والنظائر[2] هذا نوع مهم ينبغي الاعتناء به فيه تعرف نوادر اللغة وشواردها ولا يقوم به إلا مضطلع بالفن واسع الاطلاع، كثير النظر والمراجعة وقد ألف ابن خالويه كتابا حافلا في ثلاثة مجلدات ضخمات، سماه كتاب ليس، موضوعه ليس في اللغة كذا إلا كذا، وقد طالعته قديماً وانتقيت منه فوائد وليس هو بحاضر عندي الآن وأنا أذكر إن شاء الله في هذا النوع، ما يقضي الناظر فيه العجب وآت فيه ببدائع وغرائب إذا وقف عليها الحافظ المطلع يقول هذا منتهى الأرب».

وهذا أحد المواضع التي يظهر فيها أسلوب السيوطي في التقديم لأبواب المزهر المختلفة أما الفوائد التي انتقاها من كتاب «ليس» لابن خالويه قديما فتظهر منثورة هنا وهناك في المزهر ومنها في أحد المواضع اثنتا عشرة صفحة، قال في آخرها: «هذا آخر المنتقى من كتاب ليس لابن خالويه[3]».

وبعض مصادر المزهر كانت عند السيوطي بخطوط مؤلفيها: فقد ذكر أنه رأى تاريخ حلب للكمال بن العديم بخطه[4] كما كانت عنده تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم القيسي بخطه[5] وكانت عنده ثلاثة كتب للنجرمي كلها بخطه وهي التعليق[6] والفوائد[7] والنوادر[8] كما نقل «من خط الشيخ بدر الدين الزركشي في كراسة له سماها: عمل من طب لمن حب»[9].

---

(١) المزهر ١ / ٦٢٢

(٢) المزهر ٢ / ٣

(٣) المزهر ٢ / ٧٨ — ٩٠

(٤) المزهر ٢ / ٢٢٥

(٥) انظر: المزهر ١ / ٢٧٥ ؛ ١ / ٤٢١

(٦) المزهر ١ / ٣٨٢

(٧) المزهر ٢ / ٣٠٤

(٨) المزهر ٢ / ٢٩١

(٩) المزهر ٢ / ٣٦٦

وتبلغ نسبة النصوص المنقولة عن كتب مفقودة، فى المزهر حوالى ٤٠٪ من حجم الكتاب. ومن هنا تبدو قيمة كتاب المزهر للسيوطى الذى حفظ لنا نصوصا كثيرة ضاعت أصولها ولم تصل إلينا وهو فى مثل هذه النصوص يعد مصدراً أصيلا فى البحث العلمى.

وتختلف معاملة السيوطى لمصادره من مؤلف إلى مؤلف فهو أحيانا ينقل نقلا حرفيا ما أمامه من نصوص فى مصادره مثلما ذكرناه من قبل، من نقله الفصلين الرابع والخامس من كتاب «لمع الأدلة» لابن الأنبارى، بالحرف الواحد.

وأحيانا يتصرف ويقدم ويؤخر، ويحذف ويختصر، كما فعل فى باب «الأضداد[1]» الذى نقلهمن كتاب «الغريب المصنف» لأبى عبيد القاسم بن سلام فإننا إذا طالعنا هذا الكتاب الأخير، رأينا أبا عبيد يروى فى باب الأضداد منه عن أبى زيد، ثم عن اليزيدى، ثم عن عن أبى زيد مرة ثانية. ثم عن الأصمعى، ثم عن أبى عبيدة، ثم عن الكسائى ثم عن أبى زيد مرة ثالثة، ثم عن الكسائى مرة ثانية، ثم عن الأموى، ثم عن الأصمعى مرة ثانية، ثم عن أبى عبيدة مرة ثانية، ثم عن أبى عمرو، ثم عن أبى عبيدة مرة ثالثة ثم عن الأحمر، ثم عن الأصمعى مرة ثالثة، ثم عن أبى عبيدة مرة رابعة ثم عن الأصمعى مرة رابعة ثم عن أبى عبيدة مرة خامسة ثم عن الكسائى مرة ثالثة. وهكذا ينتهى الباب.

أما السيوطى فإنه جمع آراء كل عالم بعضها إلى بعض فبدأ بأبى زيد فالأصمعى فأبى عبيدة. فالكسائى، فالأموى، فأبى عمرو، فالأحمر. أما أبو عبيد فإنه كان — فيما يبدو يدون فى غريبه المصنف ماسمعه من شيوخه حسبما كان يقع إليه هذا المسموع يوما بعد يوم. هذا إلى أن السيوطى، حذف كلام اليزيدى، والشواهد الشعرية المختلفة التى يمتلئ بها الغريب المصنف فى هذا الباب.

وبعد... فماذا للسيوطى فى كتابه: «المزهر»؟ إن له أولا فضل جمع الجزئيات الصغيرة من هنا وهناك. فى الموضوع الذى يكتبه. وهو يعزو كل قول إلى صاحبه فى أمانة علمية فائقة وإذا كانت تلك عادته فى كل نقوله هنا وهناك، فإننا لا ندرى السر الذى جعله يجهل مصدره فى تلك المواضع القليلة جدا فى كتابه، كقوله مثلا: «وقال بعضهم[2]»، أو: «وفى بعض المجاميع[3]» أو

(١) المزهر ١/٣٨٩ - ٣٩١

(٢) المزهر ١ / ٩٤ ؛ ١ / ٢٧٤ ؛ ٢ / ٢٨٦ وفى الموضع الأخير ذكر السيوطى قصيدة توجد فى المقامة السادسة والأربعين من مقامات الحريرى، وهى المقامة الحلبية. ولا ندرى السر فى إغفاله مصدره هنا؟

(٣) المزهر ٢ / ٣٦٨

« قال أهل الأصول(١) »،أو « قال المعرى فى بعض كتبه(٢) »،أو : « قال صاحب زاد المسافر(٣) » أو : « رأيت لهذه الأبيات شرحا فى كراسة(٤) » :

ولم يخل كتاب : « المزهر » بالإضافة إلى هذا الجمع الدءوب ، والترتيب المعجب الرائق ، من خطرات هنا وهناك للمؤلف تعزى إليه وحده ، وهى فى بعض الأحيان رأى له ، واجتهاد وصل إليه بثاقب فكره وطول خبرته باللغة .

فهو يدخل أحياناً بجمل اعتراضية؛ تفسر مبهما ، أو تشرح غامضا أو تضيف جديدا كقوله مثلا : « وقال ابن جنى فى الخصائص وكان هو وشيخه أبو على الفارسى معتزليين(٥) وتوضيحه اسم إسماعيل بن القاسم البغدادى بأنه « هو أبو على القالى(٦) »،وتعليقه على تعليم آدم للملائكة أسماء الأشياء ، بأن « فى هذا فضيلة عظيمة ، ومنقبة شريفة لعلم اللغة(٧) » ، ووصفه الراغب الإصفهانى بأنه « من أئمة السنة والبلاغة(٨) » ، وتعليقه على قول السيرافى إن الخليل بن أحمد عمل أول كتاب العين ، بأن « هذه العبارة من السيرافى صريحة فى أن الخليل لم يكمل كتاب العين ، وهو الظاهر لما سيأتى من نقل كلام الناس فى الطعن فيه ، بل أكثر الناس أنكروا كونه من تصنيف الخليل(٩) » .

وليست كل تعليقات السيوطى على هذا النحو من الاختصار . وهذه تعليقة طويلة يعرفنا فيها بقراءته لكتاب : « استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين للزُّبيدى »ويذكر لنا محتواه ، فيقول « قلت : وقد طالعته إلى آخره ، فرأيت وجه التخطئة فيما خطئ فيه ، غالبه من جهة التصريف والاشتقاق كذكر حرف مزيد فى مادة أصلية ،أو مادة ثلاثية فى مادة رباعية ونحو ذلك . وبعضه ادعى فيه التصحيف . وأما أنه يخطأ فى لفظة من حيث اللغة ، بأن يقال : هذه اللفظة كذب ، أو لا تعرف ، فمعاذ الله . وحينئذ لا قدح فى كتاب العين ، لأن الأول الإنكار فيه راجع إلى الترتيب والوضع فى التأليف وهذا أمر هين، لأن حاصله أن يقال : الأولى نقل هذه اللفظة من هذا الباب ، وإيرادها فى هذا الباب ، وهذا أمر سهل وإن كان مقام الخليل ينزه عن ارتكاب مثل ذلك ، إلا أنه لا يمنع الوثوق الكتاب

---

(١) المزهر ١ / ٣٦٨ ؛ ١ / ٣٨٧ ؛ ١ / ٤٠٥
(٢) المزهر ٢ / ١٠٥
(٣) المزهر ٢ / ٣٥١
(٤) المزهر ١ / ٣٨٠
(٥) المزهر ١ / ١٠
(٦) المزهر ١ / ٨٣
(٧) المزهر ١ / ٣٠
(٨) المزهر ١ / ٢٠١
(٩) المزهر ١ / ٧٦

والاعتماد عليه فى نقل اللغة. والثانى : إن سلم ما ادعى من التصحيف ، يقال فيه ما قالته الأئمة : ومن ذا الذى سلم من التصحيف ؟مع أنه قليل جدا[1] » .

ولا تخلو تعليقات السيوطى من الرد على ما لم يعجبه من آراء العلماء، وتفنيدها بالحجج والبراهين ، مثلما رد على ابن جنى قدحه فى جمهرة اللغة لابن دريد ، فقال : « قلت مقصوده الفساد من حيث أبنية الصرف ، وذكر المواد فى غير محالها . . ولهذا قال أعذرُ واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر يعنى أن ابن دريد قصير الباع فى التصريف ،وإن كان طويل الباع فى اللغة وكان ابن جنى فى التصريف إماماً لا يشق غباره ، فلذا قال ذلك[2] » .

وكما رد على الأزهرى قدحه فى ابن دريد ورميه بافتعال العربية وتوليدالألفاظ ، وأنه سأل عنه نفطويه ، فلم يعبأ بهولم يوثقه فى روايته ، فقال : « قلت : معاذاللههو برىء مما رمى به . ومن طالع الجمهرةرأى تحرِّيه فى روايته ، وسأذكر منها فى هذا الكتاب مايعرف منه ذلك . ولايقبل فيه طعن نفطويه لأنه كانت بينهما منافرة عظيمة..وقد تقرر فى علم الحديث أن كلام الأقران فى بعضهم لا يقدح[3] » .

وكذلك رد على الفخر الرازى ، حين ذكر أن أهل اللغة أهملوا البحث عن أحوال اللغات ورواتها جرحا وتعديلا ، فقال : « وأقول : بل الجواب الحق عن هذا ، أن أهل اللغة والأخبار ، لم يهملوا البحث عن أحوال اللغات ، ورواتها جرحا وتعديلا ، بل فحصوا ذلك وبينوه ، كمابينوا ذلك فى رواة الأخبار . ومن طالع الكتب المؤلفةفى طبقات اللغويين والنحاةوأخبارهم ،وجد ذلك . وقد ألف أبو الطيب اللغوى كتاب : مراتب النحويين ،بين فيه ذلك ، وميزأهل الصدق ، من أهل الكذب والوضع[4] » .

وحين قال أبو الطيب فى هذا الكتاب عن أبى عبيد القاسم بن سلام : « ولا نعلمه سمع من أبى زيد شيئا » رد عليه السيوطى فقال : « قلت : قد صرح فى عدة مواطن من الغريب المصنف ، بسماعه منه[5] » .

وتبدو سعة علم السيوطى ، حين يهمل مصدره تفسير شىء ما ، فيعثر عليه السيوطى مفسرا فى كتاب آخر فيذكره ، كقوله

---

(١) المزهر ١ / ٨٦

(٢) المزهر ١ / ٩٣

(٣) المزهر ١ / ٩٣ — ٩٤

(٤) المزهر ١ / ١٢٠

(٥) المزهر ٢ / ٤١٢

مثلا : « وقال ابن ولاد في المقصور والممدود : عُشُورا بضم العين والشين : زعم سيبويه أنه لم يعلم في الكلام شيء على وزنه ، ولم يذكر تفسيره قلت ذكر القالي في كتاب : المقصور والممدود أن العشورا : العاشوراء . قال : وهي معروفة[1] »

وهو كثير التخريج لنصوص مصادره من أجل توثيقها ، فقد خرج في أحد المواضع مجموعة من الأخبار التي نقلها من كتاب « الصاحبي » لابن فارس في المصاحف لابن أشتة ، والمستدرك للحاكم ، والأوائل لأبي هلال العسكري ، والطيوريات لأبي طاهر السلفي ، والمصاحف لأبي بكر بن أبي داود ، ومسند أحمد بن حنبل[2] . وفي موضع آخر ، خرج حكاية رواها عن تصحيف العسكري ، في معجم الأدباء لياقوت والحمقى والمغفلين لابن الجوزي[3] .

وهو في تعليقاته حريص كل الحرص على توثيق نقوله ، بذكر خطوط العلماء الذين نقل عنهم ، كقوله مثلا : « وجدت هذه الحكاية ، مكتوبة بخط القاضي مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس ، على ظهر نسخة من العباب للصغاني ، ونقلها من خطه تلميذه أبو حامد محمد بن الضياء الحنفي ، ونقلتها من خطه[4] » . بل إنه ليعلمنا في بعض هذه التعليقات ، بملكيته لنسخة ثمينة من جمهرة اللغة مقروءة على العلماء . فيقول : «قلت : ظفرت بنسخة من الجمهرة بخط أبي النمر أحمد بن عبد الرحمن بن قابوس الطرابلسي اللغوي ، وقد قرأها على ابن خالويه ، بروايته لها عن ابن دريد ، وكتب عليها حواشي من استدراك ابن خالويه على مواضع منها ، ونبه على بعض أوهام وتصحيفات[5] » . وهو في أحد المواضع يقابل نسختين من كتاب الجمهرة ، فيقول : «وقال ابن دريد في الجمهرة : باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغز ، وفي نسخة . حتى صار كاللغة »[6] .

ويبدو في بعض تعليقات السيوطي ، استدراكه المكمل لبعض المؤلفات السابقة ، فقد استدرك على القاموس المحيط أشياء وقال : « قلت : ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد ، فقد فاته أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعتي لكتب اللغة ، حتى هممت أن أجمعها في جزء مذيلا عليه[7] » . كما استدرك على كتاب « الإتباع »

---

(١) المزهر ١ / ١٦٩
(٢) المزهر ٢ / ٣٤١ – ٣٤٣
(٣) المزهر ٢ / ٣٥٤
(٤) المزهر ١ / ٩٥
(٥) المزهر ١ / ٩٥
(٦) المزهر ١ / ٢٧٩ وفي الجمهرة ٣ / ٤٩٩ : « كاللغة ».
(٧) المزهر ١ / ١٠٣

لابن فارس ،وقال : « وقد ألف ابن فارس تأليفا مستقلا فى الإتباع ،وقد رأيته مرتبا على حروف المعجم ، وفاته أكثر مما ذكره. وقد اختصرت تأليفه وزدت عليه ما فاته . فى تأليف لطيف سميته : الإلماع فى الإتباع[١] »

وهو أحيانا يذكر الأقوال المناظرة لما هو فيه ، فبعد أن ذكر عن « الصاحبي » لابن فارس ، أن ابن خالويه قال : جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين ، قال « قلت . ونظير ذلك فى فقه اللغة للثعالبى : قد جمع حمزة بن الحسن الإصبهانى من أسماء الدواهى ما يزيد على أربعمائة ، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى . قال : ومن العجائب أن أمة وسمت معنى واحدا بمئين من الألفاظ[٢] » .

ونرى من بعض تعليقات السيوطى ، كيف أن علمه — رحمه الله — كان ينمو بكثرة الاطلاع على المصادر المختلفة بمرور الأيام ، فهذه فائدة استفادها من جمهرة اللغة ، كان قد سئل عنها فلم يعرفها ، يقول : « وهذه فائدة لطيفة ، لم أرها إلا فى الجمهرة ، فكانت العرب تسمى : صفر الأول وصفر الثانى ، وربيع الأول وربيع الثانى ، وجمادى الأولى وجمادى الآخرة : فلما جاء الإسلام وأبطل ما كانوا يفعلونه من النسىء ، سماه النبي صلى الله عليه وسلم شهر الله المحرم . . وبذلك عرفت النكتة فى قوله : شهر الله ولم يرد مثل ذلك فى بقية الأشهر ولا رمضان وقد كنت سئلت من مدة عن النكتة فى ذلك ولم يحضرنى فيها شىء حتى وقفت على كلام ابن دريد هذا[٣] » .

وهذه فائدة أخرى وجدها السيوطى عند ثعلب ، بعد أن طال سؤاله عنها ، فقد قال بعد أن روى عن ثعلب فى أماليه شرحا للمثل : « لا يدرى الحىّ من اللىّ » أى لا يعرف الكلام البيّن من الكلام غير البيّن : «قلت رضى الله عن سيدى عمر بن الفارض ، ما كان أوسع عِلمَهُ باللغة : قال فى قصيدته اليائية :

صار وصف الضر ذاتيا له
عن عناء والكلامُ الحىّ لىّ

ولما شرحت قصيدته هذه ما وجدت من يعرف منها إلا القليل . ولقد سألت خلقا من الصوفية عن معنى قوله : والكلام الحىّ لىّ ، فلم أجد من يعرف معناه،حتى رأيت هذا الكلام فى أمالى ثعلب[٤] » .

---

(١) المزهر ١ / ٤١٤ ويحمل قوله (١ / ٤٢٠) : « وفى كتاب إلماع الإتباع لابن فارس » على السهو .

(٢) المزهر ١ / ٣٢٥

(٣) المزهر ١ / ٣٠٠ – ٣٠١

(٤) المزهر ١ / ٥٠١

ولم تخل بعض تعليقات السيوطي من الوهم . ومن ذلك اعتقاده أن كلمة : « السبت » تعني في أصل اللغة « الدهر » ، فقال في موضوع العام الذى خصص : « ثم رأيت له مثالا في غاية الحسن ، وهو لفظ : السبت ، فإنه في اللغة : الدهر ، ثم خصص في الاستعمال لغة بأحد أيام الأسبوع وهو فرد من أفراد الدهر[1] » . والحقيقة أن « السبت » كلمة معربة عن العبرية

šabbāt שַׁבָּת

ومعناها : الراحة .

ولكن تلك الأوهام لا تقلل من قيمة الفوائد الجليلة ، التى نثرها في صفحات كتابه الضخم ، كقوله مثلا : « فائدة : حيث أطلق أبو عبيد في الغريب المصنف أبا عمرو فهو الشيباني ، فإن أراد أبا عمرو بن العلاء قيده . وحيث أطلق النحاة أبا عمرو فمرادهم ابن العلاء . وحيث أطلق البصريون أبا العباس فالمراد به المبرد ، وحيث أطلقه الكوفيون فالمراد به ثعلب[2] » .

ومن تعليقات السيوطي النادرة ، ما ذكره عن طريقة الأمالي اللغوية عند قدامى اللغويين ، فقال : « يكتب المستملي أول القائمة : مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ، ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملي بإسناده كلاما عن العرب الفصحاء ، فيه غريب يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره[3] » .

وقد ذكر السيوطي بعد ذلك محاولته التى لم يقدر لها النجاح ، في إحياء هذه الأمالي ، فقال : « وقد كان هذا في الصدر الأول فاشياً ، ثم مات الحفاظ ، وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد ، واستمر إملاء الحديث . . وقد أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره ، فأمليت مجلسا واحدا فلم أجد له حملة ، ولا من يرغب فيه ، فتركته[4] » .

* * *

هذا ، ونحب أن نشير في خاتمة هذا البحث إلى شيء مهم جدا ، وهو ضرورة مراجعة المزهر على مصادره ، لسد ما أصاب نصه من خلل في كثير من المواضع . وهذه بعضها .

(أ) روى السيوطي النص التالي عن ثعلب في أماليه : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وتلتلة بهراء ، وكسكسة ربيعة ، وكشكشة هوازن ، وتضجع قريش[5] » . وصوابه ، كما في مجالس ثعلب ومصادر أخرى كثيرة : « وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس[6] » .

---

(١) المزهر ١ / ٤٢٧

(٢) المزهر ٢ / ٤٥٥ – ٤٥٦

(٣) المزهر ٢ / ٣١٤

(٤) المزهر ٢ / ٣١٤

(٥) المزهر ١ / ٢١١

(٦) مجالس ثعلب ١ / ٨٠ وانظر : الخصائص ٢ / ١١ وسر صناعة الإعراب ١ / ٢٣٤ – ٢٣٥ وخزانة الأدب ٤ / ٤٩٥

(ب) روى السيوطى النص التالى عن كتاب : « الألفاظ والحروف » للفارابى ، فى القبائل التى تؤخذ عنها اللغة : « وبالجملة فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس[1] »

ويقف المرء حائرا أمام هذا النص ، إذ كيف يمكن لليمن أن تكون بالجزيرة مجاورة لليونان ؟ ثم كيف لبكر أن تمتد بجناحيها فى شمالى الجزيرة العربية ، فتجاور فى الشرق الفرس فى إيران ، كما تجاور فى الغرب القبط فى مصر . وصواب العبارة كما فى المصادر : « ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس[2] » . فانظر كيف حرفت كلمة : « النمر » فصارت فى « نشرة المزهر : « اليمن » كما حرفت أختها : « النبط » ، فصارت فى هذه النشرة كذلك : « القبط » .

(ج) روى السيوطى النص التالى عن ابن درستويه ، فقال : « قال ابن درستويه فى شرح الفصيح : قول العامة . نحوى لغوى على وزن : جهل يجهل ، خطأ أو لغة رديئة[3] » . وفى هامشه تعليقا على عبارة : « نحوى لغوى » ، قال محققو المزهر : « لم نقف على ضبط هذه العبارة » .

وهذا الذى لم يقف على ضبطه محققو الكتاب ، موجود على الصواب فى مصدره : تصحيح الفصيح لابن درستويه ، وهو قوله . فتقول . غَوِىَ يَغْوَى على نحو : جهل يجهل[4] » .

* * *

وبعد . . . فقد بلغ السيوطى فى تآليفه شأوا لا يدرك ، وجهدا تقصر دونه الخطى . وكتابه : « المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » تاج على رءوس هذه المؤلفات ، وغرة فى وجه هذه التصانيف ، يشهد له بطول الباع فى الدراسات اللغوية العربية ، والصبر والجلد فى القراءة والجمع . رحم الله السيوطى رحمة واسعة .

رمضان عبد التواب
الخبير بالمجمع

---

(١) المزهر ١ / ٢١٢
(٢) الاقتراح ١٩ وانظر الحروف للفارابى ١٤٧
(٣) المزهر ١ / ٢٢٥
(٤) تصحيح الفصيح ١ / ١١٩

قضية المصطلح اللغوي الحديث

للدكتور محمود فهمي حجازي

أولا : مدخل تاريخي :

١ — يتضح من تاريخ تكون المصطلحات اللغوية المعاصرة أنها بدأت بداية متواضعة عند الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٢)، وذلك عندما حاول تعريف معاصريه بتعدد اللغات الأوروبية القديمة والحديثة، وهنا نجد مصطلحى : اللغة، واللسان، ذكر : اللسان الفرنساوى، واللغة الفرنسية. «ولسان الغَالْوِيِّين من قدماء الفرنسيس»؛ كما كتب عن اللغة العربية، واللغة اللاطينية، واللغة اليونانية، واللغة النمساوية، ولغة الصقالبة. وكلتا الكلمتين : اللغة واللسان، ترد عنده فى مواضع كثيرة دون تمييز بينهما. عبر الطهطاوى عن «قواعد اللسان الفرنساوى» بأنها : غرماتيقى، أغرمير، وهنا أفاد من كلمة يونانية معربة منذ العصر العباسى ومن كلمة فرنسية، وشرح المصطلح بأن معناه «فن تركيب الكلام فكأنه يقول فن النحو»، وهنا نجد الإقتراض المعجمى يتوازى مع بيان المحتوى بكلمات عربية شارحة. أما المصطلحات النحوية العربية فقد استمر استخدامها فى الكتب النحوية التعليمية، ولم يتجاوزها الطهطاوى عندما ألف كتابه : التحفة المكتبية.

٢ — بدأت كلمات جديدة تتخذ دلالات اصطلاحية عند الطهطاوى ومعاصريه، وأصبح عدد كبير منها من الرصيد الأساسى للمصطلحات اللغوية، منها كلمة : قاموس، تحولت من إسم عام على أحد المعجمات فأصبحت كلمة عامة دالة على كل أفراد هذا النوع من المؤلفات اللغوية. لأن كلمة قاموس مثال واضح لبداية استخدام كلمة موروثة بمعنى اصطلاحى جديد، أخذ يستقر فى بداية النهضة الحديثة فى مصر. كلمة :

ألقى ملخص هذا البحث فى الحلقة الدراسية : مشكلات المصطلح الأدبى واللغوى، التى عقدها المجلس الأعلى للثقافة، بالقاهرة ٧ — ٨ مايو ١٩٨٦.

قاموس ، وردت فى عنوان أول كتاب طبع فى مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ ، وهو : قاموس اطاليانى وعربى . كان الطهطاوى قد لاحظ عند الأوربيين أن «كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم فى ألفاظ العلم الاصطلاحية » . وأفاد الطهطاوى فى مقدمته لترجمة كتاب « المعادن النافعة » من كلمة قاموس ، كما أعد مقدمة مفصلة لكتاب قلائد المفاخر ، وفيها « قاموس صغير » . هكذا نجد بداية استقرار كلمة قاموس للدلالة على ذلك النوع من المراجع اللغوية أنها تعود إلى الفترة ١٨٢٢ — ١٨٣٢ .[1]

٣ — ومن المفيد فى هذا الصدد أن تجمع المصطلحات اللغوية التى وردت فى كتب رواد النهضة ، وفى مقدمتهم الطهطاوى والشدياق ، وأن تجمع المصطلحات اللغوية التى وردت فى الدوريات الثقافية فى مصر والشام فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ومن أشهر أعلامها جرجى زيدان وإبراهيم اليازجى وأنستاس مارى الكرملى ، فهذه المطبوعات المتخصصة وغير المتخصصة أسهمت بشكل واضح فى تكوين مصطلحات استقرت اليوم بدلالات محددة مستحدثة . منها المصطلحات : قاموس : معجم - مستجمع . اللغات السامية : الألفاظ السامية المشتركة . التراكيب الأعجمية . وذلك إلى جانب جمع المصطلحات المستخدمة فى الكتب الثقافية والتعليمية لتعرف الجديد من المصطلح اللغوى .

---

(١) عن استخدام كلمة قاموس فى بداية النهضة العربية الحديثة انظر : قاموس ايطاليانى وعربى ، تأليف القس رفائيل زخور راغب ، القاهرة مطبعة بولاق ١٨٢٢ .

وانظر كذلك أقدم معجم فرنسى عربى :

Elloius Bochor, Dictionnairé Française - Arabe Paris, 1829.

وفيه نجد فى مقابل كلمة Dictionnaire : ترجمان — كتاب لغة — قاموس اللغة .

أما فى كتب الطهطاوى فهناك مصطلحات لغوية وردت فى تخليص الإبريز ، انظر : محمود فهمى حجازى ، أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ، القاهرة ١٩٧٥ ، ويضم النص الكامل لتخليص الابريز مع تعليقات وكشاف بالمصطلحات المختلفة فى هذا الكتاب ، وقد استخدم الطهطاوى كلمة قاموس فى مقدمة ترجمته لكتاب قلائد المفاخر طبعة بولاق ١٢٤٩ ، ص ٢ ، وفيها : « شرح للكلمات الغريبة التى توجد فى كتاب قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر مرتبة على حروف المعجم . . . ولو صنع المترجمون نظير ذلك فى كل كتاب ترجم . . . لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ونظمها فى قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب أو الترك » . أما فى مقدمة تعريب كتاب المعلم فرارد فى المعادن النافعة لتدبير معايش الخلايق ، طبعة بولاق ١٢٤٨ ، ص ٣ ، فقد ذكر الطهطاوى « اللغة الفرنساوية لم يفض ختامها إلى الآن بقاموس شاف مترجم » . وفى هامش الصفحة نفسها إشارة إلى أن إبراهيم باشا كلفه « بترجمة قاموس » .

٤ — دخل المصطلح اللغوى مرحلة جديدة بإنشاء الجامعة الأهلية ١٩٠٨، ثم بتحولها إلى الجامعة المصرية ١٩٢٥ . إن التحول الجديد وثيق الصلة باتجاهات البحث اللغوى فى القارة الأوربية ، لقد حضر عدد من أعلام الدراسات اللغوية بجامعات ايطاليا وألمانيا إلى القاهرة يحاضرون بالعربية فى علوم اللغة واللغات السامية . ألقى اللغوى الإيطالى جويدى محاضراته عن اللغة العربية الجنوبية القديمة ، وحاضر اللغوى الألمانى برجشتراسر عن العربية فى ضوء اللغات السامية . وهنا نجد مصطلحات يتخذها العلماء الأوربيون منها مصطلح علم اللغة ، جعله جويدى فى عنوان كتابه «مختصر علم اللغة العربية الجنوبية» (القاهرة ١٩٢٩) أما برجشتراسر فكان يفيد من المصطلح نفسه ، نجد فى كتابه «التطور النحوى للغة العربية» (القاهرة ١٩٢٩) مصطلح علم اللغة موصوفاً وغير موصوف ، ذكر علم اللغة الغربى ، وعلم اللغة التاريخى ، كما ذكر مصطلحات : علم الأصوات العمومى ، والتغيرات الصوتية المطلقة ، والمقيدة ، وهذه مصطلحات جديدة فى تركيبها ودلالتها الحديثة .

٥ — كان برجشتراسر مدركا للفروق بين مصطلحات تراثية والمصطلحات الحديثة لم يكن يفيد من المصطلح التراثى إلا عند يقينه من مطابقة المفهوم الجديد للمفهوم التراثى . ولهذا وجد من الضرورى عند التعبير عن مصطلح Assimilation أن يضع مصطلح التشابه أو التماثل وأن يوضح الفرق بين مفهوم التماثل فى علم اللغة الحديث ومفهوم الإدغام عند النحاة العرب . ونجد عند برجشتراسر عدم الإفادة من مصطلحات تراثية منها الهمس والجهر ، لأن دلالة المصطلحين مدى مطابقتهما للمصطلحين الأوربيين كان موضع نظر وخلاف . وقياساً على المصطلحين الأوربيين وضع برجشتراسر بالعربية مصطلح صوتى Stimmhaft, voiced ، وغير صوتى Stimmlos, voiceless . وعلى هذا فالباء صوتى والباء الافرنجية (p) والفاء غير صوتيين فى اصطلاح برجشتراسر . وهنا نجد الإفادة المباشرة من المصطلحات الأوربية فى وضع المقابل العربى ، وبين برجشتراسر موقفه ، بقوله : «لهم مصطلحات غير اصطلاحاتنا ، أصل بعضها غامض ، ولكن معناها واضح ، وهى : مجهور بمعنى صوتى ، ومهموس بمعنى غير صوتى . ميز براجشتراسر الأصوات إلى صوامت وصوائت وحركات ممدودة.

ووضع برجشتراسر أيضاً مصطلح المقطع. وقد استقر عدد كبير من مصطلحات برجشتراسر فى الاستخدام العربى الحديث، غير أن، وصف علماء اللغة فى موضعين بأنهم الألسنيون، وهى تسمية لم يكتب لها الإنتشار فى مصر وإن وجدت قبولا محدوداً، تارة عند أبناء الشام وتارة عند بعض التونسيين.

٦ — توازت فى جامعات المشرق العربى عدة اتجاهات فى البحث اللغوى الحديث إلى جانب استمرار النحو التعليمى بمصطلحاته. تندرج اتجاهات البحث اللغوى الحديث فى اتجاهين أساسيين. ظلت المدرسة السامية المقارنة يمثلها خليل يحيى نامى ومراد كامل وابراهيم السامرائى والسيد يعقوب بكر تتعامل برصيد المصطلحات التى كانت قد استقرت منذ عرفت المنطقة العربية الدراسات السامية المقارنة. أما المدرسة اللغوية التى ارتبطت بابراهيم أنيس ومن درسوا علم اللغة العام مع اهتمام خاص بعلم الأصوات، وحاولت الإفادة منه فى بحث العربية، فكانت تمثل تيارا موازيا. تكونت أكثر المصطلحات المتداولة بجهود هؤلاء اللغويين فى جامعات المشرق وفى مجمع اللغة العربية بالقاهرة. عبرت هذه المصطلحات عن المفاهيم الأساسية للتحليل اللغوى، كما تحددت فى إطارها أسماء مقننة للغات السامية ولهجاتها واللغات الأفريقية. وهكذا تجاوزت هذه المصطلحات فى أكثر الأحوال الاستخدام الفردى وأصبحت رصيدا أساسيا فى علم اللغة فى الجامعات المصرية وأكثر جامعات المشرق العربى.

---

١ — نشر مجمع اللغة العربية مصطلحات علم اللغة فى مجموعة المصطلحات العلمية والفنية، المجلد الثالث ٢ مارس ١٩٦٢، مصطلحات فى علمى الأصوات واللغة ١٤٠ — ١٤٣، والمجلد الرابع ١٩٦٢، ٩٣ — ٩٦، المجلد السادس ١٩٦٤، الفصائل اللغوية، اللغات السامية ٥٣ — ٦٠، والمجلد السابع ١٩٦٥، الفصائل اللغوية ٨٧ — ١٠٠، والمجلد الثامن ١٩٦٦، الفصائل اللغوية ٣٧ — ٤٧ والمجلد التاسع ١٩٦٧ معجم المصطلحات اللغوية ١٠٣ — ١١٥، والمجلد العاشر ١٩٦٨ معجم المصطلحات اللغوية، ١٢٩ — ١٤١.

٢ — تضم الكتب الكثيرة والدراسات المتعددة التى كتبها إبراهيم أنيس وتمام حسان وكمال بشر عددا كبيرا من المصطلحات التى استقرت فى دول المشرق، كما تضمنت بعض كتب اللغويين كشافات بالمصطلحات، منها:

محمود السعران، علم اللغة، دار المعارف بالأسكندرية ١٩٦٢.

محمود فهمى حجازى، المدخل فى علم اللغة، القاهرة، طبعة ثانية، ١٩٨١.

وتضمنت بعض الترجمات قوائم بالمصطلحات، منها:

ماريو باى، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، بيروت ١٩٧٥.

برتيل مالمبرج، علم الأصوات، تعريب ودراسة عبد الصبور شاهين، القاهرة ١٩٨٥.

وكان صاحب هذا البحث واضع مصطلحات كثيرة ، منها علم اللغة التقابلي ، وعلم اللغة التطبيقي ، والبنيوية ، والبنية السطحية والبنية العميقة ، والنحو التوليدي التحويلي . وقد أصبحت هذه المصطلحات من الرصيد المشترك عند اللغويين العرب .

٧ ــ تكونت عند عدد من اللغويين اللبنانيين مصطلحات تتفق إلى حد بعيد مع مصطلحات اللغويين في مصر والعراق ، وان احتفظت في حالات محدودة بطابعها الخاص . تراوح ريمون طحان في كتابيه عن «الألسنية[1]» بين هذه التسمية وتسميتين أخريين . هما : الدراسات اللغوية والعلوم الألسنية . ذكر المتخصصين في هذه العلوم على أنهم اللغويون والألسنيون ، وأفاد كثيرا من الاقتراض المعجمي في نقل مصطلحات الفونتيكا Phonetique والفونولوجيا Pnonologie والفونيم Phoneme أما المصطلحات التراثية فقد استقرت على نحو ما نجد عند سائر اللغويين . وهكذا نجد مصطلحات المخرج والحنك والجهر والهمس والترقيق والاطباق والقلب المكاني . وأفادت جهوده من المصطلحات التي تستخدم في مصر والعراق للتعبير عن مفاهيم حديثة مثل : الأصوات الصامتة ، والأصوات المصوتة والمماثلة والمخالفة . وهكذا استمر بناء المصطلحات اللغوية على نحو يتسم بالاطراد والخلاف المحدود ، وكان الاستخدام في الكتب والمؤلفات والمحاضرات يحسم الخلافات المحدودة في المصطلحات :

٨ ــ أما في المغرب العربي فقد كانت تونس قبل استقلال الجزائر والنهضة الحديثة في المملكة المغربية رائدة في هذا المجال : تفاوتت صلة اللغويين التونسيين بالمشرق تفاوتا واضحا ، كتب رشاد الحمزاوي عن جهود مجمعي القاهرة ودمشق دراسات جادة وأعد معجما تسجيليا للمصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية ، ومنهم من اقتصر على الترجمة من اللغة الفرنسية دون أن يصل عمله بجهود المشارقة . تعد الترجمة التي أعدها صالح القرمادي ١٩٦٦ لكتاب « دروس في علم أصوات العربية « لجان كانتينو مهمة في تعرف مشكلة المصطلحات

---

١ ــ ريمون طحان ، الألسنية العربية ، بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٧٢ ، (سلسلة الالسنية ١ ، ٢) . ميشال زكريا ، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادىء والأعلام . ط ٢ . بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات ، ١٩٨٣ .

وله أيضاً : الالسنية ، التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة) . بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٣ .

اللغوية فى تونس فى تلك الفترة . عرف القرمادى هذا التخصص باسم علم اللغات Linguistique أو علم اللغات العام والمتخصص فى هذا العلم لغوى . ولكن القرمادى أفاد من مصطلح مشرقى نادر ، وهو الألسنية وجعله تسمية لعلم اللهجات Dialectologie ، وعبر عن المتخصص فى اللهجات بأنه عالم فى الألسنية Dialectologue . ولهذا فالمصطلحان علم اللغات والألسنية غير مترادفين ، لكل منهما عنده دلالته . تتسم محاولات القرمادى بقلة الاقتراض المعجمى ، حاول أن يميز المفاهيم بكلمات عربية. ميز علم الأصوات أو الصوتيات Phonétique عن علم وظائف الأصوات Phonologie . ولكن مشكلة المصطلحين تظهر عند النسبة إليهما ، النسبة إلى الأول صوتى وإلى الثانى وظائفى . والكلمة الأخيرة غير دالة . أما مصطلح Phonème فقد حاول نقله إلى العربية تارة بكلمة صوت وتارة بكلمة صوتم . وهنا نجد مصطلحا مركبا من كلمة عربية صوت ونهاية مقترضة eme على النحو المعروف فى مصطلحات الكيمياء . ومن الجانب الآخر بالغ القرمادى فى الإفادة من المصطلحات التراثية على نحو يجعل القارئ يخلط بين مفهومين مختلفين ، كلمة حرف دالة فى التراث على الرمز المكتوب والصوت المنطوق ، فجعلها القرمادى ترجمة لكلمة consonne فى مقابل الحركة Voyelle . ومثل هذا اللبس قائم أيضا عند استخدام كلمة إدغام فدلالتها فى التراث تجعلها للتعبير عن تغير صوتى ينطق عنه صوت مشدد مثل اصّبّر ، واتّصل ، أما مصطلح Assimilation فلا يقتصر على ما سبق ، ولكنه يفيد تحول صوتين مختلفين نسبيا إلى صوتين متقاربين نسبيا أو متماثلين ، مثل تحول الصيغة القياسية المفترضة ازتهر إلى ازدهر ،

---

٦ ــ حول أهم جهود اللغويين فى دول المغرب فى المصطلحات انظر القائمتين الملحقتين بالترجمتين التاليتين عن اللغة الفرنسية :

جان كانتينو ، دروس فى علم أصوات العربية ، نقلة إلى العربية وذيله بمعجم صوتى فرنسى ــ عربى ، صالح القرمادى تونس ، الجامعة التونسية ، نشريات مركز الدراسات والبحوث الإقتصادية والإجتماعية ١٩٦٦

جورج مونان ، مفاتيح الألسنية ، عربه وذيله بمعجم عربى ــ فرنسى الطيب البكوش ، تونس ، منشورات الجديد ١٩٨١ .

وانظر أيضاً العدد الأول من مجلة : اللسانيات ، مجلة فى علم اللسان البشرى تصدرها جامعة الجزائر ، معهد العلوم اللسانية والصوتية ، الجزائر ، ١٩٧١ .

التهامى الراجى الهاشمى ، توطئة لدراسة علم اللغة ، التعاريف . الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ، ١٩٧٦ ــ (سلسلة الدراسات اللغوية ، ١) وله أيضاً : بعض مظاهر التطور اللغوى . الدار البيضاء ١٩٧٨ (سلسلة الدراسات اللغوية ، ٢) .

وهذا التغيير لم يصنفه النحاة العرب بأنه ادغام ولكنه مما نعبر عنه بالتماثل أو المماثلة. ولهذا لا يجوز خلط مفهومين مختلفين فى مصطلح واحد.

٩ — يبدو أن ضعف الصلة بين جامعات المشرق والمغرب كانت سببا فى عدم الافادة الحادة من تجارب المشرق وأدى هذا الموقف إلى محاولة إيجاد مصطلحات جديدة مختلفة. كان مصطلح علم اللغة آخذا فى الاستقرار عند المتخصصين فى المشرق وتونس، فاذا بنا نواجه بمصطلح اللسانيات فى إطار زاعم بأن «الشروط الضرورية لعالم اللغة مجتمعة عند عدد من الباحثين فى المغرب، وآمل فى أن تتسع دائرتهم فى جميع البلاد العربية». وبهذا بدأت الدعوة إلى تعديل المصطلحات القائمة، وشغلت مجلة اللسانيات بالدفاع عن اسمها وبالهجوم على مصطلح علم اللغة وعلى المصطلحات المستقرة فى مصر والعراق منذ ثلاثة أجيال، وهكذا ضاع وقت ثمين، وشغل بعض اللغويين بالدفاع عن المصطلحات القليلة التى وضعوها. وكان هذا الموقف من العوامل التى جعلت حركة الترجمة إلى اللغة العربية فى علوم اللغة تتوقف عدة سنوات، وبدأ عقد ندوات عن اللغة العربية تقدم فيها البحوث وتتم فيها المناقشات بغير اللغة العربية تجنبا للخلاف الحاد المتجدد حول المصطلحات.

١٠ — إن قضية المصطلح اللغوى لا يمكن أن تؤخذ برؤية فردية أو حزبية أو قطرية، ولا يمكن أيضاً أن تبحث بطريقة النظر فى المصطلح المفرد ثم الخلاف حوله والتشكيك فيه وإعادة النظر فيه. لقد ظهرت فى السنوات الماضية مجموعة طيبة من المعجمات الثنائية اللغة للمصطلحات اللغوية، أعدها أعلام تجمعهم الرغبة فى مواجهة هذه المشكلة، وتفاوتت مناهجهم بين التسجيل والاختيار الواعى وإكمال النقص باختراع مصطلحات فردية، ولهم جميعاً جهد مشكور بكل المعايير الفردية. ولن ننظر هنا فى المصطلحات الواردة فى هذه المعجمات بهدف مقارنتها بشكل جزئى، ولكننا نود أن نخرج من النظر فى هذه المعجمات وفى الكتب اللغوية المترجمة والمؤلفة بالعربية بسلسلة من الأسس المنهجية تنتظم قدر الإمكان فى إطار النظرية العامة لعلم المصطلحات.

---

٧ — أعدت مجموعة من اللغويين بجامعة الرياض، معجم مصطلحات علم اللغة الحديث. ط ١، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٣.

بسام بركة، معجم اللسانية، فرنسى — عربى، مع مسرد ألفبائى بالألفاظ العربية. طرابلس — لبنان، جروس — برس، ١٩٨٥ ...

محمد رشاد الحمزاوى، المصطلحات اللغوية الحديثة فى اللغة العربية تونس، حوليات الجامعة التونسية، ١٩٧٧ (العدد ١٤).

عبد السلام المسدى، قاموس اللسانيات، عربى — فرنسى، فرنسى عربى مع مقدمة فى علم المصطلح. طرابلس — ليبيا، الدار العربية للكتاب. ١٩٨٤.

محمد على الخولى، معجم علم اللغة النظرى، انكليزى — عربى — بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٢.

ثانيا : مصادر المصطلحات :

تكاد الوسائل العامة لتكوين المصطلحات اللغوية لا تخرج عن المسائل العامة لتكوين المصطلحات وألفاظ الحضارة فى العربية الفصحى فى العصر الحديث . فإلى جانب المصطلحات التراثية الموروثة عن النحاة واللغويين العرب وتعبر عن استمرار البحث اللغوى فى العربية عبر القرون ، فإن المصطلحات الحديثة تكونت بطرق الاشتقاق والاقتراض والتركيب . ويتضح هذا مما يأتى :

١ ـ المصطلحات التراثية :

(أ) بدأ البحث فى الأصوات العربية على أساس الإفادة من جهود النحاة واللغويين فى إطار المناهج الحديثة ، ومنذ أواخر القرن الماضى بدأ اهتمام المستشرقين الأوربيين بما كتبه العرب فى تصنيف أصوات العربية واهتموا بطبيعة الحال بمصطلحات التصنيف . واتصل هذا الاهتمام على مدى المائة عام الماضية . كان المستشرق الألمانى شاده قد كتب رسالته عن علم الأصوات عند سيبويه (١٩١١) وحاضر باللغة العربية فى الموضوع نفسه بالجامعة المصرية ، وكان برجشتراسر مدركا لمشكلات مصطلحات البحث الصوتى فى التراث العربى ، وهو يحاضر عن العربية فى ضوء اللغات السامية . أما الكتب والبحوث المنشورة بالعربية فى هذا المجال ، ومن أقدمها كتب إبراهيم أنيس ومحمود السعران وكمال بشر وتمام حسان فقد كتبها مؤلفون وثيقو الصلة بالمصطلحات التراثية فى البحث الصوتى ، ولهذا كله فقد استقرت أكثر المصطلحات الحديثة فى البحث الصوتى المأخوذة عن جهود النحاة واللغويين العرب ، ولا خلاف يذكر بين المتخصصين فى استخدامهم للمصطلحات حلقى أو حنكى أو خيشومى أو شفوى أو أسنانى أو مهموس أو مجهور . أما المصطلحات التى تعبر عن مفاهيم علمية لم تثبت معرفة العرب بها فهى موضع اجتهاد . وإن كان الاتفاق قد أقر الكثير منها مثل مصطلحى النبر والمقطع .

(ب) بعض المصطلحات التى تضمها المعجمات المتخصصة خالفت لسبب أو لآخر ما عرفه التراث اللغوى العربى من مصطلحات . وأغلب الظن أن تجنب المصطلحات التراثية فى كثير من الحالات لم يتم على أساس علمى . كان النحاة قد قسموا الأسماء المعربة إلى منصرفة وممنوعة من الصرف ، النوع الأول تتضح فيه ثلاث علامات إعرابية والنوع الثانى تظهر فيه علامتان إعرابيتان . وقد وضع المستشرقون للاسم المنصرف مصطلح triptote ولا مبرر لإعادة ترجمته إلى العربية بمصطلح ثالوث إعرابى . كما وضعوا للممنوع من الصرف مصطلح diptote ، ولا داعى لاعادة ترجمته بمصطلح ثنائى الصرف ، والصواب triptote : منصرف ، diptote : ممنوع من الصرف .

أن تقسيم المفردات يعد من التصنيفات الأساسية فى التحليل النحوى وعندما صنف سيبويه الكلمات إلى اسم وفعل وحرف استخدم مصطلح الكلم ، وحدد فرقا أساسيا بين دلالة مصطلح الكلام وواحده كلمة من جانب ودلالة مصطلح الكلام من الجانب الآخر ولا يجوز الخلط بينهما ، ومن ثم لا يجوز ترجمة major parts of speech على أنها

أنواع الكلام، فالصواب أنواع الكلم. وفى هذا فإن المصطلح التراثى يترك لدلالته ولا مبرر لخلط المصطلحين.

(ج) ثبت أنه من الضرورى الاهتمام فى الدراسات الجامعية بقضية المصطلحات المستخدمة فى التراث اللغوى العربى وفى الكتب الأخرى المتصلة بقضايا اللغة. وأعدت بالفعل أبواب كبيرة فى عدد من الرسائل الجامعية تناولت على سبيل الحصر والاستقصاء مجموعة المصطلحات التى يتناولها البحث، ومن هذه الرسائل ما كتبه إبراهيم الشمسان عن الشرط عند النحاة العرب، وهنا نجد حصرا دقيقا وتأريخا للمصطلحات التى أفاد منها النحاة فى هذا الموضوع. وتعد حاليا دراسات أخرى فى موضوعات شتى تهتم – فى جانب منها – بقضية المصطلحات، إلى جانب رسائل أخرى أفردت لقطاعات محددة من المصطلحات العربية فى علوم اللغة حصراً وتأريخاً وإعداداً معجمياً. ولن يمضى وقت طويل حتى نجد المصطلحات العربية فى علوم اللغة قد جمعت على نحو يجعل الإفادة منها أمراً يسيراً ويجعل الخلاف حولها غير ذى موضوع.

٢ – الاشتقاق:

(أ) أفاد البحث اللغوى الحديث من عدة أبنية لتكوين كلمات جديدة تعبر عن مفاهيم مستحدثة، وفى مقدمتها أبنية المصادر، وصيغة المصدر الصناعى. مشكلة المصدر الصناعى ليست فى بنيته، فهى بنية تنتهى بالنهاية (ية). وما أسهل أن يقال الخيشومية أو التركيبية أو المعجمية أو الألسنية أو السلوكية. ولكن المشكلة تكمن فى دلالة هذه الصيغة، فهى تدل على المذاهب والاتجاهات مثل السلوكية والبنيوية والتحويلية، وهذه الصيغة تقابل الكلمات الأوربية المنتهية ism. المشكلة كامنة فى دلالة هذه الصيغة أيضا على العلوم ومجالاتها وذلك مثل استخدام كلمة الألسنية أى علم اللغة والاجتماعية أى علم الاجتماع، وكذلك الصوتمية والصرفية، والتركيبية، والمعجمية، بدلا من علم الأصوات، علم الصرف، علم التركيب، علم المعجم، وينطبق هذا أيضا على مصطلح الأسلوبية بمعنى علم الأساليب. ويرفض كثير من اللغويين استخدام هذه النهاية الواحدة لدلالتين مختلفتين، ويرون تحديد دلالة المصدر الصناعى للتعبير عن المذاهب والاتجاهات.

(ب) هناك ثلاثة أوزان مصدرية تكونت بها مصطلحات جديدة فى علوم اللغة:

– وزن تَفَاعُل، مثل: تعالق، تعامل، تقابل، تماثل، تناوب.

– وزن انفعال، مثل: إنجهاز، انحباس.

– وزن تفعيل، مثل: تصويت، تحنيك.

وهذه الصيغ المصدرية وما يتصل بها من أفعال تفيد كثيرا فى وضع المصطلحات، ولا خلاف عليها من حيث البنية ، ولكن الاتفاق على دلالة كل كلمة من هذه الكلمات المشتقة ضرورى لكى تصبح هذه الكلمات مصطلحات دالة .

٣ ـ الاقتراض المعجمى :

(أ) يتضح الاقتراض المعجمى فى مجموعة من المصطلحات الدالة على علوم جديدة ، ولذا نجد عند بعض اللغويين إفادة من المصطلحات فنولوجيا ، فيلولوجيا ، ونجد عندهم الصيغ المنسوبة : فنولوجى ، فيلولوجى ،وكذلك فيزيائى ، واكوستيكى ، وكرونيم ، وفى حالات كثيرة يستخدم إلى جانب المصطلح المقترض شرح باللغة العربية يقرب دلالة المصطلح فى أحسن الأحوال ، ويصل إلى درجة من الغموض فى أحوال أخرى مثل شرح مصطلح فيلولوجيا بأنه فقه اللغة على الرغم من أن لكل مصطلح منهما تاريخه المستقل الذى يجعله مختلفا عن الآخر .

(ب) تستخدم المصطلحات المقترضة فى تسمية الأجهزة التى يفيد منها الباحثون فى دراسة الأصوات ، ومنها الكيموجراف وأوسيلوجراف ، وفى التعبير عن الطرق المرتبطة بآلة معينة ، ومنها البلاتوجرافيا أى طريقة الأحناك الصناعية .

(ج) هناك مصطلحات مستقرة فى مجامع اللغة العربية ، حاول بعض المغاربة تجنبها بأخذ المصطلح الدخيل وتفضيله على المصطلح العربى ، مثال ذلك مصطلح التأصيل ، فقد ذكر تارة بكلمة ايتيمولوجيا على الرغم من أن المصطلح العربى متداول فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وذلك فى إطار أعمال التأصيل فى «المعجم الكبير» ، وهو أول معجم عربى عام يهتم بهذا الجانب ، ومن حق المجمع أن يسمى عمله .

(د) تكونت عدة مصطلحات مركبة عن طريق الترجمة المباشرة لمكونات المصطلح الأوربى المركب، وهذه الطريقة تعين على الضبط الدولى للمصطلحات ، ولا تعد مشكلة حقيقيـة ، من ذلك ترجمـة مصطلح Harmonie vocalique بمصطلح الانسجام الحركى، ومصطلح Nasal Resonance رنين خيشومى، ومصطلح Substratum طبقة لغوية سفلى . مشكلة هذا النوع تكمن أحيانا فى وجود مصطلح تراثى أبسط من حيث التركيب من المصطلح الأوربى وأوضح فى الدلالة . من ذلك مصطلح المخرج ويقابله Point of articulation أى موضع النطق ، وقد ثبت تفضيل المصطلح العربى الموروث على ترجمة المصطلح الأوربى المركب .

(هـ) بعض المصطلحات مركب على نحو يحذف حرفا من حروف الكلمة الأولى، ويكون من الكلمتين تركيبا يشبه النحت؛ ومصير الكلمات المكونة على هذا النحو ليس أفضل من مصير باقي الكلمات المكونة بطريق النحت في العربية. ولذلك فإن ترجمة المصطلحات الأوربية المركبة المبدوءة بالسابقة Inter قد اقترح له أن يترجم بكلمة بين مع حذف هذه النون النهائية، فيقال بيشخصي Intersubjective وكذلك بينصوصية Intertextualité للدلالة على علاقة النص بنصوص لغوية أخرى، وكذلك بيصائتي ntervocalique . وهذه المصطلحات على الرغم من طرافة الفكرة فهي غريبة على النمط اللغوي العربي في تكوين المصطلحات، ولم يكتب لها القبول عند المتخصصين في علوم اللغة.

ثالثا: المشكلات المصطلحية:

تظهر المشكلات المصطلحية عندما نجد المصطلح المقترح لا يؤدي وظيفته في التواصل بين العلماء في داخل التخصص، إنها ليست مشكلة نابعة من الصحة اللغوية للمصطلح، فما أسهل أن يثبت كثير من اللغويين صحة مصطلحاتهم الفردية ولكنها ضرورة الوضوح والدقة في التواصل العلمي بين أهل التخصص. ويمكن أن نتبين — في الكتب المؤلفة والمترجمة والمعجمات المؤلفة لمصطلحات علم اللغة — المشكلات المصطلحية التالية:

(أ) استخدام المصطلح التراثي لمفهوم جديد مختلف عن مفهومه في التراث، فيحدث لبس عند ورود المصطلح ويجعل القارئ يتردد في فهم المصطلح بين الدلالة القديمة والدلالة الجديدة. وقد يؤدي هذا اللبس إلى سوء فهم تتضح هذه المشكلة مثلا — عندما نستخدم كلمة الادغام تارة بالمعنى القديم وهو إحداث تغير يؤدي إلى التضعيف وتارة بالمحتوى الدلالي لمصطلح Assimilation ويعني إحداث تغير يؤدي إلى تشابه أو إلى تماثل بين صوتين. تتضح هذه المشكلة أيضاً عند استخدام كلمة حرف ترجمة لمصطلح Consonant . وهنا نجد مفهومين مختلفين قد عبر عنهما بشكل لا يميز بينهما. فقد استخدم النحاة العرب كلمة حرف للدلالة — أيضا — على ظاهرة بصرية أي على الحرف المكتوب. والأفضل أن نترك هذا المصطلح لمعناه القديم وأن نستخدم للدلالة على Consonant كلمة أخرى وهي كلمة صامت، وذلك انطلاقا من ضرورة التمييز بين المنطوق والمكتوب. ولا يجوز أن يسمح المصطلح الحديث بتداخل مفهومين مختلفين.

(ب) استخدام كلمتين مختلفتين أو عدة كلمات لمفهوم واحد على نحو يعد هدرا للرصيد المعجمي العربي. وقد دارت أكثر الاختلافات التي تناولناها في المدخل التاريخي حول هذه النقطة، سمي ذلك التخصص: علم اللغة، علم اللغات، الألسنية،

واللسانيات . وسمى البحث الصوتى : علم الصوت ، صوتيات . وسمى البحث المعجمى : علم المعجم ، علم المعاجم : معجميات معجمية . وسمى البحث الأسلوبى : علم الأسلوب ، علم الأساليب ، والأسلوبية . وكثرة هذه المصطحات تعد ظاهرة غير صحية ، ظهرت بمحاولة هدم مصطلحات حديثة مستقرة ، ولم تكن ثمة ضرورة لإعادة النظر فى هذه المصطحات الأساسية التى كانت قد استقرت عند أكثر الباحثين .

شبيه بهذا تعدد المصطحات الدالة على Structuralism : بنائية ، بنيوية هيكلية ، تركيبية ، بنيانية . وهذا التعدد يوهم القارىء بتعدد فى المفاهيم . فليس من اقتصاديات اللغة أن يون لكل باحث فرد أو لكل فئة صغيرة من الباحثين مصطلحاتها المتعددة والمفهوم العلمى واحد .

(ج) استخدام الكلمة العربية الواحدة لمفهومين مختلفين أو أكثر من مفهومين ، ومعنى هذا أن المفهومين المختلفين ينبغى أن نعبر عنهما بمصطلحين متميزين ؛ ولا يجوز أن نستخدم كلمة عربية واحدة لهما معا . مثال ذلك استخدام كلمة السياق والنسبة إليها سياقى ، نجدها تقابل عند بعض اللغويين مصطلح Associative أى اقترانى ، وتقابل أيضا مصطلح Syntagmatic أى تركيبى وتقابل أيضا مصطلح Contextual. وهذا هو الصحيح . أما كلمة لفظ فتستخدم تارة لترجمة Verbal بمعنى قولى وتارة بمعنى Parole للدلالة على استخدام اللغة عند الفرد . إن استخدام الكلمة العربية الواحدة لمفهومين مختلفين يقلل درجة الوضوح ويؤدى فى حالات كثيرة إلى اللبس والغموض .

(د) عدم الإفادة من التراث العربى فى علوم اللغة من حيث النظرية والمصطلح ، وذلك عند محاولة إيجاد المقابل العربى لمصطلحات أوربية . يتضح هذا الأمر عند النظر فى الترجمات المختلفة للحالات الإعرابية . ليس من الدقيق أن يترجم مصطلح Nominative بأنه حالة الفاعلية فالصواب حالة الرفع ، ولا يجوز ترجمة Accusative حالة المفعولية ، والصواب حالة النصب . ولا يجوز ترجمة Dative حالة المعطى له والصواب حالة الجر .

وفى الأمثلة السابقة تراث عربى يميز الحالة الإعرابية (رفع — نصب — جر) عن الوظائف النحوية التى يعبر عنها بكل حالة من الحالات السابقة ؛ الرفع ينطبق على الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ والخبر ، ومن ثم لا يجوز ترجمة هذا المصطلح

بأنه حالة الفاعلية. أما المنصوبات فهى كثيرة ولا تقتصر على المفعول به، ومن ثم لا يجوز أن يترجم ذلك المصطلح بحالة المفعولية. أما اللغات التى تميز بين حالتى Dative و Genitive مثل اللغة اللاتينية واللغة الألمانية فقد استقر عند تدريس هذه اللغات فى مصر أن تسمى الحالة الأولى بحالة الجر والثانية بحالة الأضافة. وهذا وصف شكلى، وهو أدق من عبارة حالة المعطى له، فحالة الجر تستخدم عدة استخدامات لا تقتصر على المعطى له، ومنها أن عددا من حروف الجر فى لغات كثيرة يتطلب وجود الاسم المجرور بعدها. أما الحالة المكانية Locative فهى ليست بالضرورة كلمة مستقلة تعرب ظرفا، ففى اللغة التركية تتكون هذه الحالة بإضافة لاحقة إلى الاسم، ومن ثم فهى حالة إعرابية تقف إلى جانب الحالات الإعرابية الأخرى التى تختلف فى توزيعها من لغة إلى أخرى.

وتظهر هذه المشكلة أيضا عندما يخلط أحد أصحاب المعاجم بين علم الدلالة بالمفهوم الحديث وعلم المعانى بوصفه أحد علوم البلاغة العربية، وعندما لا يميز علم البلاغة وعلم البيان ويجعلهما مترادفين، مع أن علم البلاغة يشمل علم البيان وغيره.

(هـ) هناك أسماء لعلوم إنسانية استقرت فى أكثر المؤسسات العربية بأسمائها الأجنبية منها مصطلح الأنثروبولوجيا. ومع هذا فلا تخلو معاجم المصطلحات اللغوية من مقترحات لإيجاد كلمة عربية لا يستخدمها أهل ذلك التخصص مثل كلمة الأناسية. وأمثال هذه المقترحات تبدو غريبة إذا لوحظ استقرار المصطلح المقترض عند أهل التخصص على نحو يكاد يكون ثابتا. وقد شكلت الكلمات المكونة من العنصر Ethno مشكلة تعددت حلولها بين الأخذ بهذا العنصر والاشتقاق منه، كأن يقال اثنية Ethnisme أو أن يترجم، فكلمة Ethnique ترجمت إلى أصلى، وهذه الترجمة ليست دقيقة لأن الجماعات المهاجرة إلى مجتمع جديد تشكل كل منها مجموعة اثنية ولكنها ليست مجموعة أصلية. وترجم مصطلح Ethnoculturel ثقافى عرقى، والترجمة العربية تركز على العرق أو الجنس، لكن المصطلح الأوربى يركز على الجماعة. ولهذا كله نجد المصطلحات المقترضة المستقرة فى العلوم الإنسانية الأخرى مما يمكن أخذه عند الحاجة إليه فى علم اللغة، حتى لا يكون للمصطلح الأوربى الواحد أكثر من مقابل عربى، فنقع فى هدر مصطلحى ونكون حواجز مانعة للتفاهم بين المتخصصين فى علم اللغة وباقى العلوم الاجتماعية.

(و) ضرورة التوحيد المعيارى لترجمة المصطلحات المركبة فى علوم اللغة جزء من الاتجاه الدولى إلى التوحيد المعيارى لترجمة السوابق واللواحق فى المصطلحات العلمية بصفة عامة. لقد ثبتت ترجمة السابقة Uni فى اللاتينية Mono فى اليونانية بكلمة أحادى فى العربية، ولهذا استقرت المصطلحات التالية فى العربية: أحادى اللغة، أحادى الجانب، أحادى البعد، أحادى المعنى، أحادى المقطع. وعلى النمط نفسه كونت مصطلحات أخرى تبدأ بكلمة ثنائى مثل ثنائى الأصل أو ثنائى الجذر أو المقطع، ومصطلحات أخرى تبدأ بكلمة ثلاثى أو كلمة رباعى أو كلمة متعددة وفى كل هذه المصطلحات ذات المكون العددى أخذ نمط تركيبى مكون من كلمة دالة على العدد ومضاف إليه فى الاستقرار. وشبيه بهذا ترجمة السابقة Iso وتترجم عدة ترجمات، منها تكوين مصطلح مركب يبدأ بكلمة متماثل أو تماثل، وعلى هذا Isomorphe متماثل الشكل Isomorphisme تماثل شكلى أو تماثل مورفيمى. ويتطلب التوحيد المعيارى لترجمة السوابق واللواحق جمعها وإيجاد المقابل العربى الموحد لها.

يتطلب التوحيد المعيارى أيضا تدوين المصطلحات المقترضة بطريقة موحدة لا تعكس بالضرورة نطق كل المناطق العربية، فاللبنانيون ينطقون الفتحة الطويلة ممالة ويكتبونها بالألف، يتضح هذا فى أسماء الأعلام فبدلا من ميشيل يكتبون ميشال، ولكن المشكلة تظهر عند كتابة مصطلح Phonème يكتبها أكثر العرب فونيم ويكتبها بعض اللبنانيين فونام ولما كانت أسماء الأشخاص غير قابلة للتغيير من هذا الجانب فإن التوحيد المعيارى لنظام كتابة المصطلحات يعد ضرورة من أجل سهولة التواصل وعدم اللبس.

(ز) هناك مصطلحات تتجاوز مجال علم اللغة العام، وإن كانت مألوفة عند المتخصصين فى علم اللغة المقارن وعند المعنيين باللغات وتوزيعها فى العالم القديم والمعاصر. وما أكثر الأخطاء التى تضمها المعجمات المتخصصة فى مصطلحات علم اللغة عند ذكرها لأسماء اللغات. نجد من أمثلة هذه الأخطاء تسمية الجماعات اللغوية المحلية فى داخل المنطقة العربية بأسماء ليست لها نقلا عن اسمها عند الأوربيين، من هؤلاء البجة أو البجاة الذين يعيشون فى شمال شرق السودان ومنهم جماعات قليلة فى مصر، فقد ذكر هؤلاء على أنهم البلجية، وفى معجم آخر: لغة البيجا، ومثل هذا عند ذكر الدنقلاوية نسبة إلى دنقلة فقد ذكرها أحد المعاجم الدنغولية Dongolais، أما اللغات النيلية فقد ذكرت على أنها النيلوتية Nilotique. وتصدق هذه الملاحظة على أسماء الجماعات اللغوية فى داخل العالم الاسلامى، فاللغة الآذرية نسبة إلى أذربيجان ذكرت فى أحد المعاجم باسم الآزيرية Azeri

وتتعدد الأخطاء فى تسمية اللغات ، فلا يمكن مثلا تسمية اللغة المقدونية باسم الماسيدونية. ومع مراعاة تنوع بعض أسماء اللغات بتعدد اللغة المصدر كما نجد فى تسمية اللغة البولندية باللغة البولونية وفى تسمية اللغة المجرية – أيضا – باسم الهنغارية ، فإن هذه الأسماء جزء من المصطلحات ويتطلب توحيدها الاتفاق على صيغ موحدة – قدر الإمكان – لأسماء اللغات واللهجات. أما الخلط بين لغتين مختلفتين فنجده مثلا عندما يذكر أحد المعاجم الليتونية ويعنى لغتين مختلفتين هما اللتوانية واللتية. وثمة أخطاء فى المعلومات تؤدى إلى أخطاء فى نقل المصطلحات ، فمصطلح Attique ويعنى الأتيكية نسبة إلى أتيكا وهى المنطقة التى تقع فيها أثينا نقل على سبيل التجاوز إلى الأثينية ، والصواب الأتيكية فلم تكن هذه اللهجة مقصورة على أثينا .

أما غياب كثير من أسماء اللغات الأفرو آسيوية واللغات العالمية الكبرى ولغات الجماعات غير العربية فى العالم العربى ولغات الجماعات الاسلامية التى تربطنا بها علاقات وثيقة فيعد من القصور الواضح فى أكثر المعجمات التى تذكر بعض هذه اللغات دون منهج واضح وتذكر عنها معلومات ناقصة ، وذلك مثلا كان ينسى أحد أصحاب المعجمات أن الأرامية مازالت تستخدم عند نحو ربع مليون فى شمال العراق مكتفيا بعبارة خاطئة تنص على أنها لغة سامية بائدة استخدمت فى سوريا وشمال العراق فى الألف الثانية قبل الميلاد . وقد تحولت هذه اللغة إلى السريانية فيما بعد . ومثل هذا القصور واضح مثلا فى عدم ذكر العربية الجنوبية فى معجم حافل بأسماء لغات أخرى . وشبيه بهذا ذكر أن اللغة البلوشية مستخدمة حاليا فى بلوخستان (كذا بالخاء ، والصواب بالشين) ولم يذكر مؤلف المعجم أين توجد هذه المنطقة فى دول العالم المعاصر . وهذا جانب مهم فى بناء معجم يضم أسماء اللغات فهى جزء من رصيد المصطلحات .

وقد أدى القصور فى المعلومات عن تاريخ الكتابة إلى نقل مصطلح Syllabaire فى أحد المعاجم المتخصصة نقلا خاطئا ، ذكر أنه : أبجدية مقطعية . والصواب الكتابة المقطعية ، فهو نظام عرفه السومريون والحيثيون والأكاديون ويعد مرحلة سابقة على الأبجدية التى تعنى تدوين كل صوت لغوى مفرد بحرف يكتب به ، على النحو الذى ابتكره الأجريتيون سنة ١٤٠٠ ق.م، وعنهم أخذت أكثر شعوب العالم بطريق مباشر أو غير مباشر فكرة النظام الأبجدى . ولهذا كله تتضح مشكلة اللغات بأسمائها الدقيقة والمعلومات الصحيحة عنها ونظم الكتابة . الأمر الذى يتطلب عند إعداد معجم شامل فى هذا المجال تعاون عدد كبير

من المتخصصين فى هذه المجالات ، وما أكثرهم فى مصر .

(ح) تتطلب الترجمة المعيارية الدقيقة لكتب علم اللغة إلى العربية توحيد الطريقة التى تدون بها أسماء الأعلام من اللغويين. ويلاحظ فى الكتب القليلة المترجمة عدم مراعاة الضوابط التى أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعدم وجود طريقة أخرى موحدة تجعل للشخص الواحد اسما واحدا يمكن أن يذكر به دون لبس . ويكفى أن نشير — مثلا — إلى ثلاث ترجمات لكتاب دى سوسير[1] وفيها ذكر اسم عالم واحد بثلاث صيغ مختلفة (قارن : فريدرش اغسطس وولف ، فردريك أوكست ولف ، فردريك أوجست وولف ، وهو عالم ألمانى واحد وليس ثلاثة رجال) وفى هذا الصدد لا يجوز نطق أسماء الألمان على أنهم فرنسيون ، أو العكس ، ويتطلب الأمر توحيدا معياريا لتدوين أسماء الأعلام من الشخصيات التاريخية والمؤلفين ، ونظلم القارئ إذا طالبناه أن يتصور أن وبلوتس Plautus بلوط Plaute هما شخص واحد وأن ديزوديتز ودياز أسماء لعالم واحد هو Diez . وأن استوف واستهوف Osthoff شخص واحد : ولهذا تعد ايجاد طريقة معيارية موحدة لنقل أسماء الأعلام الأجنبية إلى الحرف العربى ضرورة مهمة عند صنع معجم يهتم بالأعلام فى إطار اهتمامه بالمصطلحات .

(ط) تخلط بعض الترجمات والمؤلفات بين المادة التى تبحث والباحثين المتخصصين فيها . فثمة فرق بين علم اللغة العربية وفيه يسهم باحثون من العرب وغيرهم وعلم اللغة العربى أى جهود العرب فى البحث اللغوى . أما علم اللغة الغربى أو علم اللغة الحديث أو علم اللغة المقارن فالوصف هنا للعلم نفسه وليس للغة . بيان ذلك مثلا أن علم اللغة الغربى بمناهجه المختلفة يحث أكثر لغات العالم ، وليست كل هذه اللغات فى الغرب . ومثل هذا لابد من الانتباه اليه لئلا يحدث خطأ فى الفهم وفى التعبير . وصفت احدى ترجمات دى سوسير العالمين الألمانيين تيودور بنفى T.Benfey و أوفرخت Aufricht بأنهما الباحثان الهنديان ، والصواب أنهما متخصصان فى الدراسات

---

(١) فردينان دى سوسير ، دروس فى الألسنية العامة . تعريب صالح القرمادى ومحمد الشاوش ، ومحمد عجينة . بيروت ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٥

فصول فى علم اللغة العام . ترجمه من الفرنسية إلى الإنجليزية واد باسكين وترجمه إلى العربية أحمد نعيم الكراعين . الأسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ .

علم اللغة العام ، ترجمة يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة النص العربى مالك يوسف المطلبى . بغداد ، آفاق عربية ١٩٨٥ (سلسلة كتب شهرية ، ٣) .

الهندية ، ووصفت الترجمة نفسها العالم الألمانى ليسكين Leskien بأنه الباحث السلافى والصواب أنه متخصص فى اللغات السلافية . وثمة فرق بين المستشرق والشرقى وثمة فرق بين الألمانى والمتخصص فى اللغة الألمانية ، ولايؤدى خلط هذه المصطلحات إلا إلى لبس فى الفهم .

رابعا : آفاق المستقبل :

يتطلب النهوض بعلم اللغة فى المنطقة العربية مقومات كثيرة نقتصر هنا على ما يتصل بالمصطلحات .

(أ) ثبت أن المصطلحات التراثية تشكل رصيدا مشتركا لابد من الإفادة منه على نحو واضح فى إيجاد المصطلحات اللغوية الحديثة ولهذا فمن الضرورى أن تستمر الجهود الجادة التى بدأت فى جامعة القاهرة للدراسة المفصلة لقطاعات محددة من المصطلحات اللغوية فى التراث العربى . لقد تجاوز البحث تلك الرؤية العامة للمصطلحات فى إطار بحث المدارس النحوية . وأصبح الاتجاه الحالى إلى عمل بحوث متخصصة تحصر مصطلحات البحث الصوتى من مظانها فى كتب النحاة واللغويين وتبحث أيضاما يتصل بأعضاء النطق فى كتب الأطباء وما يتصل بالأداء النطقى فى كتب البارعين إلى جانب المصطلحات الواردة فى كتب التجويد . أما المصطلحات الصرفية والنحوية والدلالية والأسلوبية ، فلها مصادرها الكثيرة التى يعتمد عليها فى العمل المعجمى المتخصص .

(ب) اتضح أن أكثر الجهود التى بذلت فى العصر الحديث بالجامعات العربية اقتصرت على المصطلحات الأساسية ولم تتجاوزها إلى مصطلحات أكثر عمقا وتخصصا ، فما أكثر المصطلحات التى لم توضع لها مقابلات على الإطلاق . أكثر الباحثين يبدأون من من الصفر وينتهون قريبا منه . وقد أدى هذا الموقف إلى تعثر جهود ترجمة الكتب الأساسية فى علوم اللغة واكتفى من كان يريد الترجمة بأن يقتبس الأفكار البسيطة فى الكتب المترجمة ويتجنب التفصيلات التى لم توضع للتعبير عنها مصطلحات مناسبة . ولن يتقدم البحث العلمى فى اللغة بهذا الرصيد المحدود من المصطلحات الحديثة . ولذلك فمن المفيد أن تقتحم هذه المشكلة بخطة موحدة لاستكمال الرصيد الحالى من المصطلحات وتلتزم بضوابط موحدة فى وضع المصطلحات وفى تدوين المصطلحات وفى تدوين أسماء اللغات وأسماء الباحثين. ويكون التنفيذ على أساس توزيع واضح لمجالات علم اللغة والمجالات المتصلة به .

(ج) لم يعد من المفيد النظر الجزئى فى المصطلح المفرد بهدف إيجاد المقابل العربى له . فإن الكلمة الواحدة قد تختار عند النظر

فى مصطلح ما ثم تختار مرة أخرى عند بحث مصطلح آخر. وبذلك تكون لمفهوم من مختلفين أو أكثر، ولهذا فمن الضرورى الافادة من الفكرة الأساسية فى علم المصطلحات العام، والتى تقول بضرورة حصر مصطلحات التخصص الدقيق الواحد ووضع مصطلحات لها على النحو الذى يحقق التخالف المنشود ويوضح العلاقات الدلالية المختلفة بين المصطلحات المنتمية إلى مجال واحد أو إلى مستوى واحد من مستويات التحليل.

(د) تعددت التخصصات الدقيقة فى إطار علم اللغة العام وفى إطار علم اللغة التطبيقى وفى المجالات التى تربط علم اللغة بالعلوم الأخرى وما أكثر هذه الفروع. ولهذا فقد يكون من الضرورى فى هذه المرحلة التخطيط لحصر المصطلحات فى داخل كل تخصص دقيق وايجاد المقابل العربى لها. وليس من المفيد أن يتصدى باحث واحد لكل هذه القطاعات والفروع التى يزيد عددها عن عشرين فرعا متخصصا، وقد آن الأوان للقيام بمشروع طموح لترجمة مصطلحات العلوم اللغوية على أساس أعمال فردية متخصصة تتكامل، وتراجع، لتصبح ذات قيمة مرجعية أمام المتخصصين والمعنيين.

(هـ) لم تعد المعجمات التى تخلو من التعريفات مفيدة للقارئ فالمعجمات المتخصصة التى تكتفى بالكلمة ومقابلها تجعل القارئ يحمل فى حالات كثيرة دلالة كلمة فى لغة ما على كلمة أخرى فى لغة ثانية متوهما أنه فهم المعنى، ولهذا فإن بعض المعجمات الأوربية المتخصصة فى علوم اللغة تذكر المصطلح بأكثر من لغة مع بيان دقيق للمحتوى فهى فى الواقع معجمات موسوعية متخصصة[1]، ولم يصدر بالعربية معجم متخصص من هذا النوع لمصطلحات العلوم اللغوية.

(و) من المفيد أن يستمر العمل التسجيلى لتدوين المصطلحات اللغوية المستخدمة فى الكتب والدوريات المتخصصة والدوريات الثقافية، ومنها أيضا تلك المصطلحات التى أصبحت جزء من اللغة العامة. وهذا العمل مختلف عن وضع معجمات معيارية، وإن كان عمل هذه المعجمات لا يتيسر قبل القيام بالعمل التسجيلى.

(ز) من الضرورى وضع المصطلحات المعيارية موضع التنفيذ فى إطار خطة متكاملة لترجمة المؤلفات الأساسية فى علم اللغة إلى العربية، إلى جانب الكتب الأساسية فى المجالات المتصلة به وفى مقدمتها: علم اللغة التطبيقى، وعلم الأسلوب، وعلم اللغة الاجتماعى، وعلم اللغة النفسى، وعلم المصطلحات. وفى هذا كله فإن توسيع قاعدة القراء المعنيين باللغة بحثا

(١) انظر مثلا معجم علم اللغة الذى أعده لفاندوفسكى للمصطلحات بالألمانية والإنجليزية والفرنسية والروسية مع تعريفات وافية ومراجع أساسية بالنسبة لكل مصطلح:

Th. Lewandowski, Lınguistiches Worterbuch. Heidelberg, uelle & Meyer, 1976 (1, 2 3).

وتطبيقاً من شأنه أن ينشر هذه المصطلحات الموحدة ويهذب شوائبها ويصقلها بشكل نهائى .

(ج) هناك مصطلحات ترد فى كتب علم اللغة كما ترد فى كتب العلوم الاجتماعية والإنسانية ، وهناك مصطلحات تصل علم اللغة ببعض العلوم الطبية والفيزياء وعلم الحاسب الآلى ، ومن المفيد هنا أن تكون الإفادة متبادلة فى هذه المجالات . وقد آن الأوان لأن تخطط المؤسسات المعنية بالمصطلحات فى مصر وباقى الدول العربية لإنشاء بنك للمصطلحات منعا لتكرار الجهود وحرصا على تكامل التخصصات . ولن يمكن هذا التكامل إلا إذا تحدث المتخصصون بمصطلحات يفهمونها فيما بينهم ويتحدثون بها مع غيرهم ، وحتى لا يجدوا أنفسهم يعقدون ندوة سنوية فى علوم اللغة تناقش فيها قضايا اللغة العربية . وتكون كل بحوثها ومناقشاتها بغير اللغة العربية ؛ على نحو ما يحدث — على سبيل المثال — فى إحدى جامعات المشرق العربى .

محمود فهمى حجازى

الخبير بالمجمع



دلالات مشتركة
بين اللغة العربية والهوسا
للدكتور مصطفى حجازى

هذا البحث هو دراسة دلالية لبعض المعانى المشتركة بين اللغة العربية والهوسا . وقد اعتمدت فيها على ما ورد فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وأقوال العرب والألسنة العامة ، مقارنا بما ورد فى كتب الأدب الهوساوى المذكورة فى نهاية هذا البحث ، وقد قسمتها إلى قسمين :

القسم الأول :

هو المعانى المشتركة التى يعبر عنها بألفاظ أو كلمات عربية . أى أن الهوسا تقترض جملا عربية كاملة وتستعملها كما تستعمل الجمل الهوساوية بعد أن يحدث لها بعض التغير كاستبدال الأصوات المعروفة لديهم بالأصوات العربية غير المعروفة ، والتى يصعب عليهم نطقها كالتخلص من الأصوات التى تخرج مما بين الأسنان على النحو التالى :

/ ث / > س / أو / ت . / ذ / > / ز / ،
/ ظ / > / ز /

أو التخلص من بعض الأصوات الحلقية على النحو التالى :

/ ح / > / ه / ، / خ / > / ه / ،
/ ع / > / أ / ، / غ / > جيما قاهرية .

أو التخلص من صفة الأطباق على النحو التالى :

ص / > / س / . / ض / > / ل / ،
/ ط / > / ت / (1)

---

(1) > تفيد التحول

أو حذف بعض الأصوات وإضافة بعض الأدوات حتى تتناسب مع طبيعة اللغة الصرفية والتركيبية[٢]/ء/.

ويشمل هذا القسم العبارات العربية المقترضة والمعدلة بادخال بعض الأدوات المستعملة فى لغة الهوسا ، كأداة الربط التى تربط المضاف بالمضاف إليه ، والصفة بالموصوف ، واسم الحدث فى حالة المضارع المتعدى بالمفعول به ، وأدوات العطف على النحو التالى :

دفتر الخراج	<	daftari-n haraji
حديث النبى	<	hadisi-n annabi.
جماعة النبى	<	jama'a-r annabi.
صلاة الصبح	<	Salla-r asuba.
إمام جاهل	<	jahili-n liman.
الدنيا والآخرة	<	duniya da lahira.

كما تضاف السوابق الدالة على الزمن إلى اسم الحدث فيقال :

وجب	ya wajaba.
فسر	ya fassara.
يصلى الظهر	yana sulla-r azahar.

أو إضافة حرف جر لتعديه المضارع إلى المفعول به نحو/ء/ :

رضى	ya yarda.
رضى به	Ya yarda da shi.
فهم	ya fahimta.
أفهمهم	ya fahimtad da su.
حضر	ya halarta.
أحضرهم	ya halartad da su

والعبارات التى يدخل عليها التغير الصوتى المحدود مع الإبقاء على النظام المتبع فى اللغة العربية أكثرها دينية كقولهم :

الله أكبر	Alahu akbar
الله أعلم	Allahu a' atlamu
الحمد لله	Alhamdu lillahi
فى سبيل الله	fisabilillahi
إن شاء الله	in sha'allahu
جل وعز	jalla was' azza
لا إله الا الله	la'ilaha illa llaha
تبارك الله	tabarakalla

أو عبارات فقهية كقولهم :

فرض عين	faralu 'ayni

(١) انظر ، الإبدال الصوتى ، الإلصاق الصوتى ، مجلة مجمع اللغة العربية ، العدد ٤٢ ، ٤٤ على التوالى ، والحذف الصوتى ، مجلة الدراسات الأفريقية العدد السابع ، القاهرة .

(٢) تستعمل الفصلة / ء / للدلالة على صوت الهمزة .

فرض الجماعة faralar jama'a

فرض كفاية faralu kifaya

أو عبارات بلاغية كقولهم :

أبد الآباد abadul abadi

بلا حد bila haddin

بشق الأنفس bishikil anfus

كثلك ألف أى أنها تساوى ألفاً

Kamisliki alfun

مثقال ذرة miskala zarratin

سلس القياد SassulḲyadi

والعبارات التى تدل على تغلغل الحضارة العربية الإسلامية فى غرب أفريقيا كقولهم :

البحر المالح bahar maliya

البحر المحيط baharul muhid

بيت المال baytulmali

دفتر الخراج daftarin haraji

القسم الثانى :

وهو المعانى المشتركة التى يعبر عنها باستعمال كلمات هوساوية وعربية . أو هوساوية فقط ومن أمثلتها :

*** عقد** daura

تستعمل كلمة عقد فى اللغة العربية إستعمالا حقيقيا بمعنى ربط فيقال « عقدت الحبل » أى ربطته . كما تستعمل فى لغة الهوسا نفس الاستعمال فيقال

na daura masa sirdi

ربطت له سرج الحصان .

na daura littafi ga kaya.

ربطت الكتاب مع المتاع .

وتستعمل فى اللغة العربية استعمالاً مجازيا بمعنى الزواج أو النكاح كما ورد فى قوله تعالى :

«ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » البقرة آية ٢٣٥

وقوله تعالى :

« وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح . وأن تعفوا أقرب للتقوى » . البقرة آية ٢٣٧

وتستعمل فى لغة الهوسا نفس الاستعمال المجازى أى بمعنى تزويج المسلم بالمسلمة فيقولون .

Bayan an daura aure gari na wayewa.

بعد أن عقدوا النكاح طلع الفجر .

وتستعمل استعمالا مجازيا فى اللغة العربية للدلالة على العزم أو اتخاذ القرار فيقال « عقدت النية على السفر إلى القاهرة » أى قررت أن أسافر إلى القاهرة . ونفس الاستعمال المجازى نجده فى لغة الهوسا فى قولهم :

yanzu ka dauri anniya ka tafi birnin Ḳib.

الآن اعقد النية على الذهاب إلى مدينة قب .

ya daura anniyar fada musu.

عقد النية على أن يحاربهم .

* **على عين** a idon

العين فى اللغة العربية هى حاسة الرؤية وتستعمل استعمالا حقيقية كما ورد فى قوله تعالى :

« وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع » سورة المائدة آية ٨٣

وقوله تعالى :

« فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » الأحزاب آية ١٩

وقوله تعالى

ألهم أجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها » الأعراف آية ١٩٥

وكذلك تستعمل استعمالا حقيقيا فى لغة الهوسا فيقال

idanunsa sana bude

عيناه مفتوحتان :

haki ya fada mini a ido.

دخل القذى فى عينى :

وتستعمل استعمالا مجازيا مسبوقة بحرف الجر « على » للدلالة على علانية الأمر وقد ورد هذا الاستعمال فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« قالوا فأتوا على أعين الناس لعلهم يشهدون » الأنبياء آية ٦١ ، ويقول العرب فعلت ذلك « عمد عين » إذا تعمدته بجد ويقين ، وكذلك فعلت عمدا على عين — أى علانية — قال خفاف بن ندبة السلمى :

وإن تك خيلى قد أصيبت صميمها

فعمدا على عين تيممت مالكا[1] .

وتستعمل نفس الاستعمال المجازى فى لغة الهوسا فيقولون

duk abin da suka fadi a idon jama'a

كل ما قالوه على أعين الناس « أى علانية .

a idon jama'a ya ci mini mutunci.

نال من انسانيتى على أعين الناس .

a idon jama'a ya buge shi da sanda.

ضربه بالعصا على أعين الناس .

---

(١) الصحاح مادة عين .

*** مس** taba

تستعمل كلمة مس فى اللغة العربية إستعمالا حقيقيا فيقال . مسّ الثوب أى لمسه بيده ، وتستعمل نفس الاستعمال فى لغة الهوسا فيقال

Kada ka taba littafin man.

لا تمس هذا الكتاب .

كما تستعمل استعمالاً مجازيا للدلالة على الضرر والأذى فيقال به مس من الجن أى أصابه الجن بالضرر والأذى ، وقد وردت بهذا المعنى فى القرآن فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : « وأذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسّنى الشيطان بنصب وعذاب » « سورص آية ٤١ »

وقوله تعالى :

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » ، الأعراف الآية ٢٠١

وقوله تعالى :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ » البقرة آية «٢٧٥»

وتستعمل فى لغة الهوسا نفس الاستعمال المجازى فيقولون

Da ma aljannu ne suka taba shi.

لقد مسّه الجن

Larai aljannu ne suka taba ta

لقد مسّ الجن لارى .

*** أخـذ** Kama. dawka

الأخذ هو النقل من مكان إلى مكان آخر فيقال أخذت الكتاب أى نقلته من مكان ما إلى حوذتى . وأخذت منه المال أى انتقل المال من يده إلى يدى .

وتستعمل كلمة « أخذ » فى القرآن الكريم فى معناها الحقيقى فى آيات كثيرة منها قوله تعالى :

« سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم » الفتح آية ١٥

وقوله تعالى :

« ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيما . » الفتح آية ١٩

وقوله تعالى :

« قال معاذ الله أن نأخذ إلامن وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون » يوسف آية٧٩ .

وقوله تعالى :

« وأما السفينة فكانت لمساكين يعماون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . » الكهف آية ٧٩ .

وتستعمل كذلك في لغة الهوسا إستعمالا حقيقياً فيقولون : :

ya ḍauki Kaya zuwa Kano.

أخذ المتاع إلى مدينة كانو

ya ḍauko kudin man ya kidaya.

أخذ المال وعَدَّهُ .

ya samo dogwayen sanda guda shida ya rarraba musu.

وجدت عصى طوال فقسمها عليهم .

وتستعمل كلمة « اتخذ » متعدية إلى كلمة « عهد » إستعمالا مجازيا فيقال « اتخذ عهداً » « أى تعهد » وترد فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى آيات كثيرة منها قوله تعالى :

« أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً أطّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً » مريم آية ٧٨ .

وقوله تعالى « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » . مريم ٨٧

وقوله تعالى : « اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده » البقرة آية ٨٠ .

وتستعمل نفس الإستعمال المجازى فى لغة الهوسا فيقال :

na ḍauka alkawari.

اتخذت عهداً .

ya ḍauki alkawari zai yi yaki

اتخذ عهداً بان يحارب .

Ina alkawarin da ke ḍauka ?

أين العهد الذى اتخذته ؟

وتستعمل إستعمالا مجازيا كذلك فتأتى متعدية كلمة « سبيل » للدلالة على السير كما ورد فى قوله تعالى :

« فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً » سورة الكهف آية ٦٠ .

وقوله تعالى : « واتخذ سبيله فى البحر عجباً » الكهف ٦٣ .

وتستعمل نفس الإستعمال المجازى فى لغة الهوسا فتأتى كلمة ya kama متعدية إلى hanya فيقولون :

ya kama hanyarsa ya mufi gida.

اتخذ سبيله وقصد المنزل .

Kowa ya kama hanyarsa

كل اتخذ سبيله .

وتستعمل استعمالاً مجازيا للدلالة على النوم كما جاء فى قوله تعالى : « لا تأخذه سنة ولا نوم » البقرة آية ٢٥٥

وتستعمل نفس الاستعمال فى لغة الهوسا فيقولون . barci ya dauke shi
أخذه النوم .

وتستعمل كذلك استعمالاً مجازيا متعدية إلى كلمة «روح» للدلالة على الموت فيقال أخذ ملك الموت روحه أى مات ، وتستعمل نفس الإستعمال فى الهوسا فيقولون
Allah ya dauki ransa.

أخذ الله روحه أى مات.

*** ضرب** buga

تستعمل كلمة «ضرب» فى اللغة العربية استعمالا حقيقياً وقد وردت فى آيات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى :

«وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .» البقرة آية ٦٠ .

وقوله تعالى : «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .» الشعراء آية ٦٣

وقوله تعالى : «واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن» النساء آية ٣٤ .

وتستعمل كذلك فى لغة الهوسا إستعمالا حقيقياً فيقال
ya buge shi da sanda.

ضربه بالعصا

Da ka ga ya tsaya. sai ka dauki kulki ka yi ta bugunsa.

عندما تراه يقف ، خذ عصاً غليظة واضربه كثيراً .

Da ganinsa Isa ya tashi ya yi ta bugunsa

بمجرد رؤيته قام عيسى وضربه كثيراً .

وتستعمل إستعمالا مجازياً للدلالة على السعى فى الأرض إبتغاء الرزق وقد وردت بهذا المعنى فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : «وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا .» النساء آية ١٠١

وقوله تعالى : «علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله» المزمل آية ٢٠

وقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانو عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم .» آل عمران آية ١٥٦ .

وتستعمل نفس الاستعمال المجازى فى لغة الهوسا فيقال

Ba inda ba ya bugawa har birnin sin ya tafi.

لم يوجد مكان لم يضرب فيه حتى بلاد الصين ذهب إليها .

Sau biyu yana bugawa hai zuwa
Masar don neman ilmi.

سيذهب مرتين إلى مصر لطلب العلم .

Na bugi gabas na bugi yamma ban same shi ba.

ذهبت شرقاً ، وذهبت غرباً فلم أجده .

وتأتى كلمة ضرب فى اللغة العربية كمصطلح علمى فى مجال الحساب للدلالة على تضعيف العدد فيقال

إذا ضربت ٥×٦ صار الناتج ثلاثين .

وتستعمل فى لغة الهوسا نفس الإستعمال فيقال .

In Ka buga uku cikin goma su
zama talatin.

إذا ضربت ثلاثة فى عشرة صارت ثلاثين

In ka buga ɗaya sau goma Sai ya zama
goima.

إذا ضربت واحدا فى عشرة صار عشرة.

وتستعمل فى اللغة العربية بمعنى سك العملة أو ختم بالخاتم فقد كان يكتب على العملة الفضية « ضرب فى القسطنطينية أى سكت أو طبعت فى القسطنطينية » وتستعمل نفس الإستعمال فى لغة الهوسا فيقال

ya buga hatimi akan takarda.

طبع الخاتم على الورقة .

Am buga mini takardun gayyatar biki.

طبع لى تذاكر الدعوة للفرح .

*** جف القلم** Alkalami ya bushe

إذا أراد الإنسان أن يعبر عن إنتهاء الأمر أو نفاذ مشيئة الله قال « جف القلم » وقد وردت هذه العبارة فى حديثين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عبدالله بن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأ ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله »

رواه الترمذى فى سننه .

وجاء سراقة بن مالك بن جعشم قال « يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيما العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل قال : لا فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير. » رواه مسلم فى صحيحه .

وتستعمل نفس العبارة فى لغة الهوسا للدلالة على نفس المعنى فيقال :

Ladid ba ta nemi taimako ba sai da
alkalami ya bushe.

لديدى لم تطلب المساعدة إلا بعد نفاذ الأمر :

alkalami ya bushed

جف القلم أى نفذ الأمر .

※ النداء للصلاة Kiran salia

تستعمل عبارة « النداء للصلاة » بمعنى الأذان وهو الدعوة للصلاة ويقال « نودى للصلاة » أى أذن المؤذن للصلاة وعليه قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » الجمعة آية ٩ :

ويستعمل نفس الإستعمال فى لغة الهوسا فيقال :

aka yi kiran salla.

وهى ترجمة حرفيه لقولنا « نودى للصلاة » .

Garba tashi ana Kiran sulla.

يا أبا بكر قم ينادى للصلاة

ya kasa barci don murnar har aka yi karni salla.

عجز عن النوم لشدة الفرج حتى نودى للصلاة :

※ الله قدر Allah ya Kaiddara

من شروط الإيمان بالله « الإيمان بالقدر خيره وشره وامتثالا لهذا الأمر يستعمل المسلمون عبارة « الله قدر علينا هذاالأمر ويستعمل الهوساويون عبارة » Allah ya Kaddala وهى ترجمة حرفية لقولنا « الله قدر » يقولون

Allah ya kaddara wannan al'amari bisa gare mu.

الله قدر هذا الأمر علينا .

Cewa haka Allah ya kaddara

إنه هكذا قدر الله .؟

hakika yadda Allah ya kaddara abu duk yake faruwa.

وهو ترجمة حرفية لقولنا « حقيقة وقع الأمر كله كما قدر الله» ودائما يسبق القدر التمنى فقد كتبه الله سبحانه وتعالى علينا منذ الأزل وللدلالة على هذا المعنى يقال فى الهوسا .

Kaddara tu riga fata.

وهو ترجمة حرفية لقولنا « القدر سبق التمنى »

Amma kaddarar Allah ta rigaya ta cika.

أما قدر الله سبق ووقع .

※ بكاء حارا Kuka mai zafi

إذا حزن الإنسان حزناً شديداً يعبر عن ذلك فى اللغة العربية بقولهم « بكى بكاء حاراً » وهذه العبارة تترجم حرفياً إلى لغة الهوسا فيقال .

ya yi kuka mai zafi

بكى — بكاء — حاراً .

Da Au du ya mutu Tanko ya yi kuka mai zafi

عندما مات عبده بكى تنكو بكاء حارا .

✻ ايقظ الهمة — ta da himma

إذا نشط الإنسان فى أداء عمل من الأعمال أو حرك مشاعر الناس وقلوبهم لأداء عمل من الأعمال بهمة ونشاط قيل أنه «أيقظ الهمة» ونفس المعنى يعبر عنه فى لغة الهوسا بقولهم

ya ta da himma

وهى ترجمة حرفية لقولنا «أيقظ الهمة» يقال .

Lade ya ta da himmar karatu.

لادو نشط فى الدراسة .

Bera ya ta da himma

نشط الفأر فى عمله .

✻ عين الرحمة — idon rahama

وإذا أظهر الإنسان العطف والشفقة على إنسان آخر يعبر عن ذلك فى اللغة العربية بقولنا «نظر إليه بعين الرحمة» وتستعمل لغة الهوسا نفس العبارة للدلالة على الشفقة والرحمة فيقولون :

Soja ba ya duban mutum da idon rahama.

الشرطى لا ينظر للإنسان بعين الرحمة .

Ana dubansa da idon rahama.

ينظر إليه بعين الرحمة .

✻ باب الرزق — kofar arziki

وإذا أراد الإنسان أن يدعو لأخيه بالثراء والغنى «قال فتح الله لك أبواب الرزق» ونفس العبارة نجدها فى لغة الهوسا فى قولهم

Musa da ya shiga kasuwa Alla ya buda masa kofar arziki.

عندما دخل موسى السوق فتح الله له باب الرزق .

Allah ya buda mana kofar arziki.

فتح الله لنا باب الرزق .

✻ فى الحساب — Cikin lissafa

وإذا أراد الإنسان أن يظهر أنه لا يهتم بالأمر ولم يقم له وزنا قال «لم نضعهم فى الحساب إذ لم نحسب لهم حساباً»

وهكذا يقال فى الهوسا .

Ba mu mus sa su cikin lissafi.

لم نضعهم فى الحساب .

Ban ɗauki Garba mutum ne ba saboda haka ba na sa shi a cikin lissafi

لم أعتبر أبا بكر إنسانا لذلك لا أضعه فى الحساب .

✽ لا هم هنا ولا هم هناك

ba su nan ba su ean

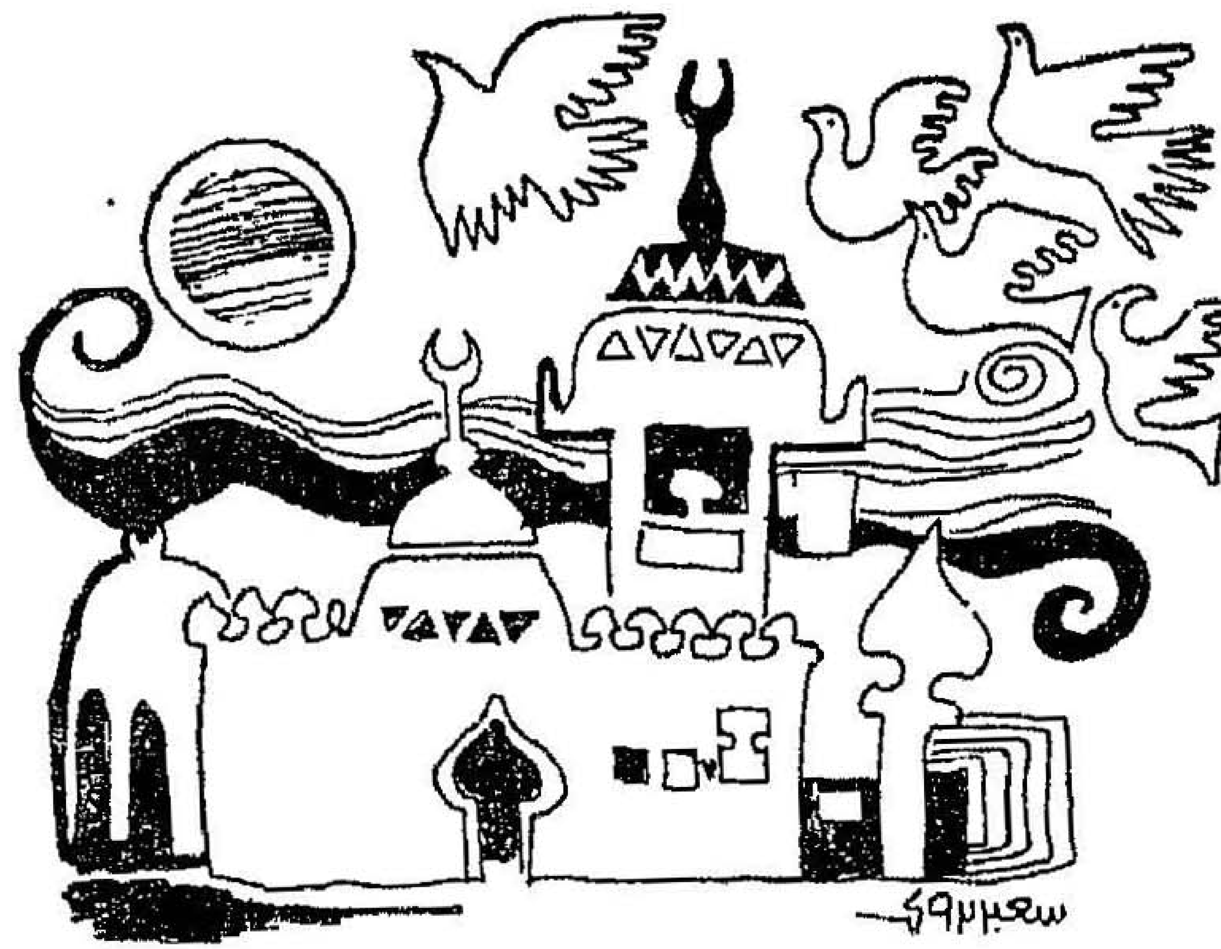
تستعمل عبارة « لا هم هنا ولا هم هناك » فى اللغة العربية مرادفة لقولنا « لا فى العير ولا فى النفير » أى لا أهمية لهم ، ولا مكان لهم فى المجتمع ، ونفس المعنى يعبر عنه فى لغة الهوسا بقولهم .

ba su nan ba su can

وهى ترجمة حرفية لقولنا ، « لا هُمْ هنا ، ولا هُمْ هناك » ويبدو أنه إستعمال شعبى عامى.

وهكذا إذ تتبعنا المعانى المشتركة بين اللغة العربية والهوسا نجد الكثير منها ، وما ورد فى هذه الدراسة القصيرة مجرد نماذج فقط لهذه الظاهرة اللغوية المشتركة .

مصطفى حجازى
أستاذ لغة الهوسا وآدابها
معهد البحوث والدراسات الافريقية



ثلاثة من المستعربين

للدكتور حسين مجيب المصري

لو أننا قلنا إن غير العرب من المسلمين أثروا فى أعماق تراثنا وأبعاده بعمومه الإسلامى وخصوصه العربى ، لما علمنا ما لم نعلم ولا قدمنا إلى معروف القوم ومألوفهم مزيدا ولا جديدا . فنحن جميعا على ذكر من قوله لابن خلدون يؤخذ منها أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، ذلك إلى أن العرب فى صدر الإسلام لم يكونوا أهل تعليم ولا تدوين ، فما كادت حاجتهم تمس مسا شديدا إلى مثل هذا لأنهم كانوا فى غنية عنه بالأخذ المباشر عن كتاب الله المبين وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم . ولكن من يوم دولة بنى العباس فما بعد . مست الحاجة إلى وضع تفاسير القرآن وتقييد الحديث وكل ما هو متصل بها يقرب مآخذها وييسر منها كما فسدت الألسنة لاختلاط العرب بالفرس فاحتيج إلى تقويم لسان العرب بشتى العلوم . كما تعلم الفرس العربية ودخلوا فى دين الله أفواجا . فكان من الحتم عليهم أن يضعوا من التآليف والتصانيف ما يعينهم على تعلم لغة القرآن والشرع ، وبذلك تعددت العلوم اللسانية والدينية وأحاط المسلمون بالأصول والفروع وترتب على ذلك الأمر قيام كيان مرموق للمعارف على تباينها وتشعبها . والفضل على الأخص لمن لم يكن لهم فى العرب نسب ، وإن أصبح العرب وغير العرب فى الدين والعلم بنى رحم ؟

ولنا أن نضيف إلى ذلك قولنا : إن لغة الضاد أضحت لغة الفرس حتى بعد أن تأتى لهم أن يقيموا لهم دويلات مستقلة عن دولة العباسيين . وعقدوا أكيد العزم على أن يبعثوا حضارتهم الكسروية حية ، وهى التى قضى عليها العرب من قبل . واعتزوا بالفارسية على أنها مظهر لقوميتهم غير أن الفارسية عجزت العجز كله عن الوقوف على قدم المساواة أمام لغة الكتاب والحديث والدين وظلت اللغتان أشبه ما تكونان بكفتين تتراجحان — إلا أن الرجحان كان فى الأعم الأغلب للعربية التى كان العلم بها والتضلع منها أوجب واجب على الفارسى عالما كان أو

بليغا . واقتدر من علماء الفرس على التأليف والتصنيف بالعربية والفارسية فى وقت معا ، كما كان من شعراء الفرس من نظم ونثر بالعربية والفارسية جميعا . وعرف أولئك الشعراء بأصحاب اللسانين . وبتلك الثنائية فى لسانهم إتسع لهم نطاقهم العلمى والأدبى ، وفهم عنهم قولهم من بعد عرب لا علم لهم بلغة الفرس إلى جانب فرس ربما ضعف علمهم بلغة العرب . وتلك نقطة تحول فى تاريخ الحضارة الإسلامية فبعد أن كان التراث الإسلامى فى العربية ليس إلا ، أصبح فى العربية والفارسية . وكان من أعلام هذا التراث الإسلامى عرب وعجم فى قاصية الشرق وقاصية الغرب ومن أصحاب اللسانين من كان مقلا فى الشعر العربى ، وليس له إلا عدد من الصفحات ضمن ديوان كبير من شعره الفارسى مما يدل على أنه إنما نظم فى العربية ذهابا منه إلى المباهاة بسعة علمه بلغة الضاد . كما أن منهم من كان مكثرا وفصاحته فى عربيته تعدل فصاحته فى فارسيته .

وهنا يرد على الخاطر اسم سعدى الشيرازى من أهل القرن السابع الهجرى وهو شاعر ناثر من أعلام الأدب الفارسى الذين استفاضت لهم الشهرة فى آفاق المشرق والمغرب على حد سواء . ولقد حصل العلم فى المدرسة النظامية ببغداد ، وتتلمذ لجهابذة العصر ، وبرز على من زاملوه فى طلب العلم — فكان إذا أحسن فى تفسير الحديث دب دبيب الغيرة فى نفوسهم ، واشتد عليهم أن يكون للفارسى عليهم الدرجة والمنزلة . والظن الأرجح أنه نظم طائفة من شعره العربى أثناء مقامه فى بغداد التى توثقت بها صلته طالبا فى مدرستها النظامية ومدرسا وهو بسبب من ذلك يحمل لها فى نفسه أثرا أطيب من ريح المسك . ولا غرو فقد قضى فيها صدر شبابه عاكفا على الدرس واصلا أسبابه بكل من أقام بها ووفد عليها من أهل العلم والأدب .

ومثل هذا من شأنه لا شك مفسر لنا اختصاصه أياها بأروع ما فاضت به قريحته من شعر عربى . فقد تفجع عليها وتوجع لها بعد أن غلب التتار عليها فسووا بواسق مبانيها بالأرض هدما ، وطرحوا فى دجلة نفائس مكتباتها ، ووضعوا السيف فى أهلها ، وأوردوا موارد الهلاك من فيها من علماء وبلغاء ، وطمسوا معالم حضارة الإسلام على نحو ينفطر له قلب الحجر . وسعدى الشيرازى يعبر عن أثر تلك النكبة التى حاقت ببغداد كعبة العلم وحاضرة حضارة الإسلام آنذاك بقصيدة له عربية تتألف من اثنين وتسعين بيتا ، وهو ناطق عن نفسه وعن كل مسلم لا ريب يجزع لهول الروع مما يقوم دليلا على أن الفجيعة تقطعت لها نفسه حسرات وزلزلتها فى أعماقها فظهر ذلك فى شعوره وتعبيره . لأن القصيدة لا تماسك فى وحدة فالشاعر يتنقل فيها بين أغراض شتى

وإذا طرق معنى خرج منه بغتة إلى معنى آخر. ففي ديباجة القصيدة يبدو حزينا حزينا يتأسف ويتلهف ويقلب كفيه على ما آلت إليه حاضرة الخلافة فيقول :

حبست بعيني المدامع لا تجرى
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبرى
لزمت اصطبارى يوم كنت مفارقا
وهذا فراق لا يعالج بالصبر
بكت جدر المستنصرية ندبة
على العلماء الراسخين ذوى الحجر
مررت بصم الراسيات أجوبها
كخنساء من فرط البكاء على صخر

ويمضى سعدى طويلا فى وصف دمعه المتدفق وقلبه المتحرق ثم ينتقل من هذا العموم إلى الخصوص لتدركه الرقة على الخليفة المعتصم وكان لين العريكة ضعيف البطش. ويأخذه الأسى لمصرعه ووقوع بناته فى الأسر ، ويحز فى نفسه أن يذكر اسم غيره على المنابر ، ويسميه المعصوم ويبشره بأن له أجر الشهداء وعند الله حسن الجزاء ويعود إلى وصف بنات الخليفة وهن يسقن سافرات ، وما لحق برجال دولة بنى العباس من مهانة ومذلة مما تتأذى به نفس كل حر. إلى أن ينطلق على سجيته فى شغفه بالقول فى الحكمة والموعظة وبذل النصح فيغلظ اللائمة على كل جبار فى الأرض ويشير إلى أن الإيام دول والدهر ذو غير ويهيب بالمغرور أن يفيق من نشوة غروره. وبالشامت أن يكف عن جهالته وشماتته ، لأن الدنيا يوم لنا ويوم علينا فهذا الشاعر الفارسى فى واقع الحال مؤرخ ثبت بقصيدته تلك التى لا نعرف قصيدة تعدلها فى مضمونها المفصل. وتعبيرها البين عن شعور المسلمين كافة بمضض تلك النكبة . وما اكتفى بأن ينظم بالعربية فى هذا الصدد . بل شاء أن يجمع بين الحسنيين ، مؤكدا مؤيدا . فنظم بالفارسية قصيدة تعد تتمة للقصيدة العربية فى مضمونها. وكأنما شاء لقوله أن يكون متردد الأصداء فى آفاق المسلمين جميعا على تباينهم فى جنسهم ولسانهم ، وبمثل هذا يجمعهم على وحدة فى شعورهم وتفكيرهم . ولسعدى صيت بعيد بأنه شاعر الإنسانية وأشهر وأكبر أخلاقى فى أدب الشرق الإسلامى. فإلى جانب شعره الفارسى الذى يعده شعراء الفرس مثالا يحتذى ، له كتاب بعنوان كلستان كلمتان بمعنى الروضة ، ويتضمن حكايات قصارا منها ما يستمده من تاريخ المسلمين ، ومنها ما يبتكره لتمثيل والتخييل وعرض المثل والقيم الإسلامية التى بها صلاح أمر العالمين فى دنياهم وأخراهم . وبها يهدى للتى هى أقوم فى نثر فنى رائع يتخلله شعر فارسى وعربى وحكم وأمثال . وبلغ من قيمة ذلك الكتاب أن ينقل إلى لغات الشرق والغرب.

ولأهل الغرب تقدير له على أنه يمثل نزعة إسلامية خاصة . وأخرى إنسانية عامة ، ومبلغ علمنا أنه الكتاب الأوحد من كتب التراث الإسلامى الذى يسمو إلى مثل تلك المكانة عند أهل العلم والأدب فى الغرب خاصة وهم يتخيرون الأمثل والأفضل نموذجا من تراث الإسلام ، فذاك الكتاب جامع للتراث الإسلامى فى شتى جوانبه وأهم مظاهره .

والترتيب بعد سعدى الشيرازى على فارسى آخر هو بهاء الدين العاملى المعروف فى إيران بشيخ بهائى وهو من أهل القرن العاشر الهجرى ومن أصحاب اللسانين . وله واسع الشهرة بالتضلع من الفارسية والعربية والتأليف فيهما جميعا والتبحر فى أفانين العلوم ، وماكان معروفا فى بلاده ليس إلا بل فى الشام والحجاز ومصر كذلك ، وقد تحدث عن نفسه بشعر له فى الفارسية بما ترجمته (أنا وحيد وفريد العصر ومن رقم كاتب القدرة اسمه على كل باب وجدار مقرونا بعلو القدر . بأى ديار مررت تسمع عنى . وبأى أرض أقمت تعرف شأنى) . والعاملى من أكثر شعراء الفرس تطاعماً إلى القرآن . يضمن شعره آيات منه مستمدا حجية لما يقول — كما أن له ستة تصانيف فى التفسير ، منها حل حروف القرآن — وحواشى على تفسير الكشاف — وشرح لتفسير البيضاوى وحاشية عليه . ولقد تمذهب بالتصوف وتبوأ منصب شيخ الإسلام فى أصفهان . وله فضل فى التفسير حقيق بالذكر .

فبينما كان المفسرون يطوعون تفسيرهم لخاص من مذاهبهم كأن يتأثر الصوفى بتصوفه ، والنحوى بنحوه ، والبلاغى ببلاغته ، والاخبارى بأخباره ، مما أقضى ضرورة إلى صرف بعض المعانى عن وجهها وخروجها عن حقيقتها بالتخريجات والتأويلات . جعل بهاء الدين العاملى على نفسه أن يستمسك بالعلم وحده ذلك العلم الذى كان أغلب عليه من الأدب والشعر . فكان استشهاده بالآيات مستقيما وتفسيره لها صحيحا سليما . وقيل عنه إنه شيخ الفقهاء وأستاذ الحكماء ورئيس الأدباء ولما وفد على مصر . استقباله علماؤها وفضلاؤها بالترحاب . وفى طليعتهم السيد البكرى — قيل إنه قال له : يا مولاى أنا درويش فقير فكيف تعظمنى هذا التعظيم . فرد عليه البكرى قائلا : شممت منك رائحة الفضل . وجرت بينهما محاورات وقال كل منهما شعرا رد عليه صاحبه بمثله معارضا مساجلا . . وحقيق بالذكر أن مطبعة بولاق فى أول عهد إنشائها طبعت من تآليف بهاء الدين العاملى ما لم يطبع له فى بلد آخر فطبع له الكشكول والخلاصة وأسرار البلاغة وخلاصة فى الحساب وغير ذلك من بعض ما ألف بالفارسية ككتاب عنوانه نصيحة أهل العلم والحجى بلسان القط والفأر وقال ناشره فى مقدمته إنه يرى وجها للشبه بينه وبين لافونتين — ويذهب إلى أن خيال ذلك الفارسى أوسع وأروع من خيال الفرنسى . ويتجاوز ذلك إلى قوله إن العطاء الروحى

والفكرى لجلال الدين الرومى أكبر وأشهر شعراء التصوف من الفرس يفضل عطاء العاملى فى الجلال ، إلا أن عطاء العاملى يفوقه فى الجمال . ولعل أشهر ما أخرج بهاء الدين العاملى كتاب الكشكول . والكشكول فى الفارسية بمعنى المخلاة . وكأنما شاء صاحبه أن يجعل منه زاد أهل العلم ، لأنه يحتوى أشتاتا من معلومات يتألف منها قوام الثقافة بتمام المعنى . ولقد ألفه أثناء مقامه فى القاهرة ويذهب بعض الدارسين إلى أنه اختار عنوانا فارسيا لكنه عربى رغبة منه فى أن يجمع العرب والفرس فى وحدة ويصل بين التراث العربى والفارسى برابطة ، والتقريب بين هؤلاء وهؤلاء بالتعريف بعادات الفرس وبلادهم والخاص من شئونهم — لعقد الصلات بين أخوة الإسلام من عرب وفرس . وهذا من صنيعه محاولة للمزج بين الثقافة العربية والفارسية . ونزعته الإسلامية تتوضح فى أنه لم يتعصب فى كتابه هذا لمذهب على مذهب ولا لشعب على شعب. وجعل من كتابه أشبه شئ بجامعة للمسلمين أجمعين فذكر البلغاء والفضلاء منهم جميعا من عرب وفرس وترك ،وبذلك أضاف إلى التراث الإسلامى جديدا فى منهجيته وغايته وقيمته .

وبعد هذين المستعربين الفارسيين يتسع المجال لذكر مستعرب تركى هو فضولى البغدادى من أهل القرن العاشر ويعد بحق الأديب الإسلامى بالمعنى الأدق . ولشرح ذلك نقول إن مفهوم الأديب أو الشاعر عند الترك فى العصور القديمة مختلف عنه عند العرب — فالشاعر التركى القديم كان إلى كونه شاعراً كاتبا عالما بشتى العلوم الفعلية والنقلية مؤلفا فى كل فروع المعرفة ، راسخ القدم فى علمه بالفارسية والعربية إلى جانب التركية واسع الإطلاع على أدب العرب والفرس . وتلك صفات تجرى على فضولى الذى نراه أمير الشعر التركى القديم ولا جدال ، وعبقرى الأدب الإسلامى بلا منازع . فقد نظم ونثر وألف وصنف بالتركية والعربية والفارسية جميعا . ويسر له ذلك كونه من أهل بغداد مجمع ثقافات العرب والفرس والترك . نظم فضولى الشعر فى العربية ، وذكر فى مقدمة ديوانه التركى أنه نظم الأراجيز بها . كما قال فى مقدمة ديوانه الفارسى إنه أطرب فصحاء العرب بفنون الشعر العربى وكان النظم بالعربية أمرا سهل المنال سلس المقادة لأنها لغة العلوم التى يستبطن دخائلها ويحيط بأصولها وفروعها . وقيل إن ديوانه العربى يتألف من ثلاثين ألف بيت وهذا ما يستدل منه على أنه كان مكثرا ، خاصة إذا أضفنا إليه ما أورده عرضا من شعر عربى إلى جانب شعر تركى وفارسى فى كتبه المنظومة والمنثورة[1]. وهذا مثال من شعره فى النمط المعروف بالدوبيت :

يا من بسط الأرض وأجرى الأفلاك
أدراك كمالك كمال الادراك
فى الأرض والسماء لا رب سواك
إلانعبد يا واحد إلا إياك

وقمين بالذكر أن الاجماع منعقد على أن سوق الأدب قد كسبت فى العراق فى عهد فضولى، وهو يبين عن ذلك فى شعره التركى ويقلب عليه كفيه محزونا شاكيا، وكان ذلك شأن الأدب العربى والفارسى على سواء فانفراده بالعبقرية يرفعه درجات ويقدمه خطوات ، ويشهد بأنه تميز بما ليس لسواه. وهذا يدل على كثير. وما دمنا فى ذكر فيض خاطره فى الشعر العربى فلنشر إلى كتاب له بالعربية عنوانه مطلع الاعتقاد. وهو كتابه الأوحد فى لغة الضاد. وما هو بكتاب فى الأدب. بل كتاب يجمع بين دفتيه فنونا من المعارف من معقول ومنقول، وتبيانا لشتى التيارات الروحية والفكرية التى ماجت بها البيئات الإسلامية، وما عن له من رأى فيما كان مثارا للجدل وسببا للخلاف. على نحو يبدو فيه بعيد مطرح الفكر يغوص على الحقائق، ويكد الفكر فى الكشف عن الغوامض. فالكتاب علمى بحت لا يخلع فيه صاحبه على كلامه زخرف البلاغة بل يصرف عنايته كل عناية إلى الإفادة التى لا تتحصل إلا فى جعل اللفظ على قدر المعنى. ففضولى فى مطلع اعتقاده أهل علم يجادل ملتزما حدود المنطق. مستمسكا بالحجة آخذا بالمثيقن لا بالمظنون. وبذلك يتكشف عن جانب فيه إضافة إلى جوانبه الأخرى وما أكثرها.

وغنى عن البيان أن مثل هذا من تعدد جوانبه يخرج به عن المتعارف المألوف من شأن العباقرة الذين نادرا ما يبرزون إلا فى فن من الفنون، أما هو فتبريزه فى كثير كثير. أما شعره التركى فهو فيه شاعر القلب وسلطان الألم كما يمكن أن يسمى والشاعر الغنائى الذى لا نعرف له نظيرا فى أدب الترك القديم اللهم إلا فى الندرة. وعندنا أنه أشعر شعراء الفارسية فى زمانه وأكتب كتابها. وما نكاد نعرف غرضا ولا فنا فى الشعر إلا وجدنا له فيه روائع المنظومات فى التركية والفارسية، وكل ماله ينماز بالطابع الإسلامى الحلى. كترجمته إلى شعر تركى أربعين حديثا للنبى صلى الله عليه وسلم عن الفارسية، ونقله إلى التركية نثرا أخبار شهداء أهل البيت رضى الله عنهم — وذكر كل ما فاضت به قريحته نظما ونثرا فى التركية والفارسية والعربية قد تكون فيه الإطالة التى تخشى معها الملالة.

أما ما يستخلص مما سلف القول فيه فهو أن تراثنا الإسلامى تتوزعه اللغات الإسلامية على تعددها لا العربية وحدها. وهذا التراث يتشكل من أصول تنشعب عنها فروع وفروع ومقوماته متداخلة متكاملة متآلفة : وليس من نسبة الفضل إلى غير ذويه قولنا إن غير العرب ساهموا بالحظ الأوفى فى إقامة مرموق الكيان لذلك التراث كما كان من صنيع العرب.

حسين مجيب المصرى
الخبير بالمجمع

الإعراب ظاهرة جمالية

للدكتور عبد الحميد ابراهيم

يورد ابن فارس أمثلة ، تكشف عن أن عامة الأعراب لم يعرفوا نحوا ولا إعرابا . فقد سئل أحدهم : أتهمز إسرائيل : فقال إني إذن لرجل سوء . وقيل لآخر : أتجر فلسطين ؟ فقال : إني إذن لقوى . وسمع بعض فصحاء العرب ينشد :

نحن بنى علقمة الأخيارا .

فقيل له : لم نصبت بنى ؟ فقال : ما نصبته .

فالأعرابي لم يعرف من هذه المصطلحات إلا معناها اللغوى ، الذى يعنى الضغط والعصر فى حالة الهمز ، والشد فى حالة الجر والإقامة فى حالة النصب ، ووقف مستغربا أمام المصطلحات النحوية .

وقد تبدو على هذه الأمثلة مسحة التندر وقد لا يوافق عليها ابن فارس ، ولكنه مع ذلك يرى أن علم النحو ، وإن كان قديما ، فإنه قد درس وأتت عليه الأيام ، وقل فى أيدى الناس تداوله ، حتى جاء أبو الأسود الدؤلى فجدده [1] .

فالإعراب ليس سليقة تجرى على ألسنة الأعراب كما تدعى النبرات الحماسية ، وليس هو شيئا شائعا بين الناس لا يحتاج إلى تعليم ومهارة ، بل هو صناعة اكتشفها أبو الأسود الدؤلى أو غيره . ثم شاعت بين الناس ، حتى أصبحت دلالة الذكاء .

فلو تجرأ أحد وخرج على هذا النسق لتعرض للتندر من النحاة ، والسخرية من النقاد ودنت مرتبته فى كتب الطبقات ، حتى لو كان مجيدا فى جوانب الخيال والتفنن البلاغى وبذلك تحول النحو إلى قيمة شرفية ، تقاس به أقدار المثقفين . ويحرص على التحلى بها جمهرة الأدباء والبلاغيين .

---

(١) المزهر ٢ / ٣٤٥ وقد ولد أبو الأسود الدؤلى بمكة ثم رحل إلى المدينة ، فروى عن عمر وقرأ على عثمان وعلى ، ثم توفى بالبصرة سنة ٦٩ هـ .

وحين تحدثت كتب النحاة عن وظيفة الإعراب ذكرت أنه يؤدى إلى فهم المعنى ، فهى من حيث تشعر أو لا تشعر ، تجعل الإعراب هو اللغة ، فتخلط بين وظيفة اللغة كوسيلة للفهم ووظيفة الإعراب ، الذى استبد وسيطر حتى أصبح هو اللغة نفسها ، وإن اشتقاقه يدل على هذه الوظيفة ، فهو من أعرب الرجل عما بنفسه إذا أبان وعبر عن داخله؛ وذلك لأن بالإعراب تتميز المعانى ويوقف على أغراض المتكلمين ، وذلك أن قائلا لو قال « ما أحسن زيد» غير معرب لم يوقف على مراده ، فإذا قال: ما أحسن زيداً! وما أحسن زيد ؟ أو ما أحسن زيد ؟ أبان الإعراب عن المعنى الذى أراده »[1] ويمضى السيوطى فى نبرة افتخار لم يعترض عليها النحاة قبله أو بعده ، فيذكر أن للعرب فى ذلك ما ليس لغيرهم ، فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى .

إنها القيمة الشرفية إذن التى تميز العنصر العربى ، ويسوق السيوطى الأمثلة التى تدل على تلك الوظيفة ، فهم يقولون : هذا غلاما أحسن منه رجلا ، يريدون بذلك الحال فى شخص واحد ويقولون : هذا غلام أحسن منه رجل ، فهما إذن شخصان . ويقولون : كم رجلا رأيت ؟ فى الاستخبار ، وكم رجل رأيت ، فى الخبر يراد به التكثير ويقولون جاء الشتاء والحطبَ إذا لم يرد ان الحطب قد جاء ، وإنما أريد الحاجة إليه ، فان أريد مجيئهما قال : والحطبُ .

حقا . . . هذا صحيح . ولكن السامع لا يستطيع أن يدرك هذه الفروق الدقيقة إلا إذا عرف الفرق بين ما التعجبية والاستفهامية والنافية ، والفرق بين معنى الحال ومعنى الخبر ، والفرق بين كم الاستفهامية والخبرية والفرق بين واو المعية وواو العطف ، إنه سامع من نوع خاص قد تعلم هذه الرموز وأدرك ما وراء هذه المصطلحات وهى رموز خاصة تحتاج إلى تعلم ، وتساعد على التكثيف والاختصار ، بل وتحولت إلى مهارة ذهنية تقتدر ، وبصورة تجريدية ، على تقليب كافة الاحتمالات العقلية ، مثلما كان يفعل أرسطو مع أشكاله الصورية ، وهى مهارة لا يستطيعها رجل من عامة الناس لم يخالط نحوا أو يتلق إعرابا .

يبقى للاعراب إذن خصيصته ، وهو أنه شئ صناعى ، وراء العبارة فى مدلولها الأول ، ويبقى أن الرجل من عامة الناس يستطيع أن يفهم (الأسم) دون حاجة إلى العلامات التى اخترعها النحاة من جر وتنوين ونداء وال فالاسم هو ما يدل على مسمى ، صديقه أوشارعه ، حتى ولو كان فى الأصل فعلا مثل تأبط شرا ، وهو ليس

---

(١) المزهر ١ ــ ٣٢٩ وما الأولى تعجبية ، والثانية استفهام ، والأخيرة نفى .

فى حاجة إلى أن يعرف المدلول الزمنى للفعل فى المضارع وعن طريق لم أو السين أو أنه يفهم كل ذلك لأنه يتعامل به مع الناس، يفهم منهم ويفهمون منه ، ولا يتوقفون ليبحثوا عن علامات أو ليسألوا النحاة عن المصطلحات.

والسيوطى يرد على هؤلاء الذين يزعمون أن ألفاظ الأضداد تؤدى إلى الالتباس فى المعانى ، فيرى أن كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه(١) .

وهذا حق ، فاللغة العربية مثل أية لغة فى العالم ، إنما تفهم بسياق الكلام دون حاجة إلى إعراب أو منطق ، هاجم أبو سعيد السيرافى منطق أرسطو ورأى أن الناس كانوا يفكرون قبل منطق أرسطو وبعده ، وقياساً على هذا فالناس كانوا يفكرون أيضا قبل الإعراب وبعده ، لأن الإعراب فى ظنى قد لعب فى الحضارة العربية الدور نفسه الذى لعبه المنطق فى الحضارة الإغريقية ، لأنه بناء ذهنى ، أو قل هو ميزان صورى ألقى على الفكر العربى ، فحوله إلى قضايا شغل الناس بتشقيقها ، والكشف عن احتمالاتها ، مثل المنطق الأرسطى الذى جمد الفكر الإغريقى فى أشكاله الصورية .

ولكن هناك فارقا هاما بين الإعراب والمنطق ، فالمنطق اختراع فلسفى قصد به صاحبه وزن ، الفكر ، وصدق الناس هذه النية فأخذوا يتعلمونه لكى يقيموا أفكارهم اما الإعراب فهو موجود فى بنية اللغة قبل أبى الأسود الدؤلى بعده . لأنه ليس اختراعا بل هو خاصية لغوية ، فهم الناس خطأ وظيفتها فى أنها تفيد المعنى ، وإذا كنا هنا نرفض هذا الفهم، فلا يعنى هذا على الإطلاق ، أننا نرفض الإعراب أو تنقص منه ، على العكس نحن نعلى من قدره ، ونبحث له عن وظيفة أخرى لا تقف عند المفهوم المباشر العملى للعبارة ، والتى تجرى فى الأسواق وبين الجماهير ، بل نبحث له عن وظيفه خاصة وراء العبارة يتفهمها علية القوم .

ليكن مفهوم الإعراب هو الإبانة كما يدل الاشتقاق ، ولكن الإبانة فى ظنى ليست فى الكشف عن المعنى اللغوى كما فهم النحاة ، بل هى شئ يتجاوز الوضع اللغوى إلى الإبانه بمعناها الجمالى ، تستخدم (لا) فى حالة النفى فنقول « لا تلعبُ» ونستخدمها فى حالة النهى فنقول (لا تلعبْ) فإن الإعراب هنا لا يكشف عن المعنى المراد من الجملة ، لأن السامع لا يتوقف عند الضمة فيعرف

(١) المزهر ١ / ٣٦٧

أن المراد النفى ، أو عند السكون فيعرف أن المتكلم ينهاه عن فعلهما. إن المراد يفهم من السياق ، وفهم السياق هو الذى يحدد فى خطوة تالية ، فيما إذا كان يجب على المتكلم أن يستخدم الضمة أو السكون ، إن المتكلم استخدم السكون فى ظنى لأنه علامة الجزم ، والجزم فى اللغة هو القطع والحسم والبت ، فناسب أن يأتى فى حالات مثل النهى والأمر والشرط ، أما النفى فهو حالة خبرية لاتحتاج إلى حسم ، بل هى تحتمل الصدق والكذب ، فناسب أن تأتى بلا جزم . أما لماذا أتى النفى مع لم بالجزم (لم يلعبْ) ومع لا بالرفع (لا يلعبُ) ومع لن بالنصب (لن يلعبَ) فلعل الإجابه تتضح بعد دراسة العلاقة الصوتية بين حرف النفى وعلامة الإعراب ، فقد تكتشف صلة ما بين لم التى تنتهى بحرف ساكن وبين سكون الفعل ، أو بين لا التى تنتهى بالمد وبين ضمة الفعل . أو بين لن التى تنتهى بحرف النون وبين فتحة الفعل .

إن الناظر فى فواصل القرآن يدرك أن حركة الإعراب قد تلعب دورا جماليا ، فى الربط بين آيات القرآن . وفى إضفاء روح الانسجام على السورة ، فمثلا سورة الفرقان تتنوع فواصلها بين الراء واللام والميم والنون والباء، وسورة الفتح أيضا تتنوع فواصلها بين النون والميم والزاى والراء واللام والياء والدال ، وهى حروف تختلف فى مخارجها ، ولكن الفاصلة فى السورتين تأتى دائماً بالفتح فتضفى على السورة جوا من الوحدة والانسجام ، يعوض عن اختلاف الحروف فى الفواصل ، بينما نجد سورة محمد مثلا تحتفظ بالفاصلة وهى حرف الميم فى أولها وفى آخرها ، لأنها دائما تأتى ساكنة ، فلازم أن تحتفظ بحرف واحد ومخرج واحد ، حتى لا تفقد السورة جو الوحدة والانسجام .

إن الحس الجمالى تحرص عليه اللغة العربية فى بنيتها وتراكيبها ، وقد تضحى بالقواعد الإعرابية المتعارف عليها ، إذا تخاصمت هذه القواعد مع فكرة الحس الجمالى ، فمن أجل تقريب الصوت من نظير قرأ بعضهم قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » بكسر الدال مع أنه مبتدأ ، وروى بعضهم قول الشاعر :

وقال اضرب الساقين امك هابل .

بكسر الميم فى « أمك » مع أنه مبتدأ ، وقد سوغت الكسرة هنا وهناك لكى تتناسب مع نظيرتها التى وردت قبلها أو بعدها .

وفكرة تقريب صوت من صوت ، لكى تكون الكلمة موسيقية ، يسهل على الأذن التقاطها ، أو بعبارة أخرى فكرة الحس الجمالى فى اللغة العربية ، تكمن وراء كثير من آراء سيبويه ، فى أكثر من موضع فى كتابه ، يتحدث عن تحريك الساكن إذا التقى بساكن آخر ، وأن هذا التحريك واجب ، ويمكن أن يطيح

بالقواعد المتعارف عليها ؛ فتحت عنوان « باب تحرك أواخر الكلمة الساكنة »[1] . يذكر أن التحريك قد يكون بالكسر كما في قوله تعالى « قل هو الله أحد الله »[2] ، وقد يكون بالضم نحو « قل انظروا ماذا في السموات والأرض »[3] وقد يكون بالفتح نحو « الم . الله »[4] .

والتحريك لا يقتصر على آخر الكلمة ، بل يمتد إلى ما قبل الآخر ، فتحت عنوان « باب الساكن الذى يكون قبل آخر الحروف فيحرك لكراهيتهم التقاء الساكنين »[5] يذكر سيبويه أمثلة يتحرك فيها ما قبل الآخر فيقولون في حالة الوقف هذا بُكُرْ ، ويقولون هذا عدِل بكسر عين الكلمة لكى تتناسب مع كسر فائها ويقولون في البُسُر بضم العين لكى تتناسب مع الفاء .

وتحت عنوان « الساكن الذى تحركه في الوقف إذا كان بعده هاء المد »[6] يضرب سيبويه أمثلة على ذلك فيقول « اضربه ومنه ، وعنه » وقال أبو النجم الراجز :

فقرين هذا . وهذا أزحله[7] .

إن فكرة الحس الجمالى تكمن وراء كثير من المشكلات التى وقف عندها النحاة وجادلوا حولها ، لأنهم وجدوها تخالف القواعد النحوية التى تعارفوا عليها ؛ ففكرة الجر بالمجاورة في المثال المعروف « رب جحر ضب خرب » وفى غيره ، لا تحتاج إلى تأويلات كثيرة إذا أدركنا أن الصفة قد خالفت موصوفها في الإعراب من أجل أن تتناسب مع إعراب الكلمة التى تجاورها ، وحتى يمكن أن يكون ذلك سهلا على الأذن وكثير من الحروف التى يعربونها زائدة لا محل لها من الإعراب ، وهى أحرف تتكرر كثيراً في الكلمات العربية ، يمكن أن نجد مبررها في أنها زيادات لراحة الأذن ، كتلك الزخارف التى ترد في الألحان العربية ، لتزيد من إيقاعها وتسهل للأذن التقاطها . إن الذين اهتموا بإعراب القرآن من النحاة القدامى ، لم يعربوا تلك الحروف التى لا تفيد شيئاً في المعنى ، على أنها زائدة . إذ أن القرآن الكريم يتنزه عن الزيادة ؛ وإنما أعربوها على أساس أنها قد اجتلبت لتأكيد المعنى فيما يظنون ، أو على أساس أنها قد اجتلبت لغرض إيقاعى فيما نعتقد .

* * *

---

(١) الكتاب ٤/١٥٢
(٢) ١ ، ٢/الإخلاص
(٣) ١٠١ — يونس
(٤) ١ ، ٢ / آل عمران
(٥) الكتاب ٤ — ١٧٣
(٦) الكتاب ٤ — ١٧٩ .
(٧) أزحله إزحالا : أبعده ، ومنه سمى زحل لبعده .

وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى هذه الوظيفة الجمالية وذكر أن الذى يحدد الحركة الإعرابية ، ليس هو موقع الكلمة فى الجملة بل هو طبيعة الصوت وإيثاره حركة معينة ، أو انسجام تلك الحركة مع ما يجاورها من حركات أخر[1] . إنه باختصار يتحدث عن صفة جمالية للإعراب هى صفة الانسجام ، سواء أكان الانسجام بين حرف وحركة أو بين حركة وأخرى .

ولكن الدكتور إبراهيم أنيس اكتفى بالإشارة السريعة ، ولم يتابع تطبيقات ظاهرة الانسجام ، فيكشف عن كيفية العلاقة بين الحرف والحركة ، أو بين الحركة والأخرى إنه اكتفى بالقول بأن الواو تنفر من الضم والكسر ، وأن الياء تنفر من الكسر .

وأن اللام والعين والنون تؤثر الفتح ، إن ملاحظته صادقة فى دلالتها دون تفصيلاتها ، هى صادقة فى أن للإعراب دلالة جمالية ، ولكن الحرف مهما كانت طبقته الصوتية لا يكتفى بحركة واحدة ، وأن اللام أو العين أو النون قد تكون مرة مضمومة وثانية منصوبة وثالثة مكسورة ، وظاهرة الانسجام وحدها لا تستطيع أن تفسر هذا الاختلاف وربما كان من الأفضل أن تضاف إليها ظواهر أخر ، أشير الآن إلى ظاهرتين منها ، وهما ظاهرتا الرنين والتنوع .

أما ظاهرة الرنين فهى ترتبط بالتنوين وهو فى أشهر أنواعه – أعنى تنوين التمكين – نون ساكنة تلحق آخر الأسماء المعربة دلالة الخفة والتمكن فى باب الاسمية ، كما يقول النحاة ، فالمدخل للإعراب إذن هو التنوين .

والتنوين حرف رنان موسيقى ، وقد تنبه الفارابى إلى خاصيته الموسيقية ، فجعله مثيلا للنقرة القوية . إنه يقسم النقرات إلى ثلاث : قوية ، ومتوسطة ، وخفيفة ؛ والقوية « تشبه التنوين فى إعراب اللسان العربى ، والمتوسطة تشبه حركة الحرف فى لسانهم ، واللينة تشبه إشمام الحركة فى الحركة أو روم الحركة »[2] .

وإذا تجاهلنا بعض أنواع التنوين ، فإننا لا نستطيع هنا أن نتجاهل نوعا من التنوين يدل اسمه على طبيعته الغنائية ، وهو تنوين الترنم ، وقد سمى بذلك لأنهم يترنمون به فى الشعر ، والترنم فى اللغة وهو ترجيع الصوت كما يترنم الحمام والقوس والجندب وكل ما يستلذ صوته[3] .

إن الأذن العربية تستريح للتنغيم الذى يحدثه التنوين ، وقد استثمر القرآن الكريم فى آياته تلك الخاصية ؛ فخلق جواً من الرنين نجد أمثلة له فى الآيات الآتية :

(١) من أسرار اللغة ص ٢٤١ .
(٢) الموسيقى الكبير ص ٩٨٦ .
(٣) المعجم الوسيط مادة (رنم) .

« الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون»(1)«وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان»(2)

وإذا كانت التنوينات هنا تتوالى متماثلة ، والحركة الإعرابية التى قبلها حركة واحدة ؛ وهى النصب فى الاثنين السابقين ، فإن آية مثل قوله تعالى « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا »(3) تختلف فيها الحركة الإعرابية من جر (شىء) فرفع (فاعل) فنصب (غدا) ، فتكسب الإيقاع تنوعا ، وتجعلنا نفترض أن الرفع والنصب والجر قبل التنوين ، إنما هو حالات للتنوين أو أقل بلغة موسيقية لنه تنويعات على اللحن الرئيسى ، تقول « جاء محمد ، رأيت محمدا مررت بمحمد » ، فتحس أن التنوين يكتسب مع الحركة التى قبله حالة خاصة ، يختلف إيقاعها فى الرفع عنها فى النصب وفى الجر ، ولكن متى تؤثر الرفع ومتى تؤثر النصب ومتى تؤثر الجر ؟ نعود مرة أخرى إلى خاصية الانسجام وخاصة بين الحركات التى أشار إليها الدكتور إبراهيم أنس ، والتى تحتاج إلى إحصائيات صوتية ربما تقلب النحو رأسا على عقب .

والأسماء المبنية لا تقبل التنوين ، ومن ثم فهى تلازم حالة واحدة لا تتغير أيا كان موقعها فى الكلام ، أما الأسماء المعربة فهى تقبل التنوين ، لأنها علامة الإعراب كما تقول كتب النحاة . ومن ثم فهى لا تلازم حالة واحدة ، إنها تتغير فى الرفع والنصب والجر . نحن هنا وفى وقت واحد إزاء خصيصتين جماليتين ، خصيصة الرنين الموسيقى الذى يجلبه نون التنوين ، وهو حرف رنان يخرج من الخياشيم ، وخصيصة التنويع التى تعطى النون شكلا موسيقيا ، أو حالة إعرابية ، تختلف فى الرفع ، عنها فى النصب ، أو فى الجر . إن هاتين الخصيصتين تؤخذان معاً لا تنفصلان ، وتكسبان معاً الفصحى رنيناً وتنوعا ، ولأمر ما وضع النحاة ضمتين فى حالة الرفع على آخر الاسم المعرب ، فنقول ، جاء محمدٌ . فترمز إحدى الضمتين إلى التنوين وترمز الأخرى إلى حالة الرفع ، وهى حالة من حالات التنوين ، قد تتغير فيتغير معها الرمز ، فيصبح فتحتين أو كسرتين .

* * *

إن الإعراب فى ظنى يلعب دوراً كبيراً فى إكساب الفصحى جمالية ، تسهل من وقعها على الأذن ، إنه شىء صناعى قد اجتلب

---

(1) ٢٢ — البقرة .
(2) ١١٢ — النحل .
(3) ٢٣ — الكهف .

ليكسب الكلام رنيناً وتنوعاً ، ويكسب الحروف انسجاماً . إنه لا يمكن أن يكون سليقة، فهو يحتاج إلى تفكير ووعى ، وهو لا يأتي لمجرد إفادة المعنى ، فالمعنى يفهم فى سياق الكلام ، والعامية لا تحتاج إلى إعراب ، لكى يتبادل الناس به معانى الكلام . إنهم يفهمون على الرغم من أن أواخر الكلمات ساكنة ، وقد تخلصت من التنوين ومن حالات الإعراب . .

فالإعراب إذن خصيصة من خصائص الفصحى ، يحتاج إلى تعلم ، ولا يقدر عليه إلا الخاصة ، ومن هنا نظروا إليه بتقدير ، واعتبروه « قيمة شرفية » وتحول إلى قالب قاسوا به أقدار الرجال . كما كان الحال على المنطق الأرسطى . الذى تحول إلى قالب صورى . يقاس به الفكر . وتمتحن به صحته ، وأصبح مقياسا شرفيا ، بغض النظر عن قيمته الحقيقية فالفكر موجود قبل المنطق وبعده ، وليس المعيار بالوزن ولكن بقيمة الموزون . هل هو ذهب أو فضة أو نحاس ، كما يقول أبو سعيد السيرافى وهو يعترض على منطق أرسطو .

إن الإعراب شىء خارجى وصناعى ، هو مستوى ثان للغة ، لا يعرفه العامة ، ولا يستطيعونه حتى لو أرادوه . جاء فى الصاحبى « إن الناس لم يزالوا يلحنون ويتلاحنون ، فيما يخاطب به بعضهم بعضا اتقاء الخروج عن عادة العامة ، فلا يعيب ذلك من ينصفهم من الخاصة[1] . لقد ورد هذا النص فى معرض الدفاع عن مالك ابن أنس ، فقد قيل إنه كان يلحن مع العامة . إن هذا النص يشير صراحة إلى مستويين : مستوى العامة ، الذى لا يحرصون على الإعراب فيه ، ومستوى الخاصة الذين يحرصون على الإعراب ، وعلى الظواهر الجمالية .

والعلماء يترخصون فى اللحن متى استعملوا لغتهم اليومية ، وتخاطبوا مع الصغار والتجار والموالى وسائر العوام ، ولكنهم حين ينشدون الشعر ، ويتعاملون على المستوى الخاص ، فإنهم يستخدمون الفصحى ، ويحرصون على خصائصها ، ويعتبرون اللحن ضلالا وكفراً[2] أو على الأقل يعتبرونه جهلا ، يزرى بصاحبه ، إنهم حينئذ يحتكمون إلى « القيمة الشرفية » التى أضفوها على الإعراب .

إن هذا البحث يرتفع بالإعراب إلى كونه قيمة ثقافية ، وينظر إليه كمستوى ثان فى الأداء اللغوى ، يكسب الكلام رنينا وتنوعا ، ويضفى على الحروف انسجاما ، إنه ينفى عنه المستوى الدلالى

---

(١) الصاحبى ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ .

الأول للغة ، فالناس يتفاهمون ولو لم يستخدموا الإعراب ، كما كانوا يفكرون قبل منطق أرسطو .

ومن ثم فلا ينبغى أن ننزعج حين نلاحظ فى حياتنا المعاصرة مستويين . مستوى قد تخلص من الإعراب ، واستراح إلى تسكين أواخر الكلمات ، عملا بقاعدة « سكن تسترح » وهو مانشاهده فى تمثيليات التليفزيون» وعلى خشبات المسارح ، إنه مستوى يلجأ إلى هدفه بأقصر الطرق ، لا يثنى عنه الجمال اللفظى ، ورنين الحروف بقدر ما يهتم بنقل تجربته إلى المخاطب .

أما المستوى الآخر ، فهو الذى يختص باللفظ ، وهو ما نشاهده فى ندوات الشعر ، وفى المسرحيات الكلاسيكية ، وخاصة المترجمة . إن المبدع هنا يحرص على الإعراب ، لأنه يدرك بحاسته الفنية أن الإعراب قادر على خلق الجو الموسيقى ، وعلى اختفاء الرنين والإيقاع والانسجام وعلى الإيهام بجو كلاسيكى ينعش الخيال .

إن هذين المستويين هما امتداد لما لاحظه القدماء ، من أن هناك لغة للحياة اليومية ، يتندر بها الناس ويتفاكهون ، ويخاطب بعضهم بعضا ، وهى لغة قد تخلصت من الإعراب ، ولا يجد العلماء حرجا حين يلحنون بها ويتلاحنون ، لأنهم يريدون أن يفهمهم الناس .

وهناك أيضاً لغة الخاصة التى يتعلمون فيها النحو ، ويحرصون عليه ، حتى يبدو متميزين عن سائر الناس وهى لغة نموذجية « فصحى » ، قد تعرضت للانتقاء والتهذيب .

* * *

إن الإعراب قد تحول إلى نسق رياضى ، مثلما حدث لمنطق أرسطو ، أخذ الناس يميلون فيه إلى التشقيق والمعادلات والأقسام العقلية ، والافتراضات الذهنية والاستمتاع بالحركة الذهنية الصورية ، دون نظر إلى الرصيد العملى الذى ينجم عن كل ذلك .

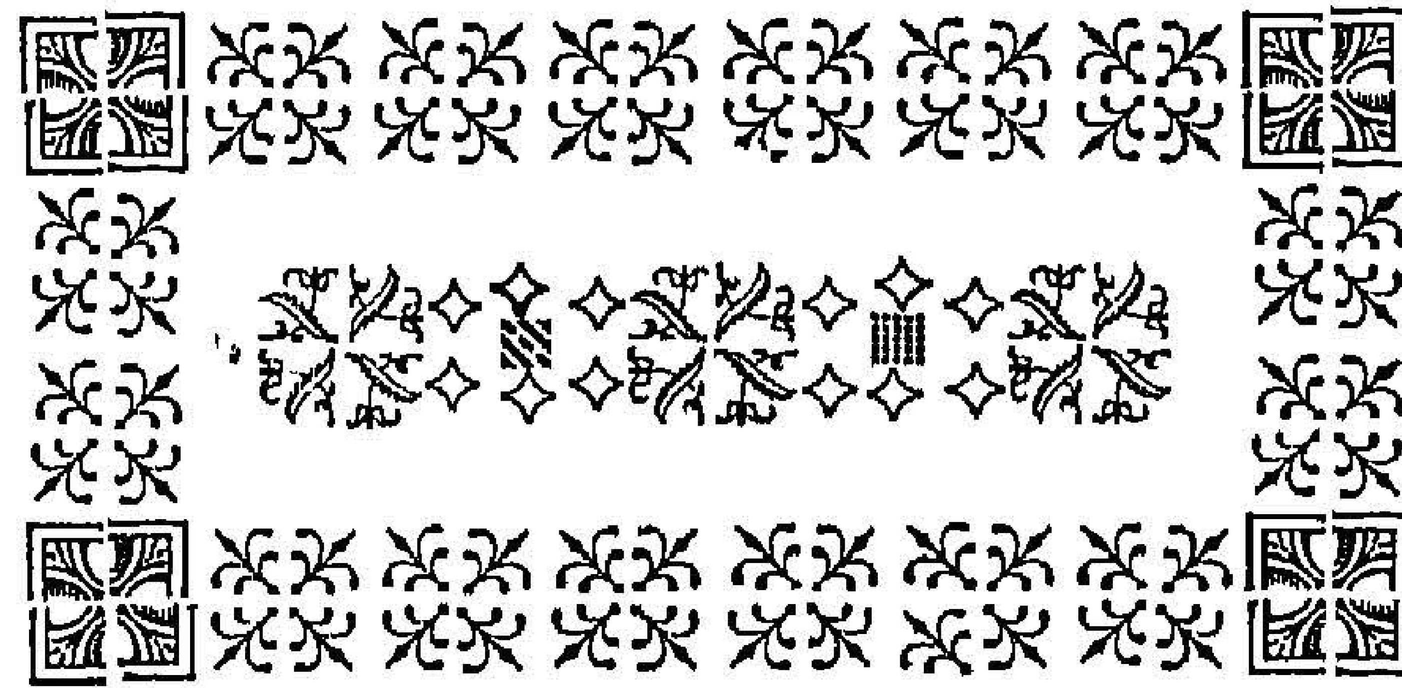
إن الاهتمام بالنتيجة العملية ، سيجعلنا نواجه هذا البناء الصورى الرهيب ، الذى تحول إلى سيف مصلت على رقاب المثقفين والعلماء والأدباء ، وسيمنحنا هذا مواجهة جديدة للإعراب . وسنجد فى النهاية ، وبعيدا عن التشقيقات غير العملية أن الإعراب ليس شيئاً رهيبا ، يخيف الأطفال فى مدارسنا ، ويشيب من أجله العلماء ، فمن الممكن حصره فى دائرة ضيقة فالأدوات المبنية التى تلزم حالة واحدة أكثر إحصائيا من الأدوات المعربة ؛ ففى الأسماء نجد أسماء الإشارة والموصول والضمائر وأدوات الشرط والاستفهام وغير ذلك مبنية ، حتى فى الأعلام نجد الاسم المقصور والمنقوص يلزم فى أغلب أحواله حالة واحدة . حتى وإن أعربه النحاة بحركة مقدرة وفى الأفعال نجد الماضى وفعل الأمر مبنيين

أما المضارع فهو معرب ، ولكنه غالبا ما يميل إلى الرفع ، ما لم تسبقه أدوات محددة ومعروفة ، قد تجعله منصوبا أو مجزوما ، أما الحروف — وهى أكثر أدوات الكلام انتشارا — فهى كلها مبنية .

إن قضية الإعراب قد تضخمت ، لأنها قد تحولت إلى بناء ذهنى ، وإلى قيمة شرفية ، ووجد فيها العقل العربى ما وجده العقل الإغريقى فى المنطق ، فأخذ يستعرض قدراته الذهنية ، فتضخمت القواعد واكتظت كتب النحاة ، ومالت إلى الافتراضات والتفريعات ، وتقبل الناس كل ذلك لأنها تحولت إلى « لعبة عقلية » يستمتع بها العلماء ، ويمارسون من خلالها سطوتهم على الأدباء .

ولا حل لهذه القضية إلا بالنظر إلى كل ما جاء فى كتب النحاة ، نظرة عملية ، تتخلص من الافتراضات الذهنية ، والقياسات العقلية ، وحينئذ سنجد أنفسنا فى حاجة إلى خطوة أبعد مما يسمونه تيسير النحو أو تجديده ؛ خطوة لا تكتفى بعمليات الترقيع وإنما تهدف إلى ثورة جذرية .

عبد الحميد ابراهيم
رئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب بجامعة المنيا



المستدرك من معانى حرفى التنفيس
للدكتور صبحى عبد المنعم سعيد

تقــديم

عُنى السابقون من النحاة بالإعراب وعوامله، والبناء وأحواله، وكادت هذه العناية تصرفهم عن استيفاء مدلول كثير من حروف المعانى ، ولاسيما مالا يعمل منها .

وحاول المتأخرون من النحويين استدراك مافات أسلافهم فعنوا بهذه الحروف من خلال اشتغالهم بالقرآن الكريم تفسيرًا لمعانيه ، أو شرحاً لعلومه، ومنهم من خصها بالكتب أو الأبواب الطوال، يشرحون فيها معانيها المختلفة ، ويصفون وظيفة كل حرف منها فى الجملة ؛ ولقد يسر الله لشيخ من شيوخ هذا العصر – رحمه الله – أن يبذل فى جمع هذا التراث والتعليق عليه جهدًا مشهورًا مشكورًا .

وإذا كان طلب العلم أمانة محمولة حتى يقبض الله الدنيا – فقد انكشف لى – وأنا أنظر فى آيات القرآن الكريم ، وأقوال الشعراء القدامى – معنى لحرفى التنفيس أراه قد فات النحاة قبلا فلم يُبن لأحد منهم .

ولقد بذلت قصارى جهدى فى بيان هذا المعنى، وعرض أدلته مستأنساً بما قال السابقون فى شرح النصوص تارة ، مجتهدًا فى استنباط ما يحتمله النص وأراه الوجه تارة أخرى .

وجزى الله خيرًا من نظر فى مقالى هذا فدلّنى على ثغرة فيه خفيت علىّ ؛ أو رأى فيما قلت غير الذى رأيت ، فأهداه إلىّ .

السين

يقول سيبويه فى معنى (السين) :

« فإذا قال : ذهب ، فهو دليل على أن الحدث فيما مضى من الزمان ، وإذا قال : سيذهب ، فإنه دليل على أنه يكون فيما يُستقبل من الزمان[1] . . . »

ويقول فى (باب عِدّة ما يكون عليه الكلم) :

« والسين التى فى قولك : سيفعل ، وزعم الخليل أنها جواب لن يفعل »[2] .

« فالسين » فى رأى سيبويه حرف يخلِّص المضارع للاستقبال ، وزعم الخليل أنّ (سيفعل) جواب (لن يفعل) ، ومعنى ذلك أنّ (السين) نقيض (لن) فى المعنى ، فإذا دلَّت (لن) على نفى الحدث فى المستقبل ، فإن (السين) تدل على إيجابه فى المستقبل .

ويقول ابن هشام :

« (السين) المفردة حرف يُختص بالمضارع ، ويخلِّصه للاستقبال ، وينزل منه منزلة الجزء . ولهذا لم يعمل فيه مع اختصاصه به ، وليس مقتطعا من (سوف) خلافا للكوفيين[3] . ولامدة الاستقبال معه أضيق من (سوف) خلافاً للبصريين[3] ، ومعنى قول المعربين فيها : « حرف تنفيس » حرف توسيع ، وذلك أنها نقلت المضارع من الزمن الضيق ، وهو الحال إلى الزمن الواسع ، وهو الاستقبال ؛ وأوضح من عبارتهم قول الزمخشرى وغيره : « حرف

(١) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه ١٨٠ ﻫ ، الكتاب ، تحقيق هارون ، ج ١ ، القاهرة ، ص ٣٥ — بولاق ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ، هارون ، ج ٤ ، القاهرة ، ص ٢١٧ — بولاق ، ج ٢ ، ص ٣٠٤

(٣) انظر تفصيل هذا الاختلاف عند كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنبارى ٥٧٧ ﻫ الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، تحقيق محمد محى الدين ، ج ٢ ط ٤ ، ١٣٨٠ ﻫ ١٩٦١م ، المسألة ٩٢ ، ص ٦٤٦ وما بعدها ، وانظر أيضا عند يعيش بن علي بن يعيش ٦٤٣ ﻫ شرح المفصل ، ج ٨ ، القاهرة بدون ، ص ١٤٨ وما بعدها .

استقبال[1] » ... وزعم الزمخشرى أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنّه واقع لا محالة ، ولم أر من فهم وجه ذلك . ووجهه أنّها تفيد الوعد بحصول الفعل ، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه ، وقد أومأ إلى ذلك فى (سورة البقرة) ، فقال فى « فَسيكْفِيكَهُمُ اللهُ »[2] : ومعنى (السين) أنَّ ذلك كائن لامحالة . وإن تأخر إلى حين[3] ؛ وصرّح به فى (سورة براءة) فقال فى « أُولئك سيرحمهم الله »[4] (السين) مفيدةوجود الرحمة لامحالة فهى تؤكد الوعد كماتؤكد الوعيد إذا قلت : سأَنتقم منك »[5][6]

ويقول بدر الدين الزركشى :

« وفرّق ابن بابشاذ بينهما بأَن (سوف) تستعمل كثيرًا فى الوعيد والتهديد ، وقد تستعمل فى الوعد . . . ، والأَكثر فى (السين) الوعد ، وتأْتى للوعيد[7] » .

---

(١) انظر المرجع السابق حيث يقول الزمخشرى : « ومن أصناف الحرف حروف الاستقبال ، وهى سوف السين . . . » . وانظر ذلك أيضا عند محمد بن يوسف المشهور بأبى حيان الأندلسى ٧٥٤ ﻫ البحر المحيط ج ٥ ،ط ٢ ، ١٣٩٨ ﻫ–١٩٧٨ م ،ص ٧١ حيث يقول : « وليس مدلول السين توكيد ما دخلت عليه إنما تدل على تخليص المضارع للاستقبال فقط » .

(٢) سورة ٢ (البقرة) : ١٣٧ .

(٣) وانظر أيضا : جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٥٣٨ ﻫ ،الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ج ١ ، بيروت ، منقولة عن طبعة تهران ، بدون ، ص ٣١٥ .

(٤) سورة ٩ (التوبة) ٧١ .

(٥) انظر أيضا : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٦) جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصارى المصرى ٧٦١ ﻫ ، مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محيى الدين ، القاهرة ، بدون ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ وانظر أيضا أحمد بن عبد النور المالقى ٧٠٤ ﻫ رصف المبانى فى شرح حروف المعانى ، تحقيق أحمد الخراط ، دمشق ، ١٣٩٥ ﻫ – ١٩٧٥ م ، ص ٢٩٦ – ٢٩٨ .

(٧) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل ، ج ٤ ط ١ ، ١٣٧٧ ﻫ ١٩٥٨ م ، القاهرة ، عيسى الحلبى ، ص ٢٨٣ .

إفادة (السين) للوعيد فى معظمها واضحة جلية[1] ، ثم قال بعد ذلك :

« وجاءت (السين) للوعد فى هذه المواضع[2] :

١ – « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » ٢٧ (النمل) ٧[3] .

٢ – « وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » ٤٨ (الفتح) : ١٠ .

٣ – « سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ » ٩ (التوبة) : ٥٩[3] .

٤ – « وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيماً » ٤ (النساء) ١٦٢ .

٥ – « وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » ٣ (آل عمران) : ١٤٤ .

٦ – « وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ » ٣ (آل عمران) : ١٤٥ .

٧ – « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » ١٩ (مريم) ٩٦ .

٨ – « سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسراً » ٦٥ (الطلاق) : ٧ .

٩ – « وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى » ٩٢ (الليل) ١٧ .

١٠ – «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ٤ (النساء) : ١٧٥ .

---

(١) نقول فى معظمها لأن بعض هذه الشواهد يحتمل أن تفيد فيه (السين) الوعد مثل الشاهد ذى الرقم ٤٠ ، ص ١٨٠ « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » سورة ٨ (الأنفال) : ١٢ ، فسياق هذا الشاهد قوله – تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألق فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » قال أبو حيان فى البحر المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ « ويحتمل أن يكون « سألق » إلى آخر الآية خبرا يخاطب به المؤمنين عما يفعله بالكفار بالمستقبل « أى أنه وعد من الله – تعالى – للمؤمنين بإلقاء الرعب فى قلوب الكفار . ويقال مثل ذلك فى الشاهد رقم ٤١ ، ص ١٨٠ : « سنلق فى قلوب الذين كفروا الرعب » سورة ٣ (آل عمران) : ١٥١ فأبو حيان يقول فى تفسيره البحر المحيط ، ج ٣ ص ٧٧ : «سنلق فى قلوب الذين كفروا الرعب أى هؤلاء الكفار وإن كانوا ظاهرين عليكم يوم أحد فإنا نخذلهم بالقاء الرعب فى قلوبهم ، وأتى بالسين القريبة الاستقبال وكذا وقع ، ألق الله فى قلوبهم الرعب يوم أحد . . . » ومعنى ذلك أنه وعد صادق من الله ، وقد وقع : إذن فعد هذين الشاهدين من شواهد إفادة (السين) الوعيد سهو .

(٢) سنثبت ما ذكره الشيخ عضيمة من شواهد ما أفادت فيه (السين) وعدا ، وما لم تفد فيه (السين) وعدا أو وعيدا لأن هذين المجموعين من الشواهد هما اللذان اخترنا منهما شواهدنا التى جعلناها موضوع المناقشة والاستنباط.

(٣) ستكون هذه العبارة موضوع نقاشنا بعدا .

١١ – « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ » ٩ (التوبة) : ٩٩ .

١٢ – « والَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ٤ (النساء) : ٥٧ .

١٣ – « والَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجرى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ٤ (النساء) : ١٢٢ .

١٤ – « سَأُرِيكُمْ ءَايَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » ٢١ (الأنبياء) : ٣٧[١] .

١٥ – « أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ٩ (التوبة) : ٧١ .

١٦ – « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » ٢٧ (النمل) : ٩٣[٢] .

١٧ – « وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » ٢ (البقرة) : ٥٨

١٨ – « سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ » ٤١ (فصلت) : ٥٣ .

١٩ – « وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » ٧ (الأعراف) : ١٦١ .

٢٠ – « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » ٢٨ (القصص) : ٣٥ .

٢١ – « قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ » ٢٠ (طه) : ٢١ .

٢٢ – « قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » ١٩ (مريم) : ٤٧ .

---

(١) وضع الشيخ عضيمة هذه العبارة ضمن شواهد إفادة (السين) الوعد ، ولعل هذا كان سهوا منه ، فأبوحيان يقول فى البحر المحيط ، ج ٦ ، ص ٣١٢ عجز : « . . . . « سأريكم آياتى » أى آيات الوعيد فلا تستعجلون فى رؤيتكم العذاب . . . » فحق العبارة أن تكون فى شواهد إفادة (السين) الوعيد .

(٢) يقول أبو حيان فى البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ، صدر : « سيريكم آياته » تهديد لأعدائه بما يريهم الله من آياته « فحق العبارة إذن أن تجعل فى شواهد إفادة (السين) الوعيد .

(٣) يقول أبوحيان فى البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٥٠٥ ، وسط : « ثم توعدهم بما هو كائن لامحالة ، فقال : «سنريهم آياتنا فى الآفاق» ، قال أبوالمنهال والسدى وجماعة : هو وعيد للكفار بما يفتحه الله على رسوله من الأقطار ...» فـ (السين) فى الآية تفيد الوعيد وفاقا لأبى حيان ومن نقل عنه .

٢٣ – « وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا »٧ (الأعراف) : ١٦٩ .

٢٤ – « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ » ٨٧ (الأعلى) : ٦ .

٢٥ – « وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » ١٨ (الكهف) : ٨٨ .

٢٦ – « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ »٧ (الأعراف) : ١٥٦ .

٢٧ – «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » ٢ (البقرة) ١٣٧ .

٢٨ – « قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا » ١٨ (الكهف) : ٦٩[1] .

٢٩ – « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » ٢٨ (القصص) : ٢٧[1] .

٣٠ – « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » ٣٧ (الصافات) : ١٠٢[1] .

٣١ – «قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٢٦ (الشعراء) : ٦٢[1] .

٣٢ – «سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ »٤٧ (محمد) : ٥

٣٣ – « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ » ٩٢ (الليل) ٥ – ٧ .

واستعملت السين فى غير الوعد والوعيد فى هذه المواضع[2] :

١ – « قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » ١١ (هود) : ٤٣ .

٢ – « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » ٦٨ (القلم) : ٥ .

٣ – « وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا » ١٨ (الكهف) : ٨٣ .

٤ – « وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ » ٩ (التوبة) : ٤٢ .

٥ – « سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ » ٩ (التوبة) : ٩٥ .

---

(١) ستكون هذه العبارة موضوعا للنقاش بعدا .

(٢) اكتفى الشيخ عضيمة فى الإشارة بذكر أرقام السور والآيات ، ولكنا فضلنا أن تكون نصوص العبارات بين يدى القارئ تيسيرا عليه ، وتمكينا له من المشاركة فى استنباط الحقائق .

٦ – « قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ » ٤٨ (الفتح) : ١٦ .

٧ – « عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ » ٢ (البقرة) : ٢٣٥ .

٨ – « سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ » ٨٧ (الأعلى) : ١٠ .

٩ – « وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ » ٦٥ (الطلاق) : ٦[1] .

١٠ – « قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » ١٢ (يوسف) : ٦١[2]

١١ – « سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ » ٤٧ (محمد) : ٢٦[3] .

١٢ – « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ » ٣ (آل عمران) : ١٢[4] .

١٣ – « وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ » ٣٠ (الروم) : ٣ .

---

(١) ستكون هذه العبارة موضوعا للنقاش بعدا .

(٢) (السين) فى هذه العبارة مفيدة للوعد ، قال أبو حيان فى النهر الماد من البحر ، حاشية البحر المحيط ج ٥ ، ص ٣٢٠ عجز : « «قالوا سنراود عنه أباه» أى سنخادعه ، ونستميله فى رفق إلى أن يتركه يأتى معنا إليك ، ثم أكدوا ذلك الوعد بأنهم فاعلو ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى ». إذن فوضع هذه العبارة فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

(٣) فى النهر الماد من البحر ، حاشية البحر المحيط ، ج ٨ ص ٨١ عند تفسير قوله — تعالى : « ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم » — قال أبو حيان : « «ذلك بأنهم قالوا» روى أن قوما من قريظة والنضير كانوا يعدون المنافقين فى أمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — والخلاف عليه بنصرة ومؤازرة ، وذلك قولهم : « سنطيعكم فى بعض الأمر » . ف (السين) فى هذه العبارة إذن مفيدة للوعد وفاقا لأبى حيان ووضع هذه العبارة فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

(٤) فى النهر الماد من البحر . حاشية البحر المحيط ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ عند تفسير هذه الآية قال أبو حيان : « « قل للذين كفروا » هم معاصرو ه عليه السلام ، وفى سبب نزولها اختلاف : قيل إن يهود قينقاع قالوا بعد وقعة بدر : إن قريشا كانوا أغمارا ، ولو حاربتنا لرأيت رجالا ، ، وناسب ما سبق من الوعد الصادق فى قوله فيما آل إليه الكفار السابق ذكرهم فى أخذ الله إياهم ومآلهم إلى النار ذلك الوعد الصادق فى قوله : « ستغلبون وتحشرون » الآية ا . ه » ف (السين) فى قوله : « ستغلبون » مفيدة للوعد وفاقا لأبى حيان حيث الوعد إلى رسول الله (ص) أو مفيدة الوعيد الموجه إلى الذين كفروا . إذن فوضع هذه العبارة فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

هذا وقد أشير إلى آية هذه العبارة فى كتاب دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الأول ، ج ٢ ص ١٨٢ بالرقم ٣ : ١١٢ ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، وهو ٣ : ١٢ لأنه لا يوجد مضارع مسبوق ب (السين) فى الآية ٣ : ١١٢ كما أن الترتيب المعجمى للشواهد يقتضى ما أثبتناه .

١٤ – « سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ » ٥٥ (الرحمن) : ٣١[1]

١٥ – « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » ٢ (البقرة) : ١٤٢ .

١٦ – « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا » ٦ (الأنعام) : ١٤٨[2] .

١٧ – « سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا » ٤٨ (الفتح) : ١١ .

١٨ – « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ » ٤٨ (الفتح) : ١٥ .

١٩ – « قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » ١٠ (يونس) : ٣١ .

٢٠ – « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا » ١٧ (الإسراء) : ٥١ .

٢١ – « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ » ١٨ (الكهف) : ٢٢ .

٢٢ – « قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ » ٢٣ (المؤمنون) : ٨٥ .

٢٣ – « قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ » ٢٣ (المؤمنون) : ٨٧ .

---

(١) فى تفسير هذه الآية قال أبو حيان فى البحر المحيط، ج ٨ ، ص ١٩٤ ، صدر : « وقال : « سنفرغ لكم » أى ننظر فى أموركم يوم القيامة لا أنه – تعالى – كان له شغل فيفرغ منه، وجرى هذا على كلام العرب فى أن المعنى : سيقصد لحسابكم ، فهو استعارة من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك أى سأتجرد للإيقاع بك من كل ما شغلنى عنه حتى لا يكون لى شغل سواه ؛ والمراد التوفر على الانتقام منه . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب فى الدنيا ، والأول أبين. انتهى ، يعنى أن يكون ذلك يوم القيامة » . إذن فـ (السين) فى الآية مفيدة للوعيد وفاقاً لأبى حيان وابن عطية ، ووضع الآية فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

(٢) أشير إلى آية هذه العبارة فى كتاب دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، ج ٢ ، ص ١٨٢ بالرقم ٦ : ٢٨ ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، وهو ٦ : ١٤٨ ؛ لأنه لا يوجد مضارع مسبوق بالسين فى الآية ٦ : ٢٨ ، كما أن الترتيب المعجمى للشواهد يقتضى ما أثبتناه .

٢٤ – « قُل مَن بيَدِهِ ملكُوتُ كُلِّ شَىءٍ وهُوَ يُجيرُ ولَا يُجَارُ عليهِ إن كنتمْ تَعلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ » ٢٣ (المؤمنون) : ٨٩ .

٢٥ – « وإذْ لَمْ يَهتَدُوا به فَسَيَقولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » ٤٦ (الأحقاف) : ١١ .

٢٦ – « قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَل تَحسُدُونَنَا » ٤٨ (الفتح) : ١٥ .

٢٧ – « وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » ١٨ (الكهف) : ٨٨[1] .

٢٨ – « واتَّخَذُوا مِن دُون اللهِ ءالِهةً لِّيكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سيكْفُرُونَ بعِبَادتِهِمْ » ١٩ (ريم) : ٨٢ .

٢٩ – « إِنَّا سنُلْقِى علَيْكَ قوْلًا ثَقِيلاً » ٧٣ (المزمل) : ٥٠ .

٣٠ – « قَالَ هذَا فِراقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » ١٨ (الكهف) : ٧٨ .

٣١ – « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىءٌ وَمَن قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ » ٦: (الأنعام) : ٩٣ .

٣٢ – « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ » ٢٧ (النمل) : ٧[2] .

٣٣ – « .. فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رءُوسَهُم وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ » ١٧ (الإسراء) : ٥١ .

٣٤ – « ... فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً » ٨ (الأنفال) : ٣٦ .

٣٥ – « سَتَجِدُونَ ءاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ » ٤ (النساء) : ٩١ .

---

(١) إفادة (السين) للوعد فى هذه العبارة واضحة جلية ، وقد وضعها صاحب دراسات لأسلوب القرآن الكريم قبلا فيما تفيد فيه (السين) وعدا ، وأعطى لها الرقم ٢٥ إذن فوضعها هنا فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو واضح .

(٢) جعل الشيخ عضيمة قبلا هذا النص أول شاهد فيما جاءت فيه (السين) للوعد ، والآن يذكره فيما استعملت فيه (السين) لغير الوعد والوعيد ، ولعل هذا الترجح قرينة على صواب ما سنقوله بعدا من أن لـ (السين) فى هذا الشاهد مدلولا لم يقع لنحوى من قبل .

٣٦ - « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » ٥٤ (القمر) : ٤٥[١] .

٣٧ - « وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ » ٣٧ (الصافات) : ٩٩[٢] .

٣٨ - « إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » ٤٣ (الزخرف) : ٢٧[٣]

ثم أتم الشيخ عضيمة كلامه عن (السين) فى مجموعة فقار جعل لها العنوانات الآتية :

هل تفيد (السين) و (سوفَ) تحقق الوقوع[٤] ؟

هل تفيد (السين) معنى الاستمرار[٥] ؟

(السين) (وسوف) يخلصان المضارع إلى معنى الاستقبال[٦] .

(سَوْفَ) أشد تراخياً فى الاستقبال من (السين)[٧] .

ليس لحرفى التنفيس صدر الكلام[٨] .

وقوع الجملة المصدرة بعلامة الاستقبال خبراً للمبتدإ[٩] .

الجملة المصدرة ب (السين) مقول للقول[١٠]

---

(١) قال أبو حيان فى البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ١٨٣ : « وفى قوله — تعالى — : « سيهزم الجمع » عدة من الله — تعالى — لرسوله — صلى الله عليه وسلم — بهزيمة جمع قريش » ، فـ (السين) فى هذا الشاهد مفيدة للوع وفاقا لأبى حيان ، ووضعها فيما لا تفيد فيه (السين) وعدا أو وعيدا سهو .

(٢) سيكون هذا الشاهد موضوع بحث بعدا .

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

وإذا كان صاحب دراسات لأسلوب القرآن الكريم نحوياً معاصراً قد استعان فى تصنيف كتابه بما انتهى إليه النحويون والمفسرون من قبله - كنا على يقين من أنّ النحويين جميعاً قدماء ومحدثين لم يجدوا لـ (السين) الداخلة على المضارع فى القرآن الكريم إلا ما ذكرناه قبلا من أنواع الاستخدام غير أنى أرى أنّ الإنعام فى النظر إلى بعض أساليب القرآن الكريم يكشف عن معنى لـ (السين) أراه لم يقع لنحوي من قبل، وبيان ذلك فيما يأتى من القول :

قال - تعالى - فى سورة (طه) من قصة موسى عليه السلام :

« إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى[1] » .

وقال - عزّ وجلّ - فى سورة (القصص) من القصة ذاتها :

« فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ[2] »

ونلاحظ فى هاتين الآيتين أنّ الجملة الفعلية « ءَاتِيكُم » واقعة خبرًا لـ « لعلّ » ، ومعنى هذا الحرف عند سيبويه : « طمعٌ وإشفاق »[3] ، أو كما يقول المبرد : « الترجى »[4] . أو « التوقع لمرجوّ أو مَخُوف »[5] ، وهذا يفيد أنّ موسى - عليه السلام - كان يترجى أن يعود من عند أصحاب تلك النار بخبر أو جذوة منها ؛ ومن المعلوم أنّ المترجى لا يأمن أن يقع ما ترجاه على النحو الذى أحب لأنّ أمر ذلك ليس بيده بل بيد غيره ؛ يقول المبرد :

---

(١) سورة ٢٠ (طه) ١٠ .

(٢) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٩ .

(٣) الكتاب ، هارون ، ج ٤ ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣٣ - بولاق ، ج٢ ، ص ٣١١ .

(٤) محمد بن يزيد المبرد ، المقتضب ، تحقيق عضيمة ، ج ٤ ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ ، ص ١٨٣ . هذا ، ومن المعلوم أن للحرف (لعل) معانى أخرى ذكرها النحاة ، مثل التعليل ، والتشبيه ، والرجاء المحض . انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ج٢ ، ص ٥٩٦ ، وما بعدها .

(٥) المقتضب ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

« فإذا قلت : لعل زيدًا يأتينا ، ولعل عمرًا يزورنا ـ فإنما مجاز هذا الكلام من القائل أنه لا يأمن أن يكون هذا كذا »(١) .

وكذلك كانت حال موسى ـ عليه السلام ـ حين آنس من جانب الطور نارًا ، وترجى أن يأتى منها بخبر عن الطريق أو قبس يصطلى به أهله ، فهو لم يكن آمنًا أن يعود من عند أهل تلك النار بما كان يشتهى .

وقال ـ عز شأنه ـ فى تلك القصة من سورة (النمل) .

« إذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » .

ونلاحظ أن مضمون آية (النمل) هو مضمون آيتى (طه) و (القصص) وإذا كان ذلك كذلك كانت العبارة القرآنية فى آية (النمل) متضمنة معنى الترجى المدلول عليه بالحرف (لَعَلَّ) فى آيتى (طه) و (القصص) ، ويؤيد هذا أن حال موسى (ع) التى أخبرت عنها آية (النمل) هى حاله التى أخبرت عنها آيتا (طه) و (القصص) . فهو لم يكن آمنا أن يعود من عند أصحاب تلك النار التى آنسها بخبر عن الطريق ، أو قبس من النار يصطلى به أهله ، لكن الفعل المضارع (آتى) المعطوف عليه فى آية (النمل) مصدر بـ (السين) : « سَآتِيكُم » بدلا من (لَعَلَّ) فى آيتى (طه) و (القصص) : « لَعَلِّى آتِيكُم » وإذا عاقبت (السين) (لعل) فى تركيب لغوى واحد ، وفى قصة واحدة ـ دل ذلك على أن (السين) فى « سَآتِيكُم » مفيدة ما أفادته (لعل) من الترجى فى « لَعَلِّى آتِيكُم » .

ما قاله أبو حيان :

قال أبو حيان الأندلسى فى تفسير آية (النمل) : « إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » :

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ ، ص ٧٣ .
(٢) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

« سَئَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »أى من موقدها بخبر يدل على الطريق ، « أَوْءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى إن لم يكن هناك من يخبر فإنى قد أستصحب ماتدفئون به منها ، وهذا الترديد بـ (أوْ) ظاهر ، لأنه كان مطلوبه أولاً أن يلتقى على النار من يخبره بالطريق ، فإنه مسافر ليس بمقيم ، فإن لم يكن أحد فهو مقيم ،فيحتاجون لدفع ضرر البرد ، وهو أن يأتيهم بما يصطلون ، فليس محتاجاً للشيئين معاً ، بل لأحدهما : الخبر إن وجد من يخبره فيرحل ، أو الاصطلاء إن لم يجد وأقام ، فمقصوده إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، وهو معنى قوله : « لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى »[٢٠ (طه) : ١٠] ، وجاء هنا « سَئَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » وهو خبر ؛ وفى (طه) : « لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ » ، وفى (القصص) : « لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » ، وهو ترج ، ومعنى الترجى مخالف لمعنى الخبر ، ولكن الرجاء إذا قوى جاز للراجى أن يُخبر بذلك ، وإن كانت الخيبة يجوز أن تقع ، وأتى بـ (سين) الاستقبال إما لأن المسافة كانت بعيدة ، وإما لأنه قد يمكن أن يبطئ لما قدر أنه قد يعرض له ما يبطئه[١]

الرد على أبى حيان :

والناظر فى قول أبى حيان الذى بناه على ما أخذه من صاحب الكشاف[٢] يلاحظ أنه فسر قول موسى (ع) : « سَئَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » فى (سورة النمل) على أنه خبر ، وجعل (السين) فيه مفيدة للاستقبال ، ثم حاول أن يقرّب الترجى المصرح به فى « لَعَلِّى ءَاتِيكُم » من سورتى (طه) و (القصص) من الخبر الذى فهمه من « سَئَاتِيكُم » ، فقال : « ولكن الرجاء إذا قوى جاز للراجى أن يخبر بذلك . وإن كانت الخيبة يجوز أن تقع » ، لكننا على يقين أن موسى (ع) حين آنس من جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، ورغب أن يأتيها لم يكن آمنا أن يعود من عند موقد تلك النار بما كان يشتهى ، فحاله لم تكن حال المخبر الموقن بما يأتى

---

(١) البحر المحيط ، ح ٧ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) الكشاف ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .

وما يادع بل حال من يترجى أمرًا ليس على يقين من شأنه ، فحرف الترجى (لَعَلَّ) هو أوفى بديل يمكن أن يستخدمه مفسر فى شرح قوله : « سَئَاتِيكُم » من هذه الآية ، وإذا عاقبت (السين) (لَعَل) فى هذا المقام كانت (السين) مفيدة ما تفيده (لعل) من الترجى أو الطمع والإشفاق .

كذلك يلاحظ من يتأمل الآيات التى ضُمِّنت قصة النَّارِ التى آنَسَهَا موسى (ع) أنها ثلاث آيات ، صُرِّح فى اثنتين منها بالحرف (لعل) المفيد للترجى ،وعاقبت (السين) (لعل) فى آية واحدة ، وهذا يقتضى حمل معنى « سَئَاتِيكُمْ » فى آية (النمل) على معنى « لَعَلِّى ءَاتِيكُم » فى آيتى (طه) و (القصص) إجراءً للكلام فى الآيات الثلاث على سَنَن واحد ، وتجافياً عن أن نجعل موسى (ع) موقناً مترجيا فى مقام واحد .

شواهد قرآنية أُخرى :

وليست إفادة « السين » للترجى مقصورة على قوله تعالى : « سَئَاتِيكُمْ » فى (سورة النمل) بل إنها ملحوظة فى آيات أخرى من كتاب الله ، ومن تلك الآيات ما يأْتى :

قال – تعالى – على لسان موسى (ع) مخاطبا الخضر (ع) :

« قَالَ سَتَجِدُنِى إن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أعْصِى لك أمْرًا[1] »

وقال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية :

« رجا موسى – عليه السلام – لحرصه على العلم وازدياده أنَّه يستطيع معه صبرًا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلّقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وأنَّ الحميّة التى تأْخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيءٌ لايطاق . .[2]

وقال أبو حيان فى تفسير الآية ذاتها :

« وعده بوجدانه صابرًا ، وقرن ذلك بمشيئة الله علماً منه بشدة الأَمر وصعوبته

---

(١) سورة ١٨ (الكهف) : ٩٦ .

(٢) الكشاف ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ .

إذ لا يصبر إلا على ما ينافى ما هوعليه إذا رآه . . . »[1] .

وقال – تعالى – فى قصة إبراهيم وإسماعيل (ع) :

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »[2]

وقال أبوحيان فى تفسير هذه الآية : «وأى حلم أعظم من قوله – وقد عرض عليه أبوه الذبح – : « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »[3] »

ويمكن أن نضيف إلى تفسير أبي حيان قولنا : إن استعظام إسماعيل (ع) لأمر الذبح الذى عرضه عليه أبوه جعله يقرن وعده الصبر عليه بمشيئة الله لأن الصبر على الذبح شىء يعجز عنه البشر عادة ، فوعد إسماعيل (ع) فى هذه الآية هو وعد المترجى المشفق ، لا وعد المخبر الموقن

وقال – تعالى – فى قصة شعيب وموسى عليهما الصلاة والسلام – :

« قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ »[4]

وقال أبو حيان فى تفسير هذه الآية : « . . . سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » وعد صادق مقرون بالمشيئة »[5]

ومن اليسير أن نلاحظ معنى الترجى فى قوله « سَتَجِدُنِي » فى هذه الآيات الثلاث حيث رجاء الوجدان صابراً أو صالحاً مقرون بمشيئة الله – سبحانه – ، والمترجى فى الآيات الثلاث لا يأمن أن

(١) البحر المحيط ، ج ٦ ، ص ١٤٨ .

(٢) سورة ٣٧ (الصافات) : ١٠٢ .

(٣) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٣٦٩ ، وسط .

(٤) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٧ .

(٥) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ١١٦ عجز .

يقع ما ترجّاه على النحو الذى آ. ب ، بل هو طامعٌ فيه مشفق من العجز عنه ، ونستدلُّ على صحة ملاحظتنا بما صرح به به الزمخشرى فى تفسير الآية الأولى حيث قال :

« رجا موسى — عليه السلام — أن يَسْتَطِيعَ مَعَهُ صَبْرًا فوعده بالصبر مُعَلَّقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته »[1] .

وإذا كان الوعدُ فى الآيات الثلاث مُعَلَّقاً على مشيئة الله كان وعد المترجِّى لا الموقن ، فالكلمة التى يمكن أن تُفَسَّر بها (السين) فى الآيات الثلاث هى (لعلّ) ، وإذا حلّت (السين) محلّها فى « سَتَجِدُنِى » كانت مفيدة ماتفيده (لعلّ) من الطمع والإشفاق ، مَثَلُها فى ذلك مَثَلُ (سين) « سَئَاتِيكُمْ » من قوله — تعالى — : « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَئَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »[2] حيث عاقبت (السين) (لعل)وأفادت معنى الترجّى[3]

ومن الشواهد القرآنية التى تفيد فيها (السينُ) الداخلةُ على المضارع ما تفيده (لعلّ) من الترجِّى قوله — تعالى — فى شأْن المطلَّقات :

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُم فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى »[4]

يقول أبوحيان جامعاً ملخِّصاً ماقاله

---

(١) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ٥١ .

(٢) سورة ٢٧ (النمل) : ٨ .

(٣) انظر قبلا حيث ذكر هذا الاستنباط أول مرة .

(٤) سورة ٦٥ (الطلاق) : ٦ .

الطبرى[1] ، والزمخشرى[2] فى تفسير هذه الآية :

« وَإِن تَعَاسَرْتُمْ » أى تضايقتم ، وتشاكستم فلم ترض [الأُمُّ المرضع] إلا بما ترضى به الأجنبية ، وأبى الزوج الزيادة ؛ أو إن أبى الزوج إلا الإرضاع مجّاناً وأبت هى إلا بِعِوَض « فسترضع لَهُ أُخرى » أى يستأجر غيرها . . . ؛

وقيل : « فَسَتُرْضِعُ » خبر فى معنى الأمر ، أى فلترضعْ لَهُ أخرى . وفى قوله : « فَسَتُرْضِعُ لهُ أُخْرَى » يسيرُ معاتبة للأُمّ إذا تعاسرت كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرُكَ ،تريد : لن تبقى غير مَقْضِيَّةٍ وأنت مَلُوم ... »[3]

فأصحاب التفسير إذن مترددون فى معنى قوله — تعالى — « فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى » فمنهم من يعدُّها جملة خبريّة حملا على الظاهر ، ومنهم من يجعلها خبرًا فى معنى الأمر ؛ لكنَّ حملَها على الخبر يُضعفه أنَّ وقوع الإرضاع فى المستقبل من امرأة أُخرى غير مُتَيَقَّنِ الحدوث ؛ كذلك جعلُها خبرًا فى معنى الأمر يُضْعفه أنَّ توجيه الأمر بالإرضاع إلى الأجنبية إلزام بلا مُقْتضٍ ، وإذا صُرف الأمرُ إلى الأب ليسترضع أخرى كانت الاستجابة لهذا الاسترضاع غير متيقنة كذلك ،وحاجة الوليد إلى الإرضاع ضرورة عاجلة ؛أما إذا حملنا الجملة على الترجّى ، وجعلنا معناها — والله أعلم — :

---

(١) يقول أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى جامع البيان عن تأويل القرآن ، القاهرة ، ط مصطفى الحلبى ، ١٩٥٤ ، ج ٢٨ ، ص ١٤٨ : « وقوله : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » يقول : وإن تعاسر الرجل والمرأة فى رضاع ولدها منه فامتنعت من رضاعة فلا سبيل له عليها وليس له إكراهها على إرضاعه ، ولكنه يستأجر للصبى مرضعة غير أمه البائنة منه . وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل : ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد قال : ثنا أحمد ، قال ثنا أسباط عن السدى فى قوله : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » ؛ قال : إن أبت الأم أن ترضع ولدها إذا طلقها أبوه التمس له مرضعة أخرى ، الأم أحق إذا رضيت من أجر الرضاع بما يرضى به غيرها ، فلا ينبغى له أن ينتزع منها .

حدثنا ابن حميد ، قال ، ثنا مهران عن سفيان قال : إن هى أبت أن ترضعه ، ولم تواتك فيما بينها وبينك وعاسرتك فى الأجر فاسترضع له أخرى » .

(٢) قال الزمخشرى فى الكشاف ، ج ٤ ، ص ١٢٢ : « « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى سيقضيها غيرك ،تريد: لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم . وقوله : « له » أى الأب ؛ أى سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه » .

(٣) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٢٨٥ ، عجز .

فلعل أُخرى ترضع له – كان فى ذلك تصويرٌ يستثير الرحمة لحال وليد تعاسر أبواه فيما يحفظ عليه حياته مع أنّهما سبب وجوده ، كما أنَّ فى الترجّى – وهو طمع وإشفاق – شيئاً غيرَ يسير من المعاتبة للأُم لتركها وليدها فى حال لا يؤمن معها الإبقاءُ على حياته على النحو الذى تحبه وترضاه له .

من أجل ذلك نرى أنَّ حمل معنى جملة « فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى » على الترجّى وجعل (السين) فيها مفيدة ما تفيده (لعلَّ) من الطمع والإشفاق – أكثرُ مطابقة لمقتضى الحال ، وأصدق تصويرًا له من حمل معناها على كُلٍّ من الخبر أو الأمر .

ولا يَصُدنَّا عن حمل معنى هذه الجملة على الترجّى قولُ قائل : إنَّ الترجّى فى هذه الحال يكون مُسندًا إلى الله – سبحانه – ولا يقال ذلك على الله ؛ لأنَّا نقول ردًا على ذلك : إنَّ الكلام هنا جرى على طريقة كلام العباد ، واستُعمل فيه ما يستعمله العباد من الألفاظ والمعانى فى مثل هذا المقام ؛ وقد سبق أن أجاب القدماء من النحاة على مثل هذا الاعتراض بهذا الجواب ، يقول محمد بن يزيد المبرد فى (باب التعجّب) :

« ومن هذا الباب قول الله – عزّ وجلّ – « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ »[1] ، ولا يقال لله – عز وجل – تَعَجَّبَ ، ولكنه خرج على كلام العباد ، أى هؤلاء ممن يجب أن يقال لهم : ما أسمعهم وأبصرهم فى ذلك الوقت ؛ ومثل هذا قوله : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »[2] و (لعل) إنما هى للترجّى ، ولا يقال ذلك لله ؛ ولكنَّ المعنى – والله أعلم – اذهبا أنتما على رجائكما ، وقولا القول الذى ترجوان به ويرجو به المخلوقون تذكّر من طالبوه »[3] .

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نقول ردًّا على من يرى فى حمل جملة « فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى » على الترجىّ إسناد الترجّى إلى الله – سبحانه : إنَّ المعنى – والله أعلم – : وإن تعاسر الأب والأمّ فى إرضاع وليدهما فإنَّ حالهما تكون

---

(١) سورة ١٩ (مريم) : ٣٨ .
(٢) سورة ٢٠ (طه) : ٤٤ .
(٣) المقتضب ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

مما يجب أن يقال معها : لعلّ أخرى ترضع لهذا الأب وليده .

ومن الشواهد التي عاقبت فيها (السين) (لعل) ، وأفادت ما تفيده من (الترجّي) قوله – تعالى – في شأن من سخط القسمة في الصدقات :

« وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ » [1] .

ويقول أبو حيان في تفسير الآية الثانية :

« هذا وصف لحال المستقيمين في دينهم أي رضوا قسمة الله ورسوله وقالوا كفانا فضل الله ، وعلّقوا آمالهم بما سيؤتيه الله إياهم . وكانت رغبتهم إلى الله لا إلى غيره . وجواب (لو) محذوف ، تقديره : لكان خيراً لهم في دينهم ودنياهم » [2] .

ومن يتأمل قول أبي حيان يجده قد فسر جملة « سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ » على أنها – لو قيلت – قولُ الآملين في عطاء الله إيّاهم ، والآمل في عطاء الله مترجٍ مشفقٌ ، فهو ليس على يقين من أن يقع ما أمّله على النحو الذي أحبه ، ومن اليسير على من يفسر هذه الآية أن يجعل (لعلّ) في محل (السين) من قوله « سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ » ، وإذا كان ذلك كذلك كانت (السين) في هذه الآية مفيدة ما تفيده (لعلّ) من الترجّي أو الطمع والإشفاق .

ومن الشواهد القرآنية التي نرى أن (السين) الداخلة على المضارع فيها مفيدة معنى الترجي هذه المجموعة من الآيات :

---

(١) سورة ٩ (التوبة) : ٥٨ : ٥٩ .

(٢) البحر المحيط ، ج ٥ ، ص ٥٦ ، وانظر أيضاً : أبو السعود محمد بن محمد العمادي ٩٥١ هـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المسمى تفسير أبي السعود ، ج ٣ ، بيروت ، بدون ، ص ٧٦ حيث يقول : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » بعد هذا حسبنا نرجو ونؤمل » .

قال – تعالى – فى شأن بعض أهل الكتاب :

« فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وإن يَأْتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوه . . . »[1] .

وقال أبو حيان فى تفسير هذه الآية :

« . . . وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » قطعٌ على الله بغفران معاصيهم ، أى لا يؤاخذنا الله بذلك ، والمناسب إذ ورثوا الكتاب أن يعملوا بما فيه ، وأنَّهُ إن قُضى عليهم بالمعصية أن لا يَجزموا بالمغفرة وهم مصرّون على ارتكابها . . . »[2]

وقال – تعالى – فى قصة موسى (ع) :

« فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُون * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين »[3] .

وقال أبو حيّان فى تفسير هذه الآية :

... « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين » عن قريب إلى طريق النجاة ويُعرفنيه »[4] .

وقال – تعالى – فى قصة إبراهيم (ع) :

« فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُم الأَسْفَلِين * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين »[5] .

وقال أبو حيّان فى تفسير هذه الآية :

« ... « سَيَهْدِين » يوفقنى إلى مافيه صلاحى . . . »[6] .

وقال – تعالى – فى قصة إبراهيم (ع) أيضا :

---

(١) سورة ٧ (الأعراف) : ١٦٩ .

(٢) البحر المحيط ، ج ٤ ، ص ٤١٦ .

(٣) سورة ٢٦ (الشعراء) : ٦١ ، ٦٢ .

(٤) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٢٠ .

(٥) سورة ٣٧ (الصافات) : ٩٨ ، ٩٩ .

(٦) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٣٦٩ .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ »[1].

.. وقال أبو حيان فى تفسير ذلك :

(.. « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أى يديم هدايتي)[2]

ومن يتأمل تفسير أبى حيان للآيات السابقة يجد أنه لم يَجْرِ على نسق واحد فى تفسير المضارع المبدوء بـ (سين) التنفيس ؛ فبينما هو يفسر قول بعض أهل الكتاب : « سَيُغْفَرُ لَنَا »[3] بأنه « قطعٌ على الله بغفران معاصيهم »[4] نجده يذهب فى تفسير قول موسى (ع) : « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ »[5] إلى ما صرح به فى تفسير آية أخرى من أنَّ (السين) « تدل على تقارب الزمن المستقبل لا تراخيه »[6] ، فيقول : « .. « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » عن قريب إلى طريق النجاة ويعرفنيه »[7] ، ويذهب فى تفسير قول إبراهيم (ع) « إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ »[8] إلى أنَّ (السين) فى « سَيَهْدِينِ » تفيد استمرار الفعل فى الحال والاستقبال ، فيقول : « ... « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أى يديم هدايتي »[9] ، أما فى تفسيره لقوله — تعالى — حكاية عن إبراهيم — عليه السلام — : « وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ »[10] فإنَّهُ يسكت عن الإشارة إلى ماتفيده (السين) فى هذه الآية حيث يقول : « سَيَهْدِينِ » يوفقني إلى ما فيه صلاحي »[11].

(١) سورة ٤٣ (الزخرف) : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٩ .
(٣) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ١ ، ص ١٩٠ .
(٤) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ٢ ، ص ١٩٠ .
(٥) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ٣ ، ص ١٩٠ .
(٦) انظر البحر المحيط ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ عند تفسير قوله — تعالى — : « علم الله أنكم ستذكرونهن » من سورة البقرة ، الآية ٢٣٥ حيث قال أبو حيان : « وجاء الفعل بالسين التى تدل على تقارب الزمان المستقبل لا تراخيه وانظر أيضاً : دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .
(٧) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٢٠ .
(٨) سورة ٤٣ (الزخرف) : ٢٧ .
(٩) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٩ .
(١٠) سورة ٣٧ (الصافات) : ٩٩ .
(١١) البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٣٦٩ .

والحق أنَّ تفسير أبى حيان لقول بعض أهل الكتاب : « سيُغْفَرُ لَنَا » بأنه « قَطْعٌ علَى اللهِ بغُفْران معاصِيهم »(١) فيه نظر ، فمن اليقين أنَّ الراغب فى [غفران ذنبه يَدِين بالخضوع لمن يملك هذَا الغفران ، وما كان لإنسان مهما تكن عقيدته أن يقطع على ربه بغفران معصية ؛ لكنَّ الزمخشرى يقول فى تفسير عبارة « وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِم عَرَضٌ مِّثلهُ يَأْخذُوهُ »(٢) : « أى يرجون المغفرة وهُم مُصِرون »(٣) ؛ ومن قبل الزمخشرى قال الطبرى : « ويقولُونَ إِذَا فَعلُوا ذَٰلِكَ إنَّ الله سيغْفِر لنا تمنِّياً على اللهِ الأباطيل »(٤) .

من أجل ذلك ينبغى لنا أن نفهم قول القائلين : « سيُغْفر لنا » على أنه قول المشفق الطامع فى أن يغفر الله ذنبه ، وهو لا يأمن أن يكون هذا الغفران على النحو الذى أحب ، أى أنَّ معنى قول بعض أهل الكتاب : « سَيُغْفَرُ لَنَا » هو – والله أعلم – : لعل الله يغفر لنا ، أى أنَّ (السين) فى هذه الآية قد عاقبت (لعل) فأفادت معناها من الطمع والإشفاق كما أفادت (السين) ذلك المعنى عندما عاقبت (لعل) فى قوله –تعالى– « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَأَتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »(٥)

وكذلك ينبغى لنا أن نفهم ما جاء على لسان إبراهيم وموسى (ع) من قول الله – تعالى – : « سَيَهْدِينِ »(٦) لأنه إذا كُنَّا نستبشع أن يقطع بعض أهل الكتاب على ربهم بغفران معاصيهم فإنا نُنزِّه رسل الله (ع) عن أن يبدوا وكأنهم أمِنوا مكر الله فيُخبروا عن الله –عز وجل –

---

(١) البحر المحيط ، ج ٤ ، ص ٤١٦ .

(٢) سورة ٧ (الأعراف) : ١٦٩ .

(٣) الكشاف ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، جامع البيان عن تأويل القرآن ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ج ٢ ، ١٩٥٨م ، ص ٢١١ وانظر أيضاً أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى مجمع البيان فى تفسير القرآن ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ – ١٩٦١م ، ص ٥٧ حيث يقول : « ... « ويقولون سيغفر لنا » وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب ، إذا أشرف لهم شىء من الدنيا أخذوه حلالا كان أو حراماً ويتمنون على الله المغفرة»

(٥) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٦) انظر سورة ٢٦ (الشعراء) : ٦٢ ، وسورة ٣٧ (الصافات) : ٩٩ ، وسورة ٤٣ (الزخرف) : ٢٧ .

بأنه سيهديهم عن قريب إلى طريق النجاة ويُعرِّفهم إيّاه[1]، أو أنه سيُديم هدايتهم كما قال أبوحيان[2] والزمخشرى من قبله[3]، ولو أننا فسرنا ذلك القول على أنَّ (سين) « سيهدين » فى الايات الثلاث[4] مفيدة ما تفيده (لعل) من الطمع والإشفاق، مَثَلها فى ذلك مثَل (السين) فى « إنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَـآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »[5] ـ لكان ذلك ـ والله أعلم ـ أقرب إلى الصواب، وأصدق تصويرًا لما يعمر قلوب رسل الله (ع) من خشية لله ـ تعالى ـ ورهبة.

شواهد الشعر:

عرضنا فيما سبق من القول شواهد من القرآن الكريم تؤيد دعوانا أنَّ (السين) الداخلة على المضارع تفيد فى حال معينة ما تفيده (لَعل) من الطمع والإشفاق، وقد عولنا فى اختيارنا هذه الشواهد على أن تكون دلالتها على ما ندعيه دلالة صريحة واضحة؛ والآن ينبغى لنا أن نعرض ما وقع لنا من شواهد الشعر مما يظاهر الشواهد القرآنية فى إثبات هذه الدعوى:

يقول امرؤ القيس[6]:

إنى لعمرٍو ما انتميتُ، فلم
أعدل إلى بدل، ولا مِثْل
لأخٍ رضيتُ به، وشارك فى الْ
أنساب والأصهار والفضل
ولمثلُ أسباب علِقتُ بها
يمنعنَ مِن قَلَق ومن أَزْل

(١) البحر المحيط، ج ٧، ص ٢٠.
(٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ٩.
(٣) الكشاف، ج ٣، ص ٤٨٤.
(٤) انظر ما أشارت إليه التعليقة رقم ٦، ص ١٩٢.
(٥) سورة ٢٧ (النمل): ٧.
(٦) من قصيدة له مطلعها:

تنكرت ليلى عن الوصل ... ونأت ورث معاقد الحبل

انظر التعليقة رقم ٢، ص ١٩٤.

لما سما من بين أَقْرُنَ فالْ

أجبال قلتُ : فداؤه أهلى

همّ سيُبلغه التّمام ،[1] فذا

ظنّى به ، سينَال أو يُبلى[2]

ويقول الأَعلم الشنتمرى فى شرح البيت الأَخير :

« همّ » يعنى همّة . و « التّمام » : العلاء ، والمرتبة التى يريدها ؛ يقول : سينال ذلك ، أو يُبلى عذرا إن قصر دونه »[3] .

ومن يتأمل قول امرئ القيس : « همّ سيُبلغهُ التّمام » يجده يعبر عن ترجّيه أن تكون همة صاحبه سبباً يبلِّغه التّمام ، وهو فى هذا الترجى طامع مشفق لا يأْمن أن يقع ما ترجّاه على النحو الذى أحب ، وآية ذلك أن آمرأ القيس قد ردف قوله هذا بما يُنبئ عن إشفاقه ، فقال : « فذا ظنى به » ، فكلامه إذن محمول على الظن والتوقع لا على اليقين ، وأنّى للشاعر أن يكون على يقين من شأْن أُصاحبه فى مستقبل أيامه ؟

وبمثل ذلك نقول فى عبارة « سينال أو يُبلى ؛ » فهى تفسير لما سبقها من القول المفيد للترجى ؛ ولو أن آمرأ القيس جعل فى هاتين العبارتين ، (لعل) مكان (السين) لحسن ذلك حسنه فى قوله – تعالى – « لَعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى »[4] .

من أجل ذلك نقول : إن (السين) فى قول امرئ القيس : « همّ سيُبلغه

(١) ضبطت كلمة « التمام » بضم الميم الآخرة ، وكذلك عند حسن السندوبى ، شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية ، والإسلام ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٥٩ م ، ص ١٧١ ، ولعل هذا تحريف فى المطبوعين والصواب فتح الميم الآخرة حتى يتفق البيت وشرح الأعلم المشار إلى موضعه فى التعليقة الآتية .

(٢) ديوان امرئ القيس بشرح الأعلم الشنتمرى ، (القسم الثانى ، رواية المفضل من نسخة الطوسى مما لم يروه الأصمعى) ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) سورة ٢٠ (طه) : ١٠ .

التَّمام » ، وقوله : « سينال أو يُبلى » مفيدة ماتفيده (لعلَّ) من الطمع والإشفاق ، مثلها فى ذلك مثل (سين) « سَءَاتِيكُم » من قوله – تعالى – « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ »[1] التى عاقبت (لعل) المصرح بها فى قوله – تعالى – : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى »[2] ، وقوله – تعالى – : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْجَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ »[3]

ويقول طرفة بن العبد :

ستُبدى لك الأَيام ماكنت جاهلا
ويأْتيك بالأَخبار من لم تُزَوِّدِ
سيأْتيك بالأَخبار من لم تبع له
بتاتاً ، ولم تَضرب له وقت موعدِ[4]

ومن الواضح أَنَّ طَرفَة يترجّى فى قوله « ستبدى لك الأَيام .... » ، وقوله : « سيأَتِيك بالأَخْبار . . . » فهو لا يأْمن أَن يقع ماعبّر عنه فى البيتين على النحو الذى يحب ، لأَنه لا يملك أَمره ، فهو لايملك أَن تُظْهِرَ الأَيام لمخاطبه مالم يكن يعلمه ، أَو أَن يحصل لذلك المخاطب العلمُ بما يشاءُ من الأَخبار من غير أَن يبذل المال والجهد لمعرفته .

من أَجل ذلك نستطيع أَن نقول : إِنَّ (السين) فى كل من العبارتين : « ستُبدِى . . . » و « سيأْتِيكَ . . . »

---

(١) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٢) سورة ٢٠ (طه) : ١٠ .

(٣) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٩ .

(٤) من قصيدة له مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ظللت بها أبكى وأبكى إلى الغد

انظر محمد بن القاسم الأنبارى ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ م ، ص ١٣٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ . وورواية البيت الثانى هنا : « سيأتيك بالأخبار...» ، وقد فضلناها لسبق ابن الأنبارى ، أما رواية الخطيب التبريزى فبالواو : « ويأتيك بالأنباء . . . » ، وكذلك رواية الديوان : « ويأتيك بالأخبار . . . » . انظر : أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى ، شرح القصائد السبع مع المضاف إليها المشهور بشرح القصائد العشر ، تحقيق فخر الدين قباوة ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ١٥٨ . وديوان طرفة بن العبد ، تحقيق كرم البستانى ، بيروت ، بدون ، ص ٤١ .

مفيدة ماتفيده (لعل) من الطمع والإشفاق ولو أننا جعنا (لعل) مكان (السين) فى كل من العبارتين لحصل المعنى الذى فهمناه من قول طرفة بلا زيادة أو نقصان؛ وإذن ، فـ (السين) فى قول طرفة : « ستُبدِى . . . » و « سيأْتِيكَ . . . » قد عاقبت (لعل) مِثلَ (السين) فى قوله — تعالى — : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ »[1] .

ومن الشواهد التى كثر ذكرها فى مصادر اللغويين قول الشاعر :

سيُغْنينِى ٱلَّذِى أَغناكَ عنِّى
فلا فقرٌ يدومُ ، ولاغِناءُ[2] .

ومن يتأمل كلام الشاعر فى الشطر الأول يجده يعبر عن طمعه فى أن يُغنيه الله ، ولكنه طامع مشفق غير آمن أن يقع له الغِنى على نحو ما أحب ، فحاله حال المترجى لا الموقن[3] ، وما كان لبشر أن يقطع على ربه بأن يُغنيه ، ولو أننا فسرنا قول الشاعر: « سيغنينى الذى أغناك عنى » بقولنا : لعل الذى أغناك عنى يغنينى لكنا معبرين عن مضمون قول الشاعر أصدق تعبير ؛ وإذن فـ (السين) فى قول الشاعر : « سيغنينى الذى أغناك عنى » قد عاقبت (لعل) وأفادت ما تفيده من الطمع والاشفاق شأنها فى ذلك شأن (سين) « سَـَٔاتِيكُم »

---

(١) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٢) أنشده ثعلب فى شرح بيت زهير :

يجرون البرود وقد تمشت ... حيا الكأس فيهم والغناء

حيث قال : « . . . والغناء ممدود من الصوت ، والغنى من المال مقصود ، وقد مده الشاعر فقال : سيغنينى . . . » . أنظر أحمد بن يحيى بن زيد الشيبانى ثعلب ، شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م ، مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٦٣هـ — ١٩٤٤ م ، ص ٧٣ . عجز. وهذا البيت ذكره ابن هشام ٧٦١ هـ فى أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تحقيق محمد محيى الدين ، بيروت ، بدون ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ ، وهو الشاهد رقم ٥٣٧ . والبيت بشطريه ذكره أبو الحسن على نور الدين بن محمد بن عيسى الأشمونى ٩٢٩هـ فى شرحه على ألفية ابن مالك المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك ، عيسى الحلبى ، القاهرة ، بدون ، ج ٤ ، ص ١١٠ ، والمطبوعة بعنوان حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، ومعه شرح الشواهد للعينى . هذا ، وقد قال بدر الدين محمود بن أحمد العينى ٨٥٥ هـ فى مختصر شرح شواهد الألفية ويعرف : بالشواهد الصغرى المطبوع بحاشية المرجع السابق نفسه : « . . . السين هنا وإن كان للاستقبال ولكنه يفيد معنى التأكيد » .

(٣) انظر ماقاله بدر الدين العينى وأشرنا إليه آنفا .

فى قوله ـ تعالى ـ : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَـاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ »[1]

ويقول عبدُ الله بن عَنمةَ الضَّبىُّ[2] :

أَشَتَّ بليلى هجرُها وبِعادها
بما قد تؤاتينا وينفعُ زادُها

سنلهو بليلى والنَّوى غيرُ غَرْبَة
تَضَمنَّها من رامتين جِمادُها

ليالى ليلى إذهى الهمُّ والهوى
يريدُ الفؤادُ هجرَها فيصادُها

فلما رأيتُ الدار قفرًا سألتها
فَعَىَّ علينا نُؤْيُهَا ورمادُها

فلم يبقَ إلَّا دِمْنَةٌ ومنازلٌ
كما رُدَّ فى خطِّ الدواةِ مِدادُها

إذا الحارث الحرَّابُ عادى قبيلةً
نكاها ، ولم تبعُد عليه بلادُها[3]

ويقول محققا متن المفضليات الشيخ أحمد شاكر والأُستاذ عبد السلام هارون ـ فى وصف جو هذه القصيدة : « هاجه بُعد ليلى وهجرها ، وتوقَّع أن تتبدل الحال فيلتئم الشمل مرة أُخرى ، ثم يصف أطلال دارها ، ووقوفه عندها يسائلها ، ثم يصير إلى الغرض الأَول من كلمته وهو مدح الحوفَزان . . »[4]

وإذا فتشنا فى الأَبيات عن العبارة التى أوحت إلى هذين العالمين المحققين بأَن يقولا دون تكلُّف : « وتوقع أن تتبدل الحال فيلتئم الشملُ مرَّةأُخرى »[5]

---

(١) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٢) هو شاعر إسلامى مخضرم . انظر ترجمته فى حاشية كتاب المفضل بن محمد بن يعلى الضبى : المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٩ م ، ص ٣٧٩ من المفضلية رقم ١١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧٩ . والأبيات مذكورة أيضا فى كتاب الأصمعى أبى سعيد عبد الملك بن قريب ، الأصمعيات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط ٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م ، ص ٢٢٦ ، الأصمعية ٨٥ .

(٤) المرجع السابق ، حاشية ص ٣٧٩ .

(٥) المرجع السابق .

فإنا لانجد غير قول الشاعر : « سنلهو بليلى والنوى غيرُ غَرْبةٍ »[1] ؛ ويقول صاحب اللسان فى معنى التوقع : « وتوقع الشىء واستوقعه : تنظَّره وتخوفه »[2] ،

وإذن ف (السين) فى « سنلهو » هى التى أفادت هذا التنظر والتخوف ، أو الطمع والإشفاق ، أى أن (السين) فى بيت ابن عنَمةَ « سنلهو بليلى . . . » قد عاقبت (لعل) وأفادت ما تفيده من الطمع والاشفاق ، مثلُها فى ذلك مَثَلُ (سين) « سَـآتِيكُم » من قوله – تعالى – : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَـآتِيكُم مِّنْها بِخَبَرٍ »[3] حيث عاقبت (السين) (لعل) المصرح بها فى قوله – تعالى – : « لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْها بقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى »[4]

وقوله – تعالى – : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ »[5] .

أما بعد ، فإنه يصح لنا أن نقول مطمئنين :

إن (سين) التنفيس تفيد ما تفيده (لَعل) من الطمع والإشفاق فى كل موضع يحسن أن تحل فيه (لعل) محلها .

(١) انظر الأبيات قبلا .

(٢) محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور ٧١١ هـ ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، مادة (وقع) .

(٣) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٤) سورة ٢٠ (طه) ١٠ .

(٥) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٩ .

سـوف

ويقول سيبويه فى معنى (سوف) :

« وأما (سوف) فتنفيس فيما لم يكن بعد ، ألا تراه يقول ؛ سوفته »[1] يعنى إذا قال له مرة بعد مرة : سوف أفعل[2].

ويقول فى (باب الحروف التى لايليها بعدها إلا الفعل) :

« ومن تلك الحروف أيضاً سوف يفعل ، لأنها بمنزلة (السين) التى فى قولك : سيفعل وإنما هى إثبات لقوله : لن يفعل ، فأشبهتها فى أن لايفصل بينها وبين الفعل »[3].

ويقول ابن هشام :

« (سوف) مرادفة ل (السين) ، أو أوسع منها على الخلاف[4] ، وكأن القائل بذلك نظر إلى أنّ كثرة الحروف تدل على كثرة المعنى ، وليس بمطرد ؛ ويقال فيها : « سف » ، و « سو » بحذف الأخير[5] ، و « سَىْ » بحذفه وقلب الوسط ياءً مبالغة فى التخفيف ، حكاه صاحب المُحكَم . وتنفرد عن (السين) بدخول اللام عليها نحو : « وَلَسوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى »[6] ، وبأنها قد تُفصل بالفعل المُلْغَى ، كقوله :

---

(١) سيبويه الكتاب ، هارون ج ٤ ، القاهرة ١٩٧٥ م ، ص ٢٣٣ - بولاق ، ج ٢ ص ٣١١ .

(٢) انظر هذا الشرح عند الجوهرى إسماعيل بن حماد ، تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م ، مادة (سوف) بتصرف حيث جعلنا « قال » مكان « قلت » .

(٣) الكتاب ، هارون ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ١١٥ - بولاق ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .

(٤) يعلق الشيخ محمد محيى الدين على ذلك بقوله : « يريد خلاف البصريين الذين يقولون : إن المدة مع (سوف) أوسع منها مع (السين) ، والكوفيين الذين يقولون : إنهما مترادفان ، وليست المدة مع (سوف) أوسع بل هما مستويان » انظر حاشية الصفحة المشار إليها فى التعليقة الآتية ؛ كذلك انظر مانقلناه قبلا عن ابن هشام عند الكلام على « السين » ، ص ١٧١ .

(٥) انظر مراجع ذلك الخلاف المشار إليها فى التعليقة رقم ٣ ، ص ١٧١ .

(٦) سورة ٩٣ (الضحى) : ٥ .

وما أدرى وسوف إخال أدرى

أقومٌ آلُ حِصن أم نساءٌ »[1]

وقد نقل بدر الدين الزركشى ، وجلال الدين السيوطى عن ابن بابشاذ أن (سَوْفَ) تُستعمل كثيرًا فى الوعيد والتهديد ، وقد تستعمل فى الوعد[2] .

وقد عد الشيخ محمد عضيمة ثمانيًا وعشرين آية قرآنية جاءت فيها (سَوْفَ) للوعيد ،[3] وعشر آيات جاءت فيها (سَوْفَ) الوعد[4] ، ثم أتبع ذلك بمجموعة من الفقار عالج فيها أحكاماً تشترك فيها (سَوفَ) مع (السين) من إفادة (السين) و (سَوْفَ) تحقق الوقوع ؛ والاستمرار ؛ وأنّهما يخلّصان المضارع إلى معنى الاستقبال : وأنَّ (سَوْفَ) أشد تراخياً فى الاستقبال من (السين) ؛ وأنه ليس لحرفى التنفيس صدر الكلام ؛ وأنَّ الجملة المصدَّرة بعلامة الاستقبال من (السين) و (سَوْفَ) وقعت فى بعض آيات القرآن الكريم خبرًا للمبتدإ[5] .

وإذا كان الشيخ عضيمة نحويًّا معاصرًا قد لخَّص فيما كتبه عن (سوْفَ) جميع ما قاله النحويون من قبله كنا على يقين من أنَّ النحويين جميعاً قدماءَ ومُحْدَثين لم يجدوا لحرف التنفيس (سوف) إلَّا ما نقلناه قبلا من أنواع الاستخدام ؛ لكنَّ الإنعامَ فى النظر إلى بعض أبيات الشعر يكشف عن معنى آخر لـ (سوف) أُراه لم يقع لنحوى من قبل ، وبيان ذلك فيما يأتى من القول :

---

(١) انظر ما أشير إليه فى التعليقة رقم ٦ ، ص ١٧٢ ، والبيت لزهير بن أبى سلمى ، وسنناقشه بعدا .

(٢) انظر مانقلناه قبلا عن الزركشى والسيوطى عند الكلام على (السين) ، وعلقنا عليه فى الصفحتين ١٧٢ و ١٧٣

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ، ج ٢ ، ص ١٧٥ — ١٧٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٧٧ — ١٧٨ . ولم نعن هنا بنقل شىء من الشواهد القرآنية على إفادة (سوف) الوعيد أو الوعد كما فعلنا عند معالجة (السين) ، لأننا لم نختر شيئا من هذه الشواهد ليكون دليلا لنا على مانقوله .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٨٣ — ١٩٣ ، وانظر المرجع مفصلا فى حاشية ص ١٨٠ .

يقول ذو الإصبع العدواني [1] :

ولى ٱبن عم على ما كان من خُلُقٍ
مختلفان ، فأَقليه ، ويَقْلينى
أزرى بنا أنَّنَا شالت نعامتُنَا
فخالنى دونَه ، بل خلتهُ دونى
لاهِ ابنُ عمك لا أفضلت فى حسبٍ
عَنِّى ، ولا أنت ديَّانى فتخزونى

* * *

إن الذى يقبض الدنيا ويَبْسُطها
إن كان أغناك عنى سوف يغنينى [2]

ومن يتأمل قول ذى الإصبع فى البيت الأخير يجد أنه محمول على معنى غير معنى الخبر واليقين ، فأمر استغنائه عن ابن عمه بيد الله الذى يقبض الدنيا ، ويبسطها ، وليس بيده هو ، وما كان لذى الإصبع أن يقطع على الله بأن يُغنيه عن ٱبن عمه كما أغنى ٱبن عمه عنه ، فكلامه إذن هو كلام المترجى لا المخبر الموقن ، و (سوف) فى قوله : « سوف يُغنينى » قد عاقبت (لعل) كما عاقبت (السينُ) (لعل) فى قوله – تعالى – : « « إِنِّى ءانَسْتُ نَارًا سَسآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » [3] ؛ ولو أن شارحا فسر قولَ الشاعر « سَوْفَ يُغنينى » بقوله : لعله يُغنينى ماجاوز الصواب ، وإذا حسن أن تحل (لعل) المفيدة للترجى محل (سَوْفَ) فى قول ذى الإصبع : « سَوْفَ يُغنينى » كانت (سوف) فى ذلك القول مفيدة ماتفيده (لعل) من الترجى ، أو الطمع والإشفاق .

---

(١) اسمه حرثان بن الحرث بن محرث ، شاعر فارس قديم جاهلى . انظر ترجمته فى حاشية المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٩ م ، ص ١٥٣ . وانظر أيضا أبو الفرج الأصبهانى على بن الحسين ٣٥٦ هـ الأغانى ، ج ٣ ، بولاق ، بدون ، ص ٢ وما بعدها .

(٢) أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ، شرح ديوان المفضليات ، تحقيق كارلوس لايل ، بيروت ، ١٩٢٠ م ، ص ٣٢٥ . كذلك انظر أبو على إسماعيل بن القاسم القالى ٣٥٦ هـ ، كتاب الأمالى ، بيروت ، بدون ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ . وكذلك انظر الأغانى ، ج ٣ ، بولاق ، بدون ، ص ٩ .

(٣) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

ويقول زهير بن أبى سُلمى[1] :

وما أدرى ، وسوف إخالُ أدرى

أقومٌ آلُ حِصْن أم نِساء

فإن تكن النساءُ مخدَّرات

فحُقَّ لكُلِّ مُحصَنَة هِداءُ[2]

قال أبو العباس ثعلب فى شرح هذين البيتين :

« يقول : ما أدرى أرجال هم أم نساءٌ . . . فإن قالوا : هن النساءاللاتى يختبئن فى الخدور فينبغى أن يُزَوجن إذًا »[3] .

وقال عبد القادر البغدادى :

« وفى قوله : « وسوف أدرى » مبالغة ، يقول : لشدة شبههم بالنساء لايمكن الآن معرفتهم ، ويمكن أن أعرفهم فى المستقبل بمزاولة فكر »[4] .

ونقول بناء على ما تقدم : إنه إذا ألقى زهير فى رُوعنا مبالغاً أنه تعذر عليه معرفة حقيقة آل حصن فإحال قوله هذا الكلام فإن معرفة هذه الحقيقة فيا يستقبل من الزمان بمزاولة الفكر - إذا قدّرنا هذه المبالغة - ىءٌ لا يدخل فى باب اليقين ، بل هو شيء مراد محبوب للمتكلم به لكنه لا يأمن أن يقع فى المستقبل ، على نحو ما أحب ، ويؤيد ما نقول جعلُ زهير جملة « إخال » معترضة بين « سوف » ، و « أدرى » تأكيدًا لمبالغته ،

(١) من قصيدة له يهجو فيها أهل بيت من كلب من بنى غليم بن جناب ، مطلعها :

عفا من آل فاطمة الجواء فيمنٌ ، فالقوادم ، فالحساء

انظر شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ، ص ٥٥ ومابعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) عبد القادر بن عمر البغدادى ١٠٩٣ ﻫ ، شرح أبيات مغنى اللبيب ، تحقيق عبد العزيز رباح و أحمد دقاق ، ج ١ ، دمشق ، ١٩٧٣ م ، ص ١٩٦ .

و « إخال » بمعنى أظن ؛ ويؤيد ما نقول أيضاً ما أثاره زهير من التشكيك بقوله :

فإن تكن النساءُ مُخدَّرات
فَحُقَّ لكُلِّ مُحَصَّنَةٍ هِداءُ

وإذن فقول زهير : « وسوف إخال أدرى » يصدق عليه ما قاله المبرد فى تفسير جملة (لعل) المفيدة للترجى :

« فإذا قلت : لعل زيدًا يأْتينا ، ولعل عمرًا يزورنا — فإنما مجاز هذا الكلام من القائل أنه لايأْمن أن يكون هذا كذا »[1]

ولو أن شارحاً جرَّد قول زهير : « وسوف إخال أدرى » من جملة إخال المعترضة ، وجعل (لعل) مكان « سوف » لحسن ذلك منه ، أى أنَّ « سوف » فى قوله : « وسوف إخال أدرى » مفيدة ماتفيده (لعل) من الترجى أو الطمع والإشفاق كما أفادت (السين) فى « سَسآتِيكُمْ » من قوله — تعالى — : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَسآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ »[2] — الترجى حيث عاقبت (لعل) المصرح بها فى قوله — تعالى : — : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ »[3] ، وقوله — تعالى — : « إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ »[4] .

من أجل ذلك يصح لنا أن نجعل (سوف) شريكة (السين) فى المعنى الذى قلنا إن (السين) تفيده ، فنقول :

إن كلا من حرفى التنفيس يفيد ما تفيده (لعل) من الطمع والإشفاق فى كل موضع يحسن أن تحل فيه (لعل) محلَّهُ .

هذا ، وما توفيقى إلَّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

---

(١) انظر ماتشير إليه التعليقة رقم ١ ، ص ١٨٢ .

(٢) سورة ٢٧ (النمل) : ٧ .

(٣) سورة ٢٠ (طه) ١٠ .

(٤) سورة ٢٨ (القصص) : ٢٩ .

المراجع

١ – الإتقان في علوم القرآن ، الحافظ جلال الدين السيوطى ٩١١هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

٢ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المسمى تفسير أبي السعود ، أبو السعود محمد بن محمد العمادى ٩٥١ هـ ، بيروت ، بدون .

٣ – الأصمعيات ،الأصمعى سعيد بن عبد الملك بن قريب ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط ٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٤ – الأغانى ، أبو الفرج على بن الحسين الأصبهانى ٣٥٦ هـ ، بولاق ، بدون .

٥ – الأمالى ، أبو على إسماعيل بن القاسم القالى ٣٥٦ هـ ، بيروت ،بدون ، مصورة عن طبعة دار الكتب .

٦ – الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنبارى ٥٧٧هـ ،تحقيق محمد محيي الدين ط ٤ ، ١٣٨٠ هـ – ١٩٦١ م .

٧ – أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ابن هشام الأنصارى المصرى ٧٦١ هـ ،تحقيق محمد محي الدين، بيروت ،بدون.

٨ – البحر المحيط ، محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسى ٧٥٤ هـ ،ط ٢ ، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ، مصورة عن طبعة ١٣٢٨ هـ .

٩ – البرهان فى علوم القرآن ،بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، القاهرة ، عيسى الحلبى ، ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٨ م .

١٠ – تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهرى ٣٩٣هـ ،تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

١١ – جامع البيان عن تأويل القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ١٣١٠هـ ، القاهرة ، ط ٢ ،مصطفى الحلبي ، ١٩٥٤ م . وطبعة أخرى بتحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

١٢ – دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، القسم الأول ، محمد عبد الخالق عضيمة ، جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، مطبعة السعادة ، بدون .

١٣ – ديوان امرئ القيس ، بشرح الأعلم الشنتمرى أبي الحجاج يوسف بن سليمان النحوى ٤٧٦ هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م .

١٤ – ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق أكرم البستاني ، بيروت ، بدون.

١٥ – رصف المباني فى شرح حروف المعانى ، أحمد بن عبد النور المالقى ٧٠٤ هـ ، تحقيق أحمد الخراط دمشق ، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

١٦ – شرح أبيات مغني اللبيب ، عبد القادر بن عمر البغدادى ١٠٩٣ هـ ، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد دقاق ، ج ١ ، دمشق ، ١٩٧٣ م .

١٧ – شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية والإسلام ، حسن السندوبى ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٥٩ م .

١٨ – شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، أحمد بن يحيى بن زيد الشيبانى ثعلب ٢٩١ هـ الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، ١٣٦٣ هـ – ١٩٤٤ م .

١٩ – شرح ديوان المفضليات ، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشاره الأنبارى ٣٠٤ هـ ، تحقيق كارلوس لايل ، بيروت ، ١٩٢٠ م .

٢٠ – شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، محمد بن القاسم الأنبارى ٣٢٨ هـ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

٢١ – شرح القصائد العشر ، أو شرح القصائد السبع مع المضاف إليها ، يحيى بن على الخطيب التبريزى ٥٠٢ هـ ، تحقيق فخر الدين قباوة ، بيروت ، ١٩٨٠ م .

٢٢ – شرح المفصّل ، يعيش بن على بن يعيش ٦٤٣ هـ ، القاهرة ، بدون .

٢٣ – الكتاب ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه ١٨٠ هـ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٦ م .

٢٤ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، جار الله محمود ابن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٥٣٨ هـ ، تحقيق قمحاوى ، مطبعة الحلبى ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م .

٢٥ – لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور ٧١١ هـ دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ م .

٢٦ – مجمع البيان فى تفسير القرآن ، أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى ٥٤٨ هـ ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ – ١٩٦١ م .

٢٧ – مختصر شرح شواهد الألفية ، بدر الدين محمود بن أحمد العينى ٨٥٥ هـ ، والمختصر مطبوع مع حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية بن مالك ، القاهرة عيسى الحلبى ، بدون .

٢٨ – مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصارى المصرى ٧٦١ هـ ، تحقيق محمد محيى الدين ، القاهرة ، بدون .

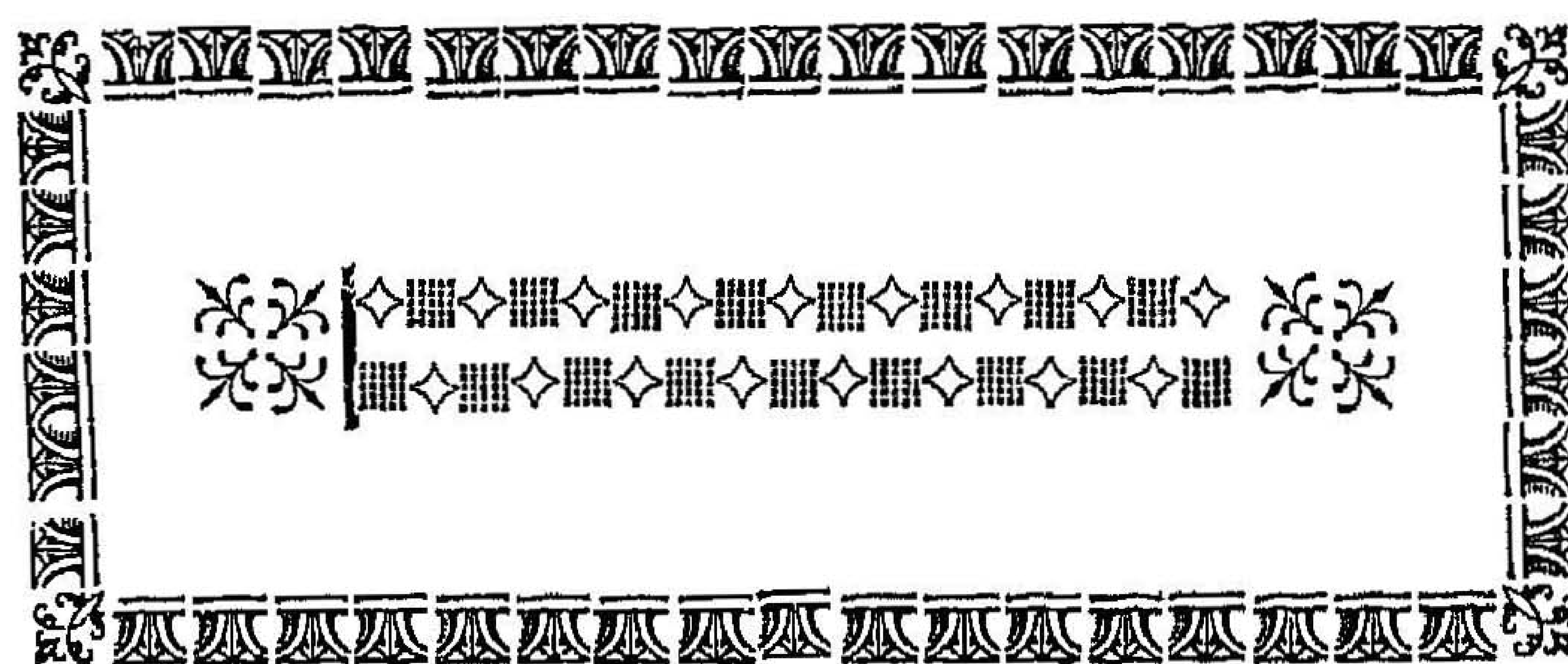
٢٩ ـ المفضليات ،المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ١٧٨ هـ ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط. ٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٣٠ ـ المقتضب ، محمد بن يزيد المبرد ٢٨٥هـ ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ .

٣١ ـ منهج السالك إلى ألفية ابن مالك المعروف بشرح الأشمونى ، أبو الحسن على نور الدين ابن محمد بن عيسى الأشمونى ٩٢٩ هـ ، وهو مطبوع مع حاشية الصبان ومختصر شرح الشواهد للعينى بعنوان حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعينى ، عيسى الحلبى ، القاهرة ، بدون

٣٢ ـ النهر الماد من البحر ، محمد بن يوسف المشهور بأبى حيان الأندلسى ٧٥٤ هـ ، والكتاب مطبوع بحاشية البحر المحيط للمؤلف نفسه ، ط. ٢ ، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م مصورة عن طبعة ١٣٢٨ هـ .

صبحى عبد المنعم سعيد



صدف البحر ومحاره

للدكتور علي الشكري

يزخر البحر بأنواع من الصدف والمحار والقواقع والحلزون (شكل ١) وهى ذات أشكال وأحجام مختلفة وكذلك ذات ألوان وزخارف متباينة ، وهى تكون فى مجموعها قبيلة كبيرة من الحيوانات البحرية اللافقارية تسمى قبيلة الرخويات . هذه الأصداف عموما ذات فائدة كبيرة للإنسان: فقد تكون مادة غذائية له أو قد يستخرج من بعض أنواعها اللآلىء أو قد تدخل فى بعض الصناعات الزخرفية وغيرها ، كذلك قد تكون ضارة بصحة الإنسان حيث تقوم فى ظروف معينة بدور الوساطة فى انتقال عدوى بعض الأمراض .كان لقدماء المصريين السبق فى استخدام الأصداف فى عمليات الزينة، والزائر للمتحف المصرى بالقاهرة سوف يجد بعضا من الآثار الصدفية التى تركها الأقدمون، ومما اشتهروا به قطع هذه الأصداف إلى قطع صغيرة ثم نظم القطع فى عقود .

قبيلة الرخويات :

قبيلة الرخويات تعتبر من أكبر قبائل المملكة الحيوانية ، وبالذات من أكبر قبائل اللافقاريات، وتضم مجموعة متباينة من الأنواع يصل عددها إلى نحو ٨٠,٠٠٠ نوع . سميت بهذا الاسم « الرخويات » لأن أجسامها تتكون من كتلة لحمية دهنية هلامية دون وجود هيكل عظمى داخلى يقومها ، وتحمى نفسها بواسطة صدفة خارجية قد تكون من نوع ذات المصراعين أو من نوع ذات المصراع الواحد مثل الحلزون . ويقوم بإفراز هذا الصدف عضو متخصص من جسم الحيوان يسمى البرنس حيث يغطى غالبية أجزاء الجسم الداخلية ويفرز هذا العضو أيضاً اللآلىء ، وهى لا تختلف كثيراً فى تركيبها الكيميائى عن الصدف الذى يحويها . تتحرك الرخويات بواسطة عضو عضلى يقال له القدم وحركتها بطيئة ويكون تنفسها غالبا من خلال الخياشيم .

العلبة الجيرية التى تحتوى أجزاء الحيوان الرخو قد تتكون من شقين؛أى أنها مزدوجة وتسمى فى هذه الحالة : ذات المصراعين والحيوان بداخلها يتنفس بالخياشيم؛وهى إما أن تعيش فى البحار أو الأنهار أما العلبة ذات المصراع الواحد مثل الحلزون فصدفتها مكونة من شق وحيد ذو شكل حلزونى أو لولبى ،والحيوان فى هذه الحالة يتنفس بواسطة الرئة أو الخياشيم ، وهذا النوع يعيش إما فى البحار أو المياه العذبة كالأنهار والبحيرات العذبة وعلى الأرض . وتفرز هذه الحيوانات مادة كربونات الكالسيوم من الماء وترسبها فى أنسجتهالتكون هياكلها الجيرية .

تتركب الصدفة من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض وتنمو فى نفس الوقت، تترسب الطبقة الخارجية أولا وتتركب من مادة اسمها الكونكيولين وهى مادة عضوية ذات لون بنى تشبه الكيتين ، أما الطبقة الوسطى فتتكون من منشورات دقيقة من معدن الكالسيت تلحمها مع بعض مادة الكونكيولين المذكورة أما الطبقة الداخلية فتتكون من بلورات معدن الأراجونيت الدقيقة مع وجود مادة الكونكيولين اللاحمة وهذه الطبقة الأخيرة تسمى طبقة أم اللؤلؤ وهى نفس الطبقة التى يتكون منها اللؤلؤ ولها على وجه الخصوص تركيب كيميائى مشابه لتركيبه . يستخرج معظم اللؤلؤ من الرخويات البحرية ذات المصراعين غير أن بعض رخويات المياه العذبة من ذوات المصراعين يمكن أن تنتج أنواعاً معينة من اللآلى ويستخرج اللؤلؤ . من بعض الرخويات ذات المصراع الواحد (الحلزون) التى تعيش فى البحار والسبب المباشر فى تكون اللالىء هو حدوث التهاب مفاجىء نتيجة مرض يصيب الحيوان الرخو أو دخول طفيل إلى جسمه اللحمى أو حبة غريبة مثل حبة رمل أو قطعة صغيرة من فتات صدفة .

الصدف والمحار والودع فى اللغة

وضع العرب ١٢ اسما مختلفاً تصف أنواع الصدف والمحار والودع والحلزون التى تعيش فى المياه المالحة أو العذبة ، ونورد هنا هذه الأسماء بشرحها كما جاءت بكتاب الإفصاح فى فقه اللغة الجزء الثانى من عمل حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدى (١٩٦٧) :

١ — الصدف . غشاء الدر . الواحدة صدفة .

٢ — المحارة : الصدفة ونحوها من العظم .

٣ — الودعة : الودَعة والودْعة (فتح الدال وسكونها) : خرزة بيضاء تخرج من البحر ، شقها كشق النواه ، تعلق لدفع العين ، الجمع ودعات .

٤ — الدلاع : ضرب من محار البحر . والدولعة : صدفة منحوية إذا أصابها

ضبح النار خرج منها كهيئة الظفر فيستل قدر أصبع ، فهو هذا الاظفار الذى فى القسط

٥ — القرثع : دويبة بحرية لها صدفة تكون فى البحر .

٦ — الجم : (ضم الجيم) صدف من أصداف البحر .

٧ — السلج : أصداف بحرية فيها شيء يؤكل .

٨ — الحلزون : من أصداف البحر . والحلزون دويبة رمثة (ضعيفة) لحمها جيد للمعدة وجراحة الكلب ، ومحروق صدفه يجلو الجرب .

٩ — الدوك : ضرب من صدف البحر .

١٠ — القبقب : ضرب من صدف البحر يعلق على الصبيان من العين .

١١ — القنقن : القبقب

١٢ — الجمحل : لحم يكون فى جوف الصدف .

يمكن إضافة كلمة القوقع لهذه القائمة ومعناها كما ورد فى المعجم الوسيط — الجزء الثانى (١٩٧٣) : حيوان لا فقارى رخو يفرز حول جسمه صدفة مفردة حلزونية الالتفاف ، وهو يعيش فى البر أو البحر أو الماء العذب ، وفى أثناء الحركة والنشاط يبرز جسمه من الصدفة (شكل ٢) ، واحدته قوقعة .

هذه القائمة تحوى العديد من المصطلحات التى تصف أنواعاً مختلفة من الصدف والمحار والحلزون . ويمكن أن نضيف لها مصطلحات أخرى مستحدثة مثل : ذات المصراعين إذا كان الحيوان الرخويبى علبة جيرية ذات شقين ، أو ذات المصراع الواحد إذا كان الرخويبى علبة جيرية من شق حلزونى واحد ، أو الرخويات ، إشارة إلى القبيلة التى تضم كل هذه الأنواع وغيرها . ومن المدهش أن العرب خصصوا ثلاثة مصطلحات لوصف الصدف ذات المصراع الواحد (شكل ٣) وهى : الودعة ، ووصفوها بأنها خرزة بيضاء شقها كشق النواة وهو وصف جميل مختصر لنوع من الحلزونات البحرية التى تعيش فى المياه المالحة للآن ، ثم لفظ الحلزون والقوقع إشارة إلى أن الحيوان يبنى حول جسمه اللحمى صدفة مفردة متعددة الغرف حلزونية الهيئة (شكل ٤) . ولم يفتهم وضع مصطلح خاص بالجزء الرخو من الحيوان أو لحم الحيوان الذى يعيش فى جوف الصدف حيث أسموه الجمّحل .
وفى وصفهم لحيوان الرخو الدلاع أنه إذا أصابها ضبح النار خرج منها كهيئة الظفر ؛ فكأنهم يشيرون إلى خروج ذلك العضو العضلى المستخدم فى حركة الحيوان

وهو القدم ، ويمكننا الاستفادة بهذه الألفاظ الكثيرة فى ترجمة مصطلحات الرخويات ».

ورد فى معجم المصطلحات الجيولوجية الذى أعده المعهد الجيولوجى الأمريكى (أ ١٩٦٢) بخصوص تعريف كلمة Shell أنها بصفة عامة ، الغطاء الصلب المتين لحيوان ، ويكون هذا الغطاء عادة من مادة جيرية ، وفى حالات أخرى يكون كليا أو جزئيا من مادة كيتينية أو سليسية. يمكن أن يقابل هذا المصطلح الإنجليزى كلمة صدفة أو محارة فى العربية ؛ حيث لا توجد دلالة خاصة تشير ما إذا كان أحد هذين اللفظين (صدفة أو محارة) مخصصا لوصف ذوات المصراعين أو ذوات المصراع الواحد وهو ما تدل عليه كتب المعادن التى تصف استخراج اللؤلؤ من أصدافه . وهنا يلتقى اللفظ الإنجليزى Shell مع الترجمة العربية صدفة أو محارة فى عموم الإشارة إلى الأصداف من ذوات المصراعين أو من ذوات المصراع الواحد .أما كلمة Snail فيمكن أن يقابلها كلمة الحلزون أو القوقع أو الودعة ، أما كلمة Gastropoda فلها ترجمة حديثة وهى القدمعويات وهى الرخويات ذات المصراع الواحد الحلزونى .

شجر البحر

كان العرب يشيرون إلى المستعمرات المتفرعة لحيوان المرجان ، وهو حيوان بحرى يبنى هياكل خارجية جيرية ، على أنها أشجار المرجان وهناك بعض المصطلحات التى تصف تجمعات هذا الحيوان وغيره من حيوانات بحرية أخرى نوردها فيما يلى (كتاب الإفصاح الذى سبقت الإشارة إليه) :

١ — المرجان : عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف .

٢ — الإسفنج : عروق شجر نافع فى القروح العفنة . وقيل جنس حيوانات مائية ، والإسفنج الليفى الذى نستعمله فى الاغتسال هو بمثابة عظم الكتلة اللحمية من جسم الحيوان .

٣ — القرم: نبت كالدلب ، غلاظا وبياضا ينبت فى جوف البحر ، ورقه مثل ورق اللوز والآراك ، وثمره مثل ثمر الصومر .

عرف معجم المصطلحات الجيولوجية المشار إليه آنفا كلمة مرجان Coral بأنه حيوان جوفمعوى بحرى غير متحرك ويسكن القاع ، يوجد بعضه فى صورة آحاد متفرقة ولكن غالبيته تنمو فى مستعمرات ، وتفرز هذه الحيوانات هياكل خارجية من كربونات الكالسيوم ويمكن أن يشير المصطلح كذلك إلى الهيكل الجيرى الخارجى للحيوان أو لمستعمرة منه . وعليه فكلمة المرجان تقابل مصطلح Coral فى اللغة الإنجليزية ، هذه الهياكل المرجانية يمكن

أن تأخذ ألوانا مختلفة مثل الأبيض والأحمر والأسود :

فى تعريف كلمة Sponge ذكر معجم المصطلحات الحيولوجية أنه الكائن الحى الذى ينتمى إلى أبسط القبائل الحيوانية متعددة الخلايا وأقلها تطورا ؛ وهى المساميات وتمتلك بصفة عامة هيكلا شوكيا ، ومن الممكن أن تقابل كلمة إسفنج لفظ Sponge .

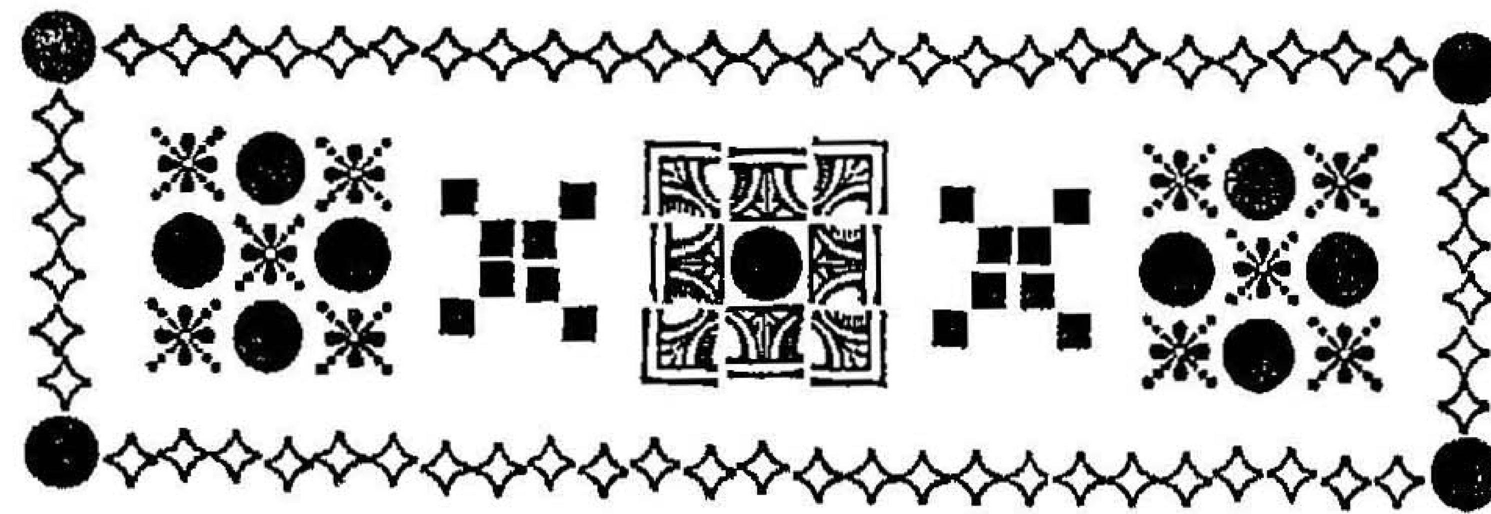
الخلاصة

درسنا فى هذا المقال قبيلة الرخويات وأشرنا إلى الأصداف ذات المصراعين والأخرى ذات المصراع الواحد وتركيب الصدفة وتكوين اللالئ . أوضح البحث وجود اثنى عشر اسما مختلفا تصف أنواع الصدف والمحار والودع ، هذه الأسماء هى : الصدف المحار — الودع — الدلاع — القرثع — الحم — السلج — الحلزون — الدوك — القبقب — القنقن — القوقع . مع وجود مصطلح خاص / الحمحل / يطلق على المادة الرخوية التى تحويها الصدف : يمكن إضافة مصطلحات مستحدثة أخرى مثل ذوات المصراعين وذوات المصراع الواحد والقدمعويات والرخويات ، وهكذا . كلمة صدفة أو محارة يقابلها فى الإنجليزية كلمة Shell ، كذلك فإن كلمة Snail يمكن أن يقابلها فى العربية كلمة الحلزون أو القوقع أو الودعة .

من ناحية أخرى وجد أن كلمة المرجان فى العربية يقابلها كلمة Coral فى الإنجليزية وكذلك كلمة الإسفنج يمكن أن يقابلها فى الإنجليزية كلمة Sponge :

هذه الألفاظ الوفيرة يمكن الاستفادة بها فى ترجمة المصطلحات الخاصة بالرخويات والمرجان والإسفنج وما شابهها وذلك فى إطار مصطلحات علم الحياة القديمة الذى يكون أحد الفروع المتعددة لعلوم الأرض .

على على السكرى



●● كلمة الدكتور شوقى ضيف

فى استقبال العضو الجديد الدكتور



السيد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع الأساتذه الأجلاء أعضاء المجمع ، سيداتى سادتى كان من حسن حظى أن دعيت لاستقبال زميلى الاستاذ الدكتور حسين مؤنس بتحية طيبة أتحدث فيها عن سيرته وجهوده القيمة التاريخية والأدبية ولا ريب فى أنكم تعرفونه وتقدرونه حق قدره ويقدره معكم أبناء الضاد فى ديارنا العربية — لكثرة بحوثه وأعماله. وقد ولد بمدينة السويس سنة ١٩١١ وظل والده يتعهده — منذ نعومة أظفاره وطوال تعليمه — ويحسن تعهده وظل قرة عين لوالديه لسبقه وتفوقه بين أترابه فى التعليم ، حتى إذا نال الشهادة الثانوية فى التاسعة عشرة من عمره جذبته إليها كلية الآداب بمن كان فيها من أعلام نهضتنا الأدبية والفكرية ودخلها الطالب حسين مؤنس ، وأخذ يختلف إلى محاضرات هؤلاء الأعلام ، واختار لتخصصه قسم التاريخ وفيه ، أخذ يلفت أساتذته بجده ودأبه فى البحث ، وتخرج سنة ١٩٣٤ متفوقا على أقرانه ، غير أن كلية الآداب لم تكن قد أخذت — بعد — بنظام المعيدين فعين ببنك التسليف مترجما عن الفرنسية .

وألفت — حينئذ — جماعة من الخريجين النابهين فى كلية الآداب لجنة سموها لجنة الجامعيين لنشر العلم ، كان من بين أعضائها حسين مؤنس واعتزمت اللجنة أن تعرض على القراء ذخائر الفكر الإنسانى مستعينة بالترجمة تارة وبالتأليف تارة أخرى . وكان أول كتاب اختارته للترجمة كتاب تراث الإسلام بأقلام نفر من المستشرقين لما يصور من آثار هذا التراث فى الثقافة ، الأوربية وتوزع أعضاء اللجنة فصول الكتاب فيما بينهم ، وكان نصيب حسين مؤنس ترجمة الفصل الخاص بإسبانيا والبرتغال ، وهو يصور مدى تأثير الحضارة الأندلسية فى الحضارة الأسبانية والأوربية وكأنما كان ذلك إرهاصا لتخصص حسين مؤنس — فيما بعد

فى تاريخ الأندلس والمغرب، وألف ـ حينئذ ـ كتابه : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث وفيه يعرض تاريخ العالم الإسلامى من القرن السابع عشر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى فى القرن الحاضر وما اختلف على أمم هذا العالم من أحداث وأطوار منذ اتصالها بأوربا والحضارة الأوربية . وأضاف إلى ذلك فى سنة ١٩٣٦ عددا من مجلة المقتطف خاصا بتراث مصر القديمة.

وفى سنة ١٩٣٧ حصل على درجة الماجستير برسالة كان موضوعها « فتح العرب للمغرب » ظفرت بإعجاب لجنة الامتحان وكانت الكلية قد أخذت ـ حينئذ ـ بنظام المعيدين ، فاجتمع رأى أساتذته فى قسم التاريخ على تعيينه معيدا بالقسم حتى يفرغ لحياته العلمية . ولم يلبث أساتذته أن رأوا من الخير إرساله فى بعثة إلى فرنسا لإكمال دراسته العليا ، وسرعان ما حصل فى سنة ١٩٣٨ على دبلوم دراسات العصور الوسطى من جامعة باريس . وفى السنة التالية حصل من نفس الجامعة على دبلوم فى الدراسات التاريخية من مدرسة الدراسات العليا . ونشبت الحرب العالمية الثانية فى هذا القرن فانتقل إلى سويسرا وجامعة بازل بها وأكمل دراسته فى جامعة زيورخ ، ونال منها درجة الدكتوراه فى التاريخ سنة ١٩٤٣ وعين مدرسا بها فى معهد الأبحاث الخارجية .

ووضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فعاد الدكتور مؤنس إلى القاهرة وجامعتها سنة ١٩٤٥ وعين مدرسا بقسم التاريخ فى كلية الآداب وأخذ يرقى فى وظائفه العلمية إلى أن عين أستاذا للتاريخ الإسلامى سنة ١٩٥٤ وانتدبته وزارة التربية والتعليم ـ فيما بين سنتى ١٩٥٢ ، ١٩٥٧ ـ مديرا عاما للثقافة بجانب عمله العلمى فى الجامعة فأنشأ بها مشروعا لتثقيف الشباب باسم مشروع الألف كتاب ، ليزودهم بمواد كثيرة من المعرفة العامة ، وقد نشرت منه مئات من الكتب النافعة المفيدة .

وفى سنة ١٩٥٧ عين الدكتور مؤنس مديراً لمعهد الدراسات الإسلامية وظل به اثنى عشر عاما مشرفا على طلاب البعثات المصرية بمدريد فى الدراسات الإنسانية وفى الفنون ، وعنى بمجلة المعهد وأخذت تزخر ببحوث علمية تتناول الأندلس تاريخا وأدبا وفكرا وله فى هذه البحوث مشاركة علمية قيمة .

وأحيل إلى المعاش فدعته جامعة الكويت للمساعدة فى طور إنشائها وتأهيل طلابها وعين بها أستاذا بقسم التاريخ ثم رئيسا له

حتى سنة ١٩٧٧ . وعاد إلى القاهرة فعين أستاذا غير متفرغ فى قسم التاريخ بآداب جامعة القاهرة ، واستقبلته الصحافة مرحبة ورأس تحرير مجلة الهلال سنوات متعاقبة ، وتحول منها إلى مجلة أكتوبر الأسبوعية يدبج فيها مقالاته إلى اليوم .

والدكتور حسين مؤنس عالم كبير فى التأليف والتحقيق والترجمة والبحوث العلمية والكتابة الأدبية ، أما التأليف فتكثر مصنفاته فيه ، وخاصة فى تاريخ المغرب والأندلس وتاريخ الإسلام وحضارته ومن مصنفاته فى الموضوع الأول كتاب فتح العرب للمغرب وكتاب فجر الأندلس وكتاب معالم تاريخ المغرب والأندلس وكتاب شيوخ الفكر بالأندلس ، ويتصل بذلك كتابه : (تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس) ومعروف أن الجغرافية تعد توأم التاريخ ومن مصنفاته فى الموضوع الثانى كتابه : دراسات فى السيرة النبوية وكتاب عالم الإسلام وهو نظرات تحليلية فى سكانه وخصائصه وثقافته وحضارته، وكتابه الإسلام الفاتح وفيه يتناول البلاد التى فتحها دون حرب مثل أندونيسيا والقارة السوداء ، وكتاب المساجد وفيه يصور دورها فى بناء الجماعة الإسلامية ويفيض فى تاريخها وتطورها وطرزها المعمارية ويلم بها فى عالم الإسلام الحديث من الفلبين إلى أمريكا اللاتنية .

وبجانب هذين الموضوعين الكبيرين اللذين يستغرقان أكثر مصنفات الدكتور مؤنس : موضوع الإسلام وحضارته وموضوع تاريخ المغرب والأندلس تلقانا عنده مؤلفات متنوعة ، منها أطلس تاريخى للشعوب الإسلامية نشر فى أمستردام ومنها كتاب مصر ورسالتها وفيه يتحدث عن طبيعتها وخصائصها وعلاقاتها بافريقية والعرب والبحر المتوسط ومنها نور الدين محمود بطل الحروب الصليبية وفيه يصور طموحه إلى تحقيق الوحدة العربية الإسلامية فى القرن السادس الهجرى ومنها كتابه عن ابن بطوطه ورحلاته ومنها كتابه عن الحضارة وفيه يوضح معانيها ونشأتها ومسيرتها فى الأمم وفصائلها وأنواعها مع الحديث عن الحضارة الراهنة ومستقبلها وعن الثقافة وكنهها والفروق بينها وبين الحضارة .

وللدكتور حسين مؤنس تحقيقات علمية غزيرة الفائدة لطائفة مهمة من كتب التراث استهلها فى سنة ١٩٥١ بتحقيق كتاب رياض النفوس لأبى بكر المالكى وهو فى تراجم فقهاء إفريقية وعبادها فى حقبها الإسلامية الأولى . وحقق فى سنة ١٩٥٧ كتاب أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر للونشريشى ، وهو مهم فى بيان الأحوال الاجتماعية للعرب المدجنين الذين ظلوا فى إسبانيا بعد سقوط غرناطة وفى سنة ١٩٦٠ حقق كتاب ضوابط دار

السكة لأبى الحسن بن يوسف الحكيم ، والكتاب مهم لأن الكتب المتصلة بموضوعة نادرة . وحقق فى سنة ١٩٦٣ كتاب الحلة السيراء لابن الأبار فى مجلدين ، وهو يترجم ترجمات جيدة لأعلام العرب على مر القرون حتى القرن السابع الهجرى وبخاصة أعلام الأندلس والمغرب ، ووضع الدكتور مؤنس بين يدى الكتاب مقدمة طويلة تحدث فيها عن حياة مؤلفه وعصره وموطنه ومؤلفاته وأهمية كتابه وفى سنة ١٩٦٥ حقق وصفا قديما لقرطبة نشره فى المجلد الثالث عشر من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

وبجانب ما تقدم من التحقيقات العلمية والمؤلفات للدكتور حسين مؤنس نشاط خصب فى الترجمة وأسلفنا أنه ترجم عقب تخرجه فى كلية الآداب — الفصل الخاص باسبانيا والبرتغال فى كتاب تراث الإسلام وفى سنة ١٩٥٠ ترجم (بالاشتراك) — عن الإنجليزية — كتابا عن الدولة البيزنطية لنورمان بينز . وفى سنة ١٩٥٢ ترجم عن الإسبانية كتاب الشعر الأندلسى لغرسية غومس وترجم أيضا — عن الإسبانية — فى سنة ١٩٥٥ كتاب تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا وهو موسوعة فى الأدب الأندلسى شعره ونثره والفكر الأندلسى من جميع نواحيه اللغوية المعجمية والفلسفية والصوفية والعلمية فى الطب وغير الطب وكل ما يتصل به من علم الحديث النبوى والقراءات والتفسير والفقه وأصوله ، مع بيان أثر الفكر الأندلسى أدبا وفلسفة وعلما فى الفكر الإسبانى والأوربى وفى سنة ١٩٥٦ اقتبس من قصة « غاب القمر » لجون شتاينيك مسرحية فى ثمانية مناظر . وترجم فى سنة ١٩٦٤ عن الإسبانية . رواية الزفاف الدامى للوركا ، كما ترجم عنها فى سنة ١٩٦٨ رواية ثورة فلاحين لاوب دى فيجا . وفى نفس السنة ترجم — عن الألمانية — بحثا عن طب الأسنان عند العرب لاوتو شبيس . وفى سنة ١٩٧٨ ترجم بالإشتراك (خمسة فصول من كتاب تراث الإسلام المنشور بالكويت شغلت منه جزءين وهى خاصة بالأدب والفلسفة وعلم الكلام والتصوف والفقه والموسيقى وعلوم الأوائل من رياضية وغير رياضية .

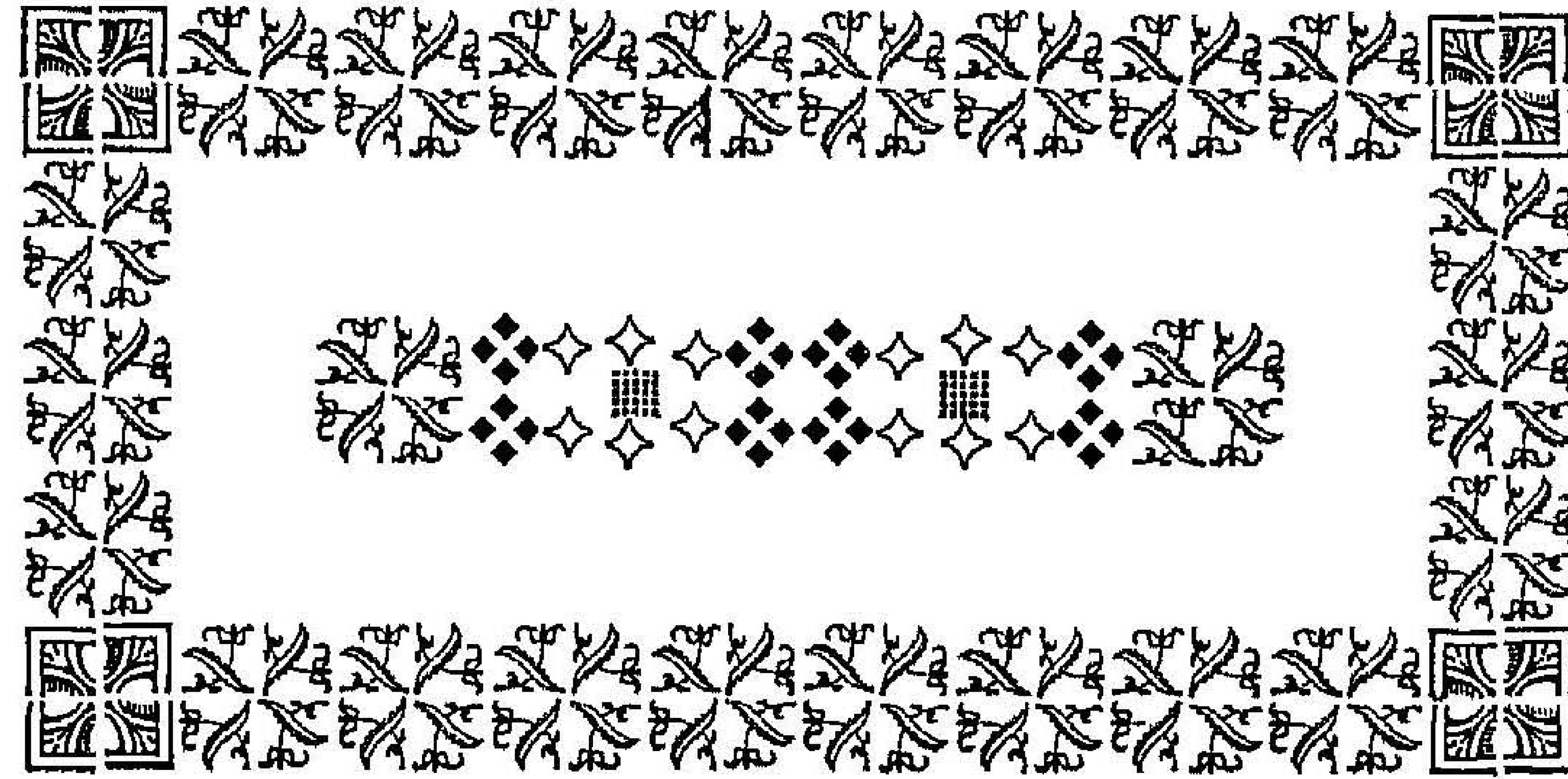
وللدكتور حسين مؤنس بحوث تعد بالعشرات منشورة فى المجلات العلمية والعربية والأجنبية منها : السيد القنبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، ومنها غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩و٢٤٥ ، ومنها سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، ومنها البربر والفتح الإسلامى للمغرب (بالانجليزية) ومنها نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ومنها الفلولكلور : تاريخه ومدارسه ومناهجه ومنها الصحراء الكبرى وطرق التجارة الإسلامية (بالاسبانية) ومنها أدارسة صقلية، ومنها فزان وأثرها فى انتشار الإسلام فى أفريقية .

وهذا النشاط العلمى للدكتور مؤنس كان يرافقه دائما نشاط أدبى ، إذ نشأ صاحب قلم وفكر وشعور مرهف ، مما جعله يكتب مبكرا فى الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية مصورا قضايا قومه وحقائق حياتهم وظل ذلك ديدنه إلى اليوم ،ومن حين إلى حين كان يخلص لكتابة عمل أدبى مثل كتابه : رحلة الأندلس وروايته : أهلا وسهلا ، وآدم يعود إلى الجنة ، وأقاصيصه : حكايات خير ستان وإدارة عموم الزير .

ولعلى بما ذكرت ــ أكون قد استطعت الإلمام فى إيجاز بنشاط الزميل الدكتور حسين مؤنس الأدبى والعلمى وهو نشاط جدير بالثناء والتقدير ، وأنا أهنىء المجمع بعضويته العامله فيه كما أهنئه بزمالته للمجمعيين الأجلاء فى خدمتهم الفصحى خدمة مخلصة صادقة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شوقى ضيف
عضو المجمع



كلمة الدكتور حسين مؤنس

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

سيدى العالم الجليل الأستاذ الدكتور مهدى علام نائب رئيس المجمع سادتى العلماء الأجلاء أعضاء المجمع سيداتى وسادتى

كلما علت بالإنسان السن تلاشت من وجدانه الآمال شيئا فشيئا وحلت محلها الذكريات ، والماضى يحل رويدا رويدا محل المستقبل ، والأمس يصبح الغد ومحل طموح الشباب والكهولة تحل حنان الذكريات الماضية ويزايد فى إحساسه الحنين إلى أصدقاء الماضى وأحبائه وشأنى فى هذا شأن مقالى فبعد أن تخطيت سن الوظائف وعكفت على البحث والدرس والتأليف هفانى الشوق إلى هذا المجمع الذى ضم جماعة من أحب الناس إلى القلب وتاقت النفس إلى الصحبه والاشتراك معهم فى الجهد العلمى المبارك وهنا لابد من تحية إلى أول من حدثنى فى أمر الانتساب إلى هذا المجمع الكريم وهو صديقى المغفور له الأستاذ محمد عبد الغنى حسن الذى تجشم يوم التصويت على عضويتى عناء المجئ من داره رغم المرض للادلاء بصوته من باب البر والوفاء . وهذه مناسبة أستمطر فيها رحمات المولى عز وجل على روحه الطاهرة وأتوجه فيها بأصدق الشكر إلى إخوانى الذين شجعونى وأيدونى وفتحوا لى بأيديهم الكريمة أبواب مجمعهم وأخذونى فى ركبهم ، ومهما أقل فان أبلغ من شكرهم شيئا مما أريد فقد فتحوا أمامى بابا جديدا من أبواب العمل فى خدمة العربية وفكرها أعاننى الله على الوفاء بحقهم وبحقها إن شاء الله .

وبعد . فقد كان من آمالى أن أنضم إلى أخوى الكريمين الأستاذين الجليلين محمد عبد الله عنان ومحمد الطيب النجار فى خدمة التاريخ ومصطلحه فى هذا المجمع وقد أحصينا فى تاريخنا الفكرى ما بين خمسة آلاف وستة آلاف مؤرخ لكل منهم ثلاثة مؤلفات فى المتوسط وبعضها من أجزاء تصل إلى العشرين والثلاثين بل المائة ، وقد قرر فرانز روزنتال فى كتابه « تاريخ التأريخ عند المسلمين » أن كتب التاريخ تجىء فى المرتبة السادسة من كتب التراث بعد علوم الدين واللغة والأدب ، وهذه ثروة فكرية طائلة لم تخدم بعد من وجهة النظر العلمية ، بل هى لم تفهرس الفهرسة الدقيقة ، لم تدرس تقنيتها أى تكنولوجيتها من حيث المصطلحات والمذاهب والمدارس . والعمل أمامنا فى هذا المجال واسع جدا هنا .

وقد مضى الزمن الذى كان الواحد منا لا يبدأ بحثا أو كتابا فى التاريخ إلا بالشكوى من المراجع وقلتها وقصورها ، فأصبحنا نرى الآن أن مؤرخنا العربى قام بواجبه فى التاريخ لهذه الأمة على أحسن وجه سمحت له به عصوره وظروفها وهذاهو ماضينا لا يخفى علينا شئ من حقائقه ووقائعه وتفاصيله والطيبيون عرفناهم والحبيشون عرفناهم حتى دخلنا مخادع الملوك والخلفاء ووقفنا على جرائم الظالمين ، وعرفنا أحوال الناس ونظم الدول وشئون الإدارة والمال وما إلى ذلك فماذا عسانا نطلب إلى المؤرخين المسلمين أكثر من ذلك ومزيد من عرفاننا لفضلهم أنهم كتبوا فى عصور سوداء أظلها الظلم والعسف وهان فيها أمر صاحب العلم والفكر فى أعين معظم أهل السلطان . وعلى طول أربعة عشر قرنا إلا قليلا جدا كان جهد معظم الحكام موجها إلى تحطيم وحدة هذه الأمة وتخريب عمرانها فيأبى أهل التاريخ إلا أن يحافظوا لهـذه الأمة على وحدة الأجيـال وربط المـاضى بالحاضر فى حين اجتهد الجغرافيون والرحالة فى المحافظة على وحدة الوطن الإسلامى ، فلا حدود عندهم بين بلد وبلد . وهذان الاثنان المؤرخ والجغرافى — حافظا على وحدة الأمة فى الزمان والمكان : رأسيا وأفقيا فى حين اجتهد علماء الدين فى المحافظة على وحدة العقيدة وصفاء السنة وسلامة الجماعة، وعلماء اللغة وأهل الشعر والأدب ربطوا الأمة بحزام من الفصحى متين . ورجل العلم العربى والمسلم هو صانع وحدة هذه الأمة ، وبينما نجد أن أوروبا من صنع الملوك فان عالم الإسلام من صنع أهل العلم والفكر ، وتلك حقيقة مشرقة يبيض لها وجه العالم العربى والمسلم فمن عجب أن نشكو من علمائنا السابقين حق ذلك ونرميهم بالقصور ، واعود الآن إلى الارتباط بين التاريخ والجغرافية فى تاريخنا الفكرى فأقول إن كل الجغرافيين والمؤرخين عندنا كانوا واعين بهذا الارتباط كأنهم كانوا يشعرون أنهم يؤدون لأمتهم العربية رسالة واحدة ، فالكثيرون جدا من مؤرخينا كانوا جغرافيين فبعضهم ألف فى التاريخ والجغرافية كما نجد عند اليعقوبى وأبى الفدا ومحمد بن أحمد الرازى الأندلسى وهو أبو التاريخ والجغرافية فى الأندلس فإذا هم لم يؤلفوا فى الجغرافية وجدنا عندهم حسآ جغرافيا مرهفا فالبلاذرى وهو من اعاظم مؤرخينا تحس وأنت نقرأ كتابه فتوح البلدان أن عنده تصوراً سليما للأرض وما فيها ، وهذه العلاقة بين الجغرافية والتاريخ هى التى ربطت بينى وبين المرحوم الدكتور محمد محمود الصياد برباط

متين ولكن الفضل فى تعرفنا برجع إلى الشعر ، والصياد كان جغرافيا وشاعرا على نفس المستوى من التجويد ، ولهذا التعارف قصة لطيفة أرجوا ان تأذنوا لى فى روايتها . كان ذلك فى ربيع ١٩٤٧ وكنا فى مداخل الامتحانات ، وكانت لجنة امتحان التاريخ معقودة فى قسم الجغرافية وكنت أعمل فيها ، كنت إذ ذاك أراس تحرير مجلة ثقافية خفيفة ومسلية تسمى مجلة الاثنين ، وكانت مجلة لطيفة طيارة تبيع الوفا كثيرة ، وكنا ننشر فيها شعرا يسمى بالشعر الحلمنتيشى ينظمه رجل خفيف الظل يسمى الشيخ محمد يونس القاضى ، وكانت قصائده من أمتع ما تنشره المجلة ، فاذا أناجالس فى لجنة الامتحانات يقبل على شاب أسمر باسم الوجه لطيف الهيأة ويقدم لى نفسه أو يخرج من جيبه ورقة ويقول : احقا أنكم لا تنشرون فى مجلتكم إلا الشعر الحلمنتيشى؟

— أجل ، لأن الناس يقبلون عليه لظرفته وخفته .

— إذن فأنتم لن تنشروا لى هذه

— اقرأها على

فقرأ قصيدته . وكانت قطعة نسيب

فقلت له : سننشرها

— ولكنها من الفصيح

قلت : بلى ، ولكنه فصيح حلمنتيشى

وارتبطنا من ذلك الحين برباط صداقة متين : اتفقت المشارب والطباع واصبحنا نتلاقى كل يوم . وكان يعجبنى فيه ذكاؤه الوقاد أيامها يضع على رأسه طربوشا احمر داكنا طويلا كانه طربوش شيخ خفر ولما كان هو ريفيا من بلكيم مركز السنطة فى قلب الدلتا فقد اتفقنا على أن يكون هو شيخ الخفر وأكون أنا الخفير ولم يعجبه هذا مع الزمن لأنه كان عليه ان يدفع الحساب حيثما جلسنا . إذ لا يجوز إن يدفع الخفير لشيخ الخفر فرقانى عمدة واستراح .

وكان يعجبنى حديثه عن النيل ، ولا عجب فى ذلك فقد ورث الولع بالنيل عن شيخه وشيخى الدكتور محمد عوض محمد وكنت دائم الألحاح عليه فى أن يكتب عن النيل كتابا ، فاستجاب الرجاء وأخرج كتابه البديع عن النيل أبى الأنهار وهو من الأعمال العلمية التى سيظل الصياد يذكر بها زماناً طويلا .

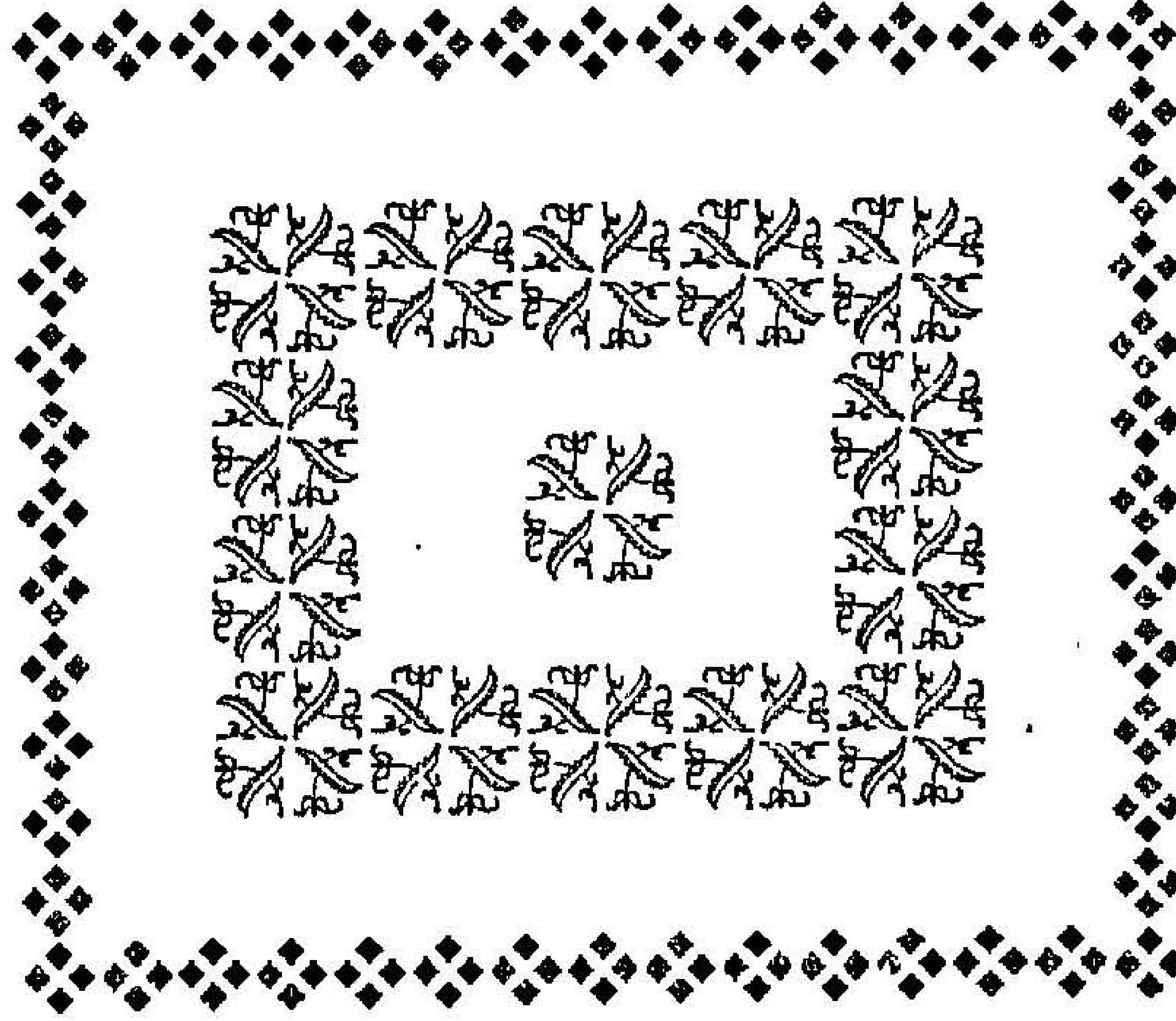
ومن اجمل المناسبات التى تجلى فيها ذكاء الصياد ما حدث عند اجتماعنا فى مؤتمر الجغرافية الإسلامية فى مدينة الرياض سنة ١٩٧٨ ، وكنت قد استنفرت وكتبت دراسة عن ابن خلدون جغرافيا اما هو فلم يستحضر او يكتب ورقة واحدة و لكنه وقف والقى محاضرة نامتع وأشمل ما سمعت أو قرأت عن الجغرافية الإسلامية فقلت له : كيف

يتسنى لك هذا الإبداع دون كتابة ، ويومها قال استاذنا الدكتور سليمان حزين كلمة جميلة جدا قال : يافلان ، هذا جغرافى شاعر وكل ما يصدر عنه إلهام ، وما سمعت ليس محاضرة وإنما هى قصيدة جغرافية .

صدق الدكتور حزين ، فإنه الصياد جغرافى شاعر وحياته قصيدة ممتعة كنت واحدا من قرائها الذين سعدوا فيها مرة بعد أخرى ، وقد حدثتكم فى هذه الدقائق عن محمد محمود الصياد القصيدة . ورأيت ان هذا المذهب فى الكلام عنه أشبه بما كان بينى وبينه من ود ومحبة وطول صحبه ومهما استطردت فى الكلام عن الصياد العالم فما أظن أنى أبلغ قدر ما قاله عنه الدكتور احمد بدوى فى استقباله فى هذا المجمع وارجو ان يكون اختيارى للكلام عنه على هذا النحو قد لقى القبول منكم واختم الكلام بالشكر لله ولكم على أن شرفتمونى واذنتم لى فى الجلوس فى مقعد الصياد فجمعتم بيننا مرة أخرى بعد طول افتراق .

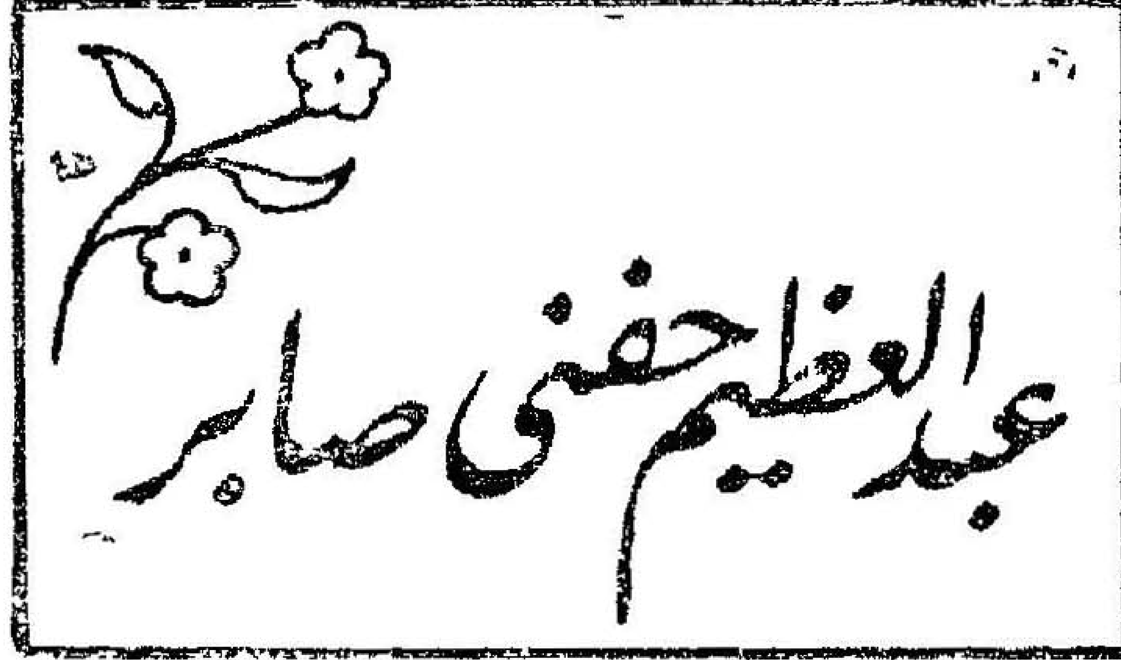
والسلام الله عليكم ورحمته وبركاته

حسين مؤنس
عضو المجمع



كلمة الدكتور حامد جوهر

فى استقبال العضو الجديد الدكتور



أسيداتى وسادتى: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فلا شك أن كل عضو منا ليسعد كثيرا بانضمام أعضاء جدد إلى المجمع يحملون معنا الأمانة ويعلون الشعلة ويشتركون معنا فى خدمة لغة القرآن الكريم .

ولكن سعادتى مضاعفة أضعافا كثيرة إذ أقدم لكم أخا عزيزا وصديقا قديما هو الأستاذ الدكتور عبد العظيم حفنى صابر أول عضو يمثل العلوم الصيدلية فى المجمع والدكتور صابر ليس غريبا على المجمع فهو أقدم الخبراء بالمجمع إذ اختير خبيراً للجنة علوم الإحياء والزراعة فى سنة ٩٤٨ وخبيرا للجنة الكيمياء الصيدلة فى سنة ١٩٦٧ وكان له نشاط ملحوظ فى اللجنتين .

وقد ولد زميلنا الجديد فى قرية المرساه بمركز دكرنس الدقهلية فى السابع عشر من يناير سنة ١٩٠٨ وحفظ الجزأين الثالث والتاسع والعشرين من القرآن الحكيم وتعلم القراءة والكتابة بكتاب القرية المجاورة « القباب » ثم التحق بالدراسة الابتدائية فى القاهرة حيث حصل على شهادة القبول بالمدارس الثانوية من مدرسة محمد على ثم التحق بالمدرسة الخديوية التى فيها حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية وفى أثناء تلك الفترة كانت الثورة الوطنية مضطرمة .

واشترك فيها أخواه الأكبران فاتهم أحدهما فى مؤامرة سياسية فاعتقل بسببها ، أما الآخر فنجح فى الهرب إلى ألمانيا لإتمام دراسة الطب فأصبح فى القاهرة يحمل إلى جانب عبء دراسته رعاية أخيه الأصغر بالمدرسة الابتدائية .

وحصل الدكتور عبد العظيم على شهادة إتمام الدراسة الثانوية سنة ١٩٢٥ وكانت الجامعة المصرية قد فتحت أبوابها من جديد بعد أن طورت تطويرا كاملا فالتحق بكلية العلوم بالدراسة الإعدادية لكلية الطب تمهيدا لدراسة الصيدلة وكانت رغبته أكيده فى دراسة علوم الصيدلة ولم تكن أنشئت لها كلية خاصة بعد .

وتخرج فى الجامعة سنة ١٩٢٩ ضمن أول دفعة تحصل على البكالو ريس فى الصيدلة والكيمياء وقد بعثت فيه وفى زملائه الحياة . الجامعية روحا عالية وآمالا عظاما وطموحا جامحا فكان أول ماهدفوا إليه الارتفاع بمهنة الصيدلة وتطهيرها من الدخلاء فيها وبخاصة مساعدى الصيدلية فقد كانوا من أنصاف المتعلمين ولكنهم بسبب قلة الصيادلة المؤهلين قفزوا إلى إنتحال صفه الصيادلة مما ألحق بالمهنة أسوأ الأضرار فكان من باكورة اهتمامهم العمل على قصر الاشتغال بمهنة الصيدلة على الصيادلة المؤهلين جامعيا دون غيرهم .

وبدأ حياته العملية مديرا لصيدلية فى مدينة الزقازيق ولكنه لم يلبث فى هذا العمل سوى خمسة شهور إنتقل بعدها معيدا فى الجامعة فى قسم العقاقير ، العلم الذى كان يهواه بنوع خاص.

ومنذ نعومة أظفاره كان يهوى العمل العام لذلك لم يمض على تخرجه بضعة أشهر حتى كان عضوا مؤسساً لجمعية الصيدلة سنة ١٩٣٠ التى من أهدافها العمل على تشجيع العلوم الصيدلية والبحوث فيها وفى نشر الثقافة الصيدلية والعمل على إقامة الصناعات الصيدلية فى مصر .

ثم اختير لبعثه إلى انجلترا للحصول على الدكتوراه فى علم العقاقير وكانت هذه أول بعثة علمية فى الصيدلة توفرها الجامعة المصرية إلى جامعة لندن التى ما لبث أن اعترفت بدرجة بكالوريس الصيدلة لما أنست فى الدكتور صابر من سعة فى العلم وقدرة على معالجة المسائل العلمية وإذ حصل سيادته على درجة الدكتوراه فى الفلسفه فى مادة العقاقير من جامعة لندن سنة ١٩٣٤ عين بعد عودته مدرسا لهذه المادة فى مدرسة الصيدلة وقد كانت آنئذ فرعا من كلية الطب .

ولم يقتصر نشاطه على الأمور العلمية بل كان عضوا مؤسسا وحافزا قويا لإنشاء اتحاد طلاب الصيدلة وذلك قبل أن تنشأ كلية الصيدلة ذاتها وانضم هذا الاتحاد إلى الاتحاد العام لطلاب الجامعة وقد انتخب الدكتور صابر رئيسا للاتحاد العام لطلاب جامعة فؤاد الأول

الوظائف التى شغلها ونشاطه :

١ — أستاذ مادة العقاقير والنباتات الطبية بكلية الصيدلة ١٩٤٩ — ١٩٦٨ .

٢ — استاذ متفرغ بكلية الصيدلة ١٩٧٢ — ١٩٨٢

٣ — استاذ غير متفرغ بكلية الصيدلة ١٩٨٢ — إلى الآن .

٤ — عميد كلية الصيدلة بجامعة القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٦٦

٥ — رئيس اللجنة الدائمة لدستور الأدوية المصرى التى أصدرت هـذا الدستور باللغة العربية لأول مرة .

٦ — عضو بالأكاديمية المصرية للعلوم

٧ — اشترك فى تأسيس الجمعية التعاونية لتوريد وإنتاج الأدوية التى أسست لكسر

الاحتكار الأجنبى وكان أول سكرتير عام لها هو الدكتور عبد العظيم

نشاط الأستاذ العضو الجديد فى مجمع اللغة العربية

١ - اختير خبيرا لاجنة الأحياء والزراعة سنة ١٩٤٨

٢ - اختير خبيراً للجنة الكيمياء والصيدلة سنة ١٩٦٧

٣ - أحد ثلاثة كلفهم المجمع بالاشراف على إصدار قاموس مصطلحات علوم الأحياء والزراعة وقاموس الكيمياء والصيدلة اللذين ظهر الجزء الأول من كل منهما .

٤ - انتدبه المجمع لتمثيله فى ندوه تعريب . مصطلحات علم الكيمياء التى نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى عمان سنة ١٩٨٢

التقدير العلمى :

١ - منح المدالية الذهبية من جمعية الصيدلة المصرية .

٢ - منح وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى سنة ١٩٧٣ تقديرا لجهوده الممتازة فى إصدار دستور الأدوية المصرى .

مؤلفاته وأعماله :

١ - كتاب بالانجليزية عن دراسة العقاقير علميا يعتبر مرجعا دراسيا .

٢ - كتاب باللغة العربية عن الغذاء والدواء فى القرآن الكريم بالاشتراك مع زميل وأصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٣ - كتاب بالعربية «موجز تاريخ الصيدلة» بالاشتراك مع زميلين أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

٤ - قاموس عربى إنجليزى وانجليزى عربى للمصطلحات والألفاظ التى وردت فى دستور الأدوية المصرى .

٥ - له ما ينيف على ١١٧ بحثا علميا منشورا عن العقاقير والنباتات الطبية .

٦ - أشرف على ٢٣ رسالة للحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه .

٧ - أنشأ بكلية الصيدلة حديقة للنباتات الطبية ضمت ٣٠٠ نوع منها

الجمعيات والهيئات العلمية

بالإضافة إلى عضويته فى الجمعيات المتخصصة فى الصيدلة والنباتات الطبية فهو عضو فى كل من .

١ - مجلس العلوم الأساسية بأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

٢ - المجمع العلمى المصرى .

سيداتى سادتى هذا بعض ما عنّ لى أن أذكره فى هذه المناسبة السعيدة فى الوقت القصير المخول لى وأنى لأختتم حديثى بالدعاء لزميلنا الجديد ولكم جميعا أقدمين وجديدين بعمر مديد سعيد مفيد فى صحة كاملة ورفاهية شاملة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

حامد عبد الفتاح جوهر
عضو المجمع

كلمة الدكتور عبد العظيم حفنى صابر

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

السيد الأستاذ الجليل رئيس المجلس

السادة أعضاء المجلس الموقر

سيداتى سادتى :

أحمد الله العلى القدير وأشكره وأصلى وأسلم على أشرف خلق الله سيدنا محمد ابن عبد الله وأستعين بالله وأستغفره فلقد منّ الله على بنعم كثيرة ، لاحصر لها ، فمن فضله علىّ أن أوليتمونى شرف اختيارى عضوا بينكم فى مجمع الخالدين ، وأن نلت ثقتكم ، ثقة لايحلم بها ، إلا من رضى الله عليه فأعاهدكم عهدا واصبا أن أداوم على العمل بإعلاء شأن لغتنا العربية وإثرائها ، وأن استمر جاهدا ، بالمناداة والعمل بتعريب العلوم وتدريسها ، إلى أن يوفقنا الله بإزالة غمة استعمار اللغات الأجنبية فى حياتنا العلمية والاجتماعية ، كما فعل اسلافنا العظام ، كما أعاهدكم بأن أبذل الجهد كله فى السير فى تحقيق أغراض مجمعنا الموقر ورسالته .

السيد الرئيس

السادة الأعضاء الأجلاء :

لقد كان لاختياركم لى عضوا فى هذا المجمع الشامخ ، ذى العلو والتسامى ، وقع من السعادة والحبور ، لايقدران ، وحصولى على ثقتكم الغالية مالا يمكن إيفاؤه حقه من الشكر والامتنان ، فقد عجزت أن أجد من الألفاظ على كثرتها فى اللغة العربية وشمولها وعدم إمكان حصرها ، ما أصف لكم به شعورى بهذه الثقة التى أعتز بها اعتزازا عظيما ، وأزهو بها زهوا عاليا ، ماكنت أترقبه فى حياتى ، ولا أكتمكم سرا ، أن كان لى فرحتان سعيدتان لمباغتتين لم أكن أترقبهما ، أو يدورا بخلدى أو أحلم بهما ، أولهما اختياركم لى عضواً فى مجلسكم الموقر ، أجالس فيه فطاحل اللغة ، وجهابذتها وسدنتها ، فأتعلم منهم وأستهديهم طريق الرشاد والسداد ، إلى معرفة خبايا اللغة وأصولها ... أما الثانية فقد أدمعت لها عينى ، لما لمسته من إخوانى وزملاء عملى ، فى كليات الصيدلة ، وكذلك زملاء مهنتى ، من محبة ، ووفاء ، وتقدير ، واحترام ، فقد استقبلوا هذا الخبر ، خبر اختياركم لى عضواً فى مجمعكم ، بالتهليل والتكبير والتعظيم ، والتهانى من الجميع وكأنه اختيار لهم ، ومفاجأتهم لى بحفل تكريم ، شمل جميع أعضاء هيئة التدريس ، ليس من القسم الذى أنتمى إليه فحسب ، بل من جميع أقسام الكلية ، وشاركهم فى ذلك جميع أفراد وموظفى الكلية ، كما مثل الجامعة فيها الأستاذ التفتزانى ، نائباً عن رئيس الجامعة ، لاعتذاره لمرضه . وتكلم فيها من القدامى ، ومن

الجدد ، ما أسبغوا عليّ من الصفات والتقدير ، ومن المحبة والوفاء ، ما أخجل تواضعى ، وأثلج قلبى ، وألجم لسانى ، فسجدت لله شكرا وحمدا ، على ما منّه عليّ ، من فضله ، وكرمه ورضاه ، وما أسداه عليّ ، من جديد النعم ، فى أخريات أيام حياتى .

أيها السادة :

إن عضوية مجمعكم الموقر — مجمع الخالدين — لأمنية عزيزة المنال ، تراود القريب والبعيد ، ويتطلع إليها الكثيرون . . . ولكن لا ينالها إلا من رضى الله عنه وأرضاكم .

سيدى الرئيس .

سادتى .

أرجو أن أزجى الشكر صادقا ، إلى الزميل الكريم والأخ العزيز ، الأستاذ الجليل الدكتور عبد الفتاح جوهر ، هذا العالم العلامة ، الفريد فى علمه وتخصصاته ، البليغ فى لغته ، الواسع أفقه ، ومداركه العلمية واللغوية ، لتفضله وزملائه بترشيحى لعضوية مجلسكم الموقر ، وتقديمى لكم ، فقد نسب إليّ من الأفضال ، ما أنا منها فقير ، وأسبغ عليّ من الصفات والإنجازات ، ما أنا منهـــا فى حاجة . فشكرا له ولكم ، أعاننى الله العلى القدير أن أكون عند حسن ظنكم ، وأن أوفيكم جميعا أصدق الشكر وأخلص الامتنان وأعظمه . وأعاهدكم ثانية أن أترسم خطاكم ، فى العمل على تعريب العلوم وتدريسها بالعربية .

السيد الرئيس

سادتى جهابذة اللغة وسدنتها أعضاء المجلس الموقر .

لقد أحلنى مجلسكم محل المغفور له الأستاذ الدكتور أحمد عمار ، هذا الأستاذ الفقيه والعالم المتبحر ، والطبيب النطاسى ، والأديب الفذ ، رحمة الله عليه ، رحمة واسعة ، وندى ثراه وطيبه ، وأسكنه جناته وأخلده ، واسمحوا لى أن أعزيكم فيه ، وأعزى فيه أنفسنا جميعا ، فقد وافاه القدر المحتوم وهو فى أوج نشاطه وإسهامه فى أعمال المجمع العلمية والإدارية واستقصاء أضابير اللغة العربية ، وإظهار خباياها ولإثرائها .

لقد شارككم الأستاذ عمار فى هذا المجمع الموقر فترة طويلة ، تنوف على اثنين وثلاثين عاما ، فكان منارا ، ينار بنوره ما أظلم من مناحى اللغة ، ولمستم فيه اخلاقه الدمثة ، والمعرفة الفياضة وحسن المعاملة ورقتها ، وسجاياه العطرة وكرمه فى العطاء ، فما رد سائلا عن استفهام ، ولا بخل فى إبداء مايعرفه ويعلمه ، فأنتم به أعلم وبآثاره فى اللغة أدرى ، فمهما تكلمت أو قلت عنه فلن أوفيه حقه ، بل سأكون مقصرا وضنينا ولذا فإنى أنهى الرسالة التى حملتمونى اياها فلا أجد جديدا أعلمكم به ، ولا معلومة أضيفها إلى ماتعلمون ، ولربما كان فى إحلالكم لى محله بعض الظلم لسانى العظيم ، وظلم لى شخصيا إذ سويتمونى بذلك العملاق الأشم ، الذى كنت أستمد منه الكثير من المعلومات اللغوية ،

أهتدى به فى كثير من الأمور ، وأستفتيه فى كثير من المشاكل التى تقابلنى فى كثير من الألفاظ ودلالاتها والمصطلحات العلمية وحقيقتها ، فيفتينى بالحق ، ويهدينى سواء السبيل ، فالبون بينى وبينه شاسع جدا ، فضلا وعلما وأدبا ومكانة فقد كان رحمة الله عليه رائدا فى عمله ، ورائدا فى مزجه اللغة بالعلم فى سلاسة وعذوبة ، وقد كانت له عصبية للغة قال عنها الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور منصور فهمى فى استقباله عضوا بالمجمع الموقر ، عصبية كريمة قادرة : « أساسها من الحب والشغف ، بما يتجلى فى اللغة من خصائص الفتوة والحياة ، ومن مميزات يتذوقها عشاق الجمال ، فى موسيقى الحروف والصيغ والأصوات » .

لهذا كله انتخب الدكتور عمار فى سنة ١٩٥١ عضوا فى مجمع اللغة العربية ، وكان لإسهامه القيم فى النشاط ، لرفع شأن المجمع ، وخدمة اللغة ، ولابتكاراته فى تعريب العلوم الطبية أن انتخبتموه فى سنة ١٩٧٦ نائبا لرئيس المجلس ، مدة أربع سنوات فى المكان الذى خلا بوفاة المرحوم الأستاذ زكى المهندس ، ثم جدد هذا الانتخاب مدة أخرى فى عام ١٩٨٠ .

أيها السادة الكرام :

يظهر أن حمية تقديرى وتبجيلى للمغفور له الدكتور عمار قد أنسانى الكلام عن تاريخ حياته وأعماله وأبحاثه وآرائه ، وهى كثيرة بالكثرة التى تفوق مجالنا الآن ، حتى لسردها فقط ، ناهيك عن التعليق عليها . فلقد كان رحمة الله عليه وغفرانه ، أنيقا فى ملبسه أنيقا فى مشيته ، إنسانا فى معاملاته ، حاسما فى إداراته ، حليما فى مناقشاته ، حكيما فى مجادلاته ، هادىء الطبع ، بشوش المحيا ، ما رأيته يوما غاضبا ، أو عابسا ، ينتقى الألفاظ فى حديثه بروية وتؤدة ، فما نفر من مجلسه أحد ، بل كانوا يستوقفونه ليستزيدوا منه .

واسمحوا لى أيها السادة أن أذكر القليل من تاريخ حياته المجيدة وبعضا من جلائل أعماله .

ولد المرحوم فى قرية مناوهله من أعمال محافظة المنوفية عام ١٩٠٤ . وتربى تربية دينية ، فحفظ القرآن وهو فى الثامنة من عمره ، واكتسب الصفات الحميدة ، لتردده على أهل الدين ، وتمون بأصول اللغة من أهلها فأحبها ، وحفظ ألفية ابن مالك والمعلقات ، فثبتت عنده ملكة الفصحى ، وغوى الشعر ، فقال فيه الكثير وأبدع . وكان جادا فى دراساته ، فتفوق فى جميع مراحلها على جميع أقرانه ، حتى فى تخرجه فى كلية الطب ، وتخصص فى أمراض النساء والتوليد وبرز فيها ، حتى فى أثناء دراساته فى انجلترا ، حيث أرسل إليها مبعوثا لتعمق فى نواحى تخصصه ، فأجاد وكان مثلا مشرفا لمصر فى كل المناسبات .

أما فى عمله فقد كان أستاذا معلما، موضع محبة تلاميذه ، وتقديرهم ، وكذلك جميع من عمل معه ، أما كعميد لكلية طب جامعة عين شمس فقد كان مجددا حازما ، أرسى قواعد الكلية ، وهى الحديثة العهد — على أسس علمية سليمة — فرفع بشأنها إلى مصاف الكليات الأخرى ، فصارت ملء الأسماع والأبصار فى الداخل والخارج .

ولقد شارك الدكتور عمار فى كثير من لجان المجمع . . فأثرى فيها ، منها :

١ — لجنة المصطلحات الطبية .

٢ — لجنة ألفاظ الحضارة .

٣ — لجنة المعجم الوسيط .

٤ — لجنة الجيولوجيا .

٥ — لجنة الجوائز .

٦ — لجنة وضع قانون المجمع وغيرها .

ونشر له فى مجلة المجمع عدة مقالات فى موضوع « من طرائف الأدب » . . وكذلك أبحاث مختلفة فى اللغة العربية وألفاظها . وكان مدققا جدا فى اختيار اللفظ العربى الذى يناسب المصطلح العلمى الإفرنجى فى معناه ومدلوله .

كما نشر له بحث قيم فى موضوع « خطة منهجية فى وضع المصطلحات الطبية » .

ولقد مثل المجمع فى عدة مؤتمرات لتشجيع تعريب الطب ودراسته . .

وأخيرا أترحم على أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد عمار ، وأدعو له بالمغفرة ، وحسن الثواب عند خالق الكون ، وصاحب الرحمة والغفران ، الرحمن الرحيم .

أيها السادة الأجلاء :

لقد مضى على مجمعنا العريق من عمره المديد ما ينوف على الخمسين عاما ، خدم فيها اللغة العربية ، فأثراها وأنماها ، وثبت أقدامها ، بعد أن اهتزت قواعدها ، وطغت عليها اللغات الأجنبية واستعيض عنها بالإنكليزية والفرنسية فى التدريس ، حتى للأطفال فى المدارس الابتدائية ، ناهيك عنها فى الجامعات والمعاهد العليا .

ولقد شكل المجمع من بين أعضائه ، الكثير من اللجان ، فى مختلف العلوم ، وفى نواحى الحضارة ، الحديث منها والقديم ، مستعينا فيها بخبراء متخصصين فى العلوم والآداب والتكنولوجيا الحديثة ، لوضع الألفاظ والمصطلحات العربية فى كل حقل من حقول الحياة هدفا لتعريب العلوم ومسايرة للتقدم الحضارى والعلمى ، وجعل اللغة العربية رائدة كما كانت سابقا .

ولقد كفانى ، مشكورا ، الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، مغبة الدخول فى حصر ماقام به المجمع فى خدمة اللغة ، فى مدى الخمسين عاما من عمر المجمع المديد ، فجال وصال فى جميع أنشطة المجمع الجمة ، بحيث لم يترك شاردة ولا واردة إلا أوفاها حقها سردا

وشرحا وتفصيلا مما أغنانى أن ألج هذا البحر الخضم ومتاهاته التى لا يقدر عليها إلا من كان فى مثل الدكتور شوقى ضيف ، فى قدرته ، باستيعابه جميع الموضوعات وسلامة أساوبه فى وصف ماوعاه ومثابرته فى البحث والتنقيب فى مجالات المجمع ومحاضر جلساته وأضابيره .

السيد الرئيس الجليل

سادتى الكرام :

لقد عايشت هذا المجلس الموقر ما ينوف على سبعة وثلاثين عاما ، خبيرا فى لجنة علوم الأحياء والزراعة ، وسبعة عشر عاما خبيرا فى لجنة الكيمياء والصيدلة وكنت أتوق شوقا وسعادة لاجتماعاتهما بل وأسعد فى أوقات التحضير لجلساتهما ، إذ كنت أتشرف بالجلوس إلى جهابذة فى اللغة فأستزيد منهم علما وأستملح لغتهم العربية الفصحى العالية ، وأغوص معهم وبهديهم فى أعماق بحار اللغة لنتصيد من الألفاظ ما ينم عن المعانى المرجوة للمصطلحات العلمية ، فاستثرت كثيرا من المرحوم الدكتور عبدالوهاب خلاف بلغته وبلاغته ، ومن المرحوم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى بثرائه فى الألفاظ ومعانيها ، ومن المرحوم الأستاذ عطيه الصوالحى بدقته وقدرته فى التعبير ، ومن المرحوم الأستاذ أحمد الحوفى بحسن صياغته للعبارات ، ومن الأستاذ السعيد سليمان بدقته فى مداول الألفاظ ومصادرها وتأصيلها . ولا أنسى ماكان يسديه لنا المرحوم الدكتور محمد شرف من المعلومات القيمة التى كان يدونها فى جزازات ؛ عن الألفاظ والمصطلحات العلمية وأصولها كما أنى لا أنسى أن المرحوم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى كان لى مدرسا فى الستينات حيث كان على أن ألازمه فى المراجعة اللغوية لدستور الأدوية المصرى الذى هو أول دستور أدوية يؤلف ويصدر باللغة العربية ، فكنا نجتمع كثيرا لا لمراجعته من حيث المرفوع والمنصوب والمجرور أو من حيث مواضع الكلمات بعضها بالنسبة لبعض فحسب ، بل لكى تفى كل كلمة ولفظ بالمعنى المطلوب وبخاصة ما يتطلبه المعنى العلمى للمصطلح ، وكان هذا يحتاج كثيرا من الوقت نتبادل فيه الرأى حتى نصل للغاية المرجوة .

وفى جلسات لجنة علوم الأحياء والزراعة درسنا بجانب المصطلحات العلمية كثيرا من النباتات التى وردت أسماؤها فى المعاجم أو حولت إلينا من المصادر المجمعية الأخرى للتعرف على دلالاتها وكنهها وتحقيقها ، مما كان يحتاج للرجوع إلى ما ذكر عنها من الأوصاف فى المراجع العلمية وما قيل عنها فى القديم والحديث ، ولقد أغرانى ذلك أن أطلع على كثير من هذه المراجع والتراث ، أخص بالذكر منها فردوس الحكمة لابن ربن الطبرى ، وكامل الصناعة أو الملكى للمجوسى ، والحاوى للرازى ، والنبات لأبى حنيفة الدينورى والجامع لصفات أشتات النبات للشريف الإدريسى ، والقانون لابن سينا ، والصيدنة

لأبي ريحان البيروني ، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ، وتذكرة أولى الألباب لداود الأنطاكي ، وشرح أسماء العقاقير لابن ميمون القرطبي ، ومنهاج الدكان ودستور الأعيان لكوهين العطار ، والمخصص لابن سيدة ، والأدوية المفردة للغافقي وغيرها كثير ، ومستعينا كذلك بما ورد عنها في المرجع الألماني عن النباتات الطبية لدراجندورف والفرنسي للوكاير ، وقاموس النباتات لأحمد عيسى ، وقاموس الألفاظ الزراعية للأمير الشهابي ، والمعجم المصور لباديفيان وغيرهم كثير . ومن هذه المراجع تمكنت أن أجمع ما يقرب من ألف نبات عرفها العرب بأسمائها ومرادفاتها كما خرجت منها كذلك من أنهم كانوا يستعملون ألفاظا اصطلاحية دقيقة الدلالة كما نعرفها الآن ، فلو استخرجنا منها الآن هذه الألفاظ وبوبناها لأغنتنا كثيرا فيما نحن نأمل في عمله في سبيل تعريب العلوم . وأخص بالذكر كتاب المخصص لابن سيدة ، وأقترح أن يدرس هذا المرجع ويستخرج منه من الألفاظ ذات الدلالة الاصطلاحية العلمية المرجوة وهي في اعتقادي كثيرة فيه . .

وكان من إنتاج اللجنة أيضا ، أي لجنة علوم الأحياء والزراعة ، تحقيق أسماء حوالى ٣٠٠ نبات طبي ، ومجموعة أنواع الحيتان ، ومجموعة أنواع الثعابين والحيات ومجموعة ألفاظ النخيل ، بالإضافة إلى ما ينوف على عشرة آلاف من المصطلحات العلمية في علوم الحيوان والنبات والزراعة وأصدرت الجزء الأول من المعجم البيولوجي وقريبا إن شاء الله يصدر الجزء الثاني والأخير .

أما في لجنة الكيمياء والصيدلة فقد أعيد دراسة ما سبق اقتراحه من المصطلحات أي ما صدر منها قبل سنة ١٩٦٧ فأعيد تحقيقه بدقة ووضعت ما ينوف على ثمانية آلاف من المصطلحات العربية المحققة والتي حازت موافقتكم ، وأصدرت الجزء الأول من معجم الكيمياء والصيدلة وسيصدر إن شاء الله الجزء الثاني ، كما قامت اللجنة بوضع بيان بأسماء العناصر الطبيعية وعددها ١٠٧ عربية ومعربة ووضعت لها رموزا بالحروف العربية ، يسهل الدلالة بها عليها وبتمثيلها في الصيغ الكيمياوية والتركيبية .

وبهذه المناسبة أنحو باللوم على وزارة التربية والتعليم ، وآخذ عليها إجازتها استعمال رموز هذه العناصر بالإفرنجية وبحروف لاتينية . . مع أن الرموز العربية أدق دلالة وأسهل فهما للدارس بالعربية . . أليس الرمز « نح » رمزا للنحاس ، من السهل على الطالب الذي يدرس العربية أن يفهم دلالة (نح) للنحاس ويتذكره من Cu المستخرج من الاسم الإفرنجي Cuprum والطالب لا يعرف هذا الاسم الإفرنجي ولم يتعلمه ، وكذلك فإن الرمز « ح » للحديد أدل للطالب على عنصر الحديد من الإفرنجي

«Fe» المستخرج من الاسم الإفرنجى Ferrum و «ف» للفضة من الرمز Ag المستخرج من Argentum وهكذا .

أما قولهم إن هذا اتفاق دولى للتفاهم العالمى فمردود عليه إذ أن جميع اللغات الأوربية من أصل واحد وحروفها متشابهة شكلا ورسما ، فهى سهلة الفهم للدارس باللغات الأوروبية وبينما اللغة العربية تختلف عنها فى شكل حروفها ورسمها وكذلك فى طريقة كتابتها ، فاللغة العربية تكتب من اليمين إلى الشمال بينما الإفرنجية تكتب من الشمال إلى اليمين ؛ فوضع الرموز بالحروف الإفرنجية بين الكلمات المكتوبة بالعربية فيه تشويه ونشاز فى الشكل وفى استمرارية الفكر للقارئ بالعربية .

هذا بالإضافة إلى أن اللغة العربية قد أصبحت لغة عالمية ، أقرت الأمم المتحدة التخاطب بها رسميا . وأن الرموز المستعملة فى تدريس علوم الفيزياء والرياضيات وغيرها فى وزارة التربية والتعليم كلها رموز عربية وتكتب بحروف عربية ، أما قولهم كذلك إن اليابان والصين يستعملان هذه الرموز بالحروف الإفرنجية فذلك لأن حروف هاتين اللغتين ليست سهلة الرسم وتمثيلها فى الصيغ الكيمياوية التركيبية ليس متيسرا .

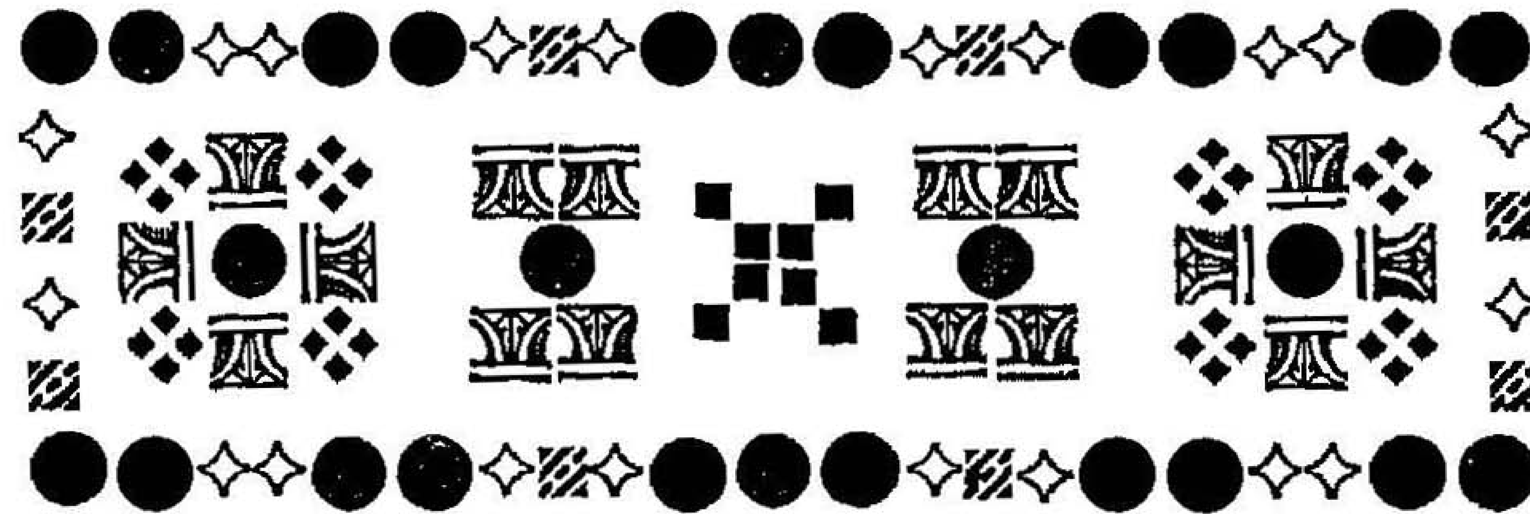
وأخيرا وليس آخرا فيجدر بالوزارة الرجوع إلى الحق وإلى ما كان متبعا سابقا فى تدريس الكيمياء حتى لا تفتح بابا يمكن التسلل منه للردة إلى اللغات الأجنبية فى تعليمنا وهو ما نحاربه ونتصدى له ونمنعه .

وختاما أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم الحديث وأثقلت ، فشكرا لكم على تحملكم مشاق الاستماع إلىّ كما أكرر جزيل شكرى لكم على ما أسبغتموه علىّ بقبولكم لى عضوا فى مجلس مجمع اللغة العربية الموقر .

وفقنا الله جميعا فى خدمة اللغة العربية ورفع شأنها وجعلها لغة العلم فى جميع البلاد العربية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

عبد العظيم حفنى صابر
عضو المجمع



كلمة الأستاذ عبد السلام هارون الأمين العام للمجمع

فى استقبال العضو الجـديد

الدكتور



عرفته منذ زمن طويل ، وقد عاد من بعثته إلى جامعة لندن فى سنة ١٩٥٦ فعرفت فيه التفضل والنبل والخلق الطيب ، ولم أسأل عنه الناس لأن جوابهم عن هذا السؤال كان حاضرا راهنا ، فقد أثنوا عليه قبل أن يعرفوه كل المعرفة ، فإذا ما عرفوه راحوا يطرونه بكل ما يعن لهم من إطراء . وكان إخلاصه فى عمله بكلية دار العلوم ناصعا نقيا لم تشبه شائبة مما يشوب بعض العاملين فى الجامعات من لفتة إلى المال ، أو صبوة إلى الشهرة العاجلة . وكان هدوء الطبع الذى شمله شمولا ظاهرا ، وأضفاه عليه كرم العنصر ، مما قربه إلى إخوانه وزملائه ، وإلى طلبته ومريديه ، وكان نقاء السمعة العلمية الهادئة ، والسمعة الخلقية الطيبة ، عاملين فى إجماع القوم على تقديره ، وإسباغ الإجلال عليه ، فهو عالم جليل .

ومن هنا ينطلق الزميل الكريم إلى تلبية رغبة ما سعى إليه الساعون ، يشارك فى النشاط العلمى العام ، فنراه عضوا فى لجنة إعداد معلمى اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم ، وذا دور بارز فى وضع المناهج والخطط التعليمية بالمدارس المصرية .

ويختار كذلك خبيرا بلجنة اللغة العربية فى المنظمة العربية للثقافة والعلوم الاجتماعية ، وعضوا بلجنة المصطلحات بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، وخبيرا كذلك بالجهاز المركزى لتعليم الكبار التابع لجامعة الدول العربية ، وعضوا باللجنة الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر .

ويمتد هذا النشاط إلى زوايا العالم العربى والإسلامى ، فيكون عضوا فى المجلس الاستشارى بمركز تعليم العربية لغير العرب فى الخرطوم بالسودان ، وعضوا بالمجلس العلمى بجامعة الرياض بالسعودية .

ويدعى كذلك إلى المشاركة فى الندوات والمؤتمرات فى مصر وفى غير مصر من البلاد فيجيب الدعوة .

ومن ذلك نشاطه فى الندوة اللغوية العالمية بالقاهرة، فى دورتين متتاليتين ، ثم فى الندوة اللغوية العالمية بتونس ، وفى مؤتمر سيبويه الذى عقد بمدينة شيراز فى سنة ١٩٧٤، ومؤتمر خبراء اللغة العربية بالرياض ، ومؤتمر اللغة العربية فى جامعات الخليج بالكويت ، ومؤتمر تعليم العربية لغير العرب بمدينة الرياض.

وهذه كلها أعمال تحتاج لا ريب إلى خبرة خاصة تجمع بين الخبرة العربية وقدر غير يسير من الخبرة العالمية .

ولا يقف جهد زميلنا الفاضل وعطاؤه عند هذا الحد ، ولعله الأستاذ الوحيد فى كلية دار العلوم الذى لم ينقطع عن التدريس بها طوال عمله إلا بمقدار ثلاث سنوات قضاها فى الإعارة بجامعات قطر والإمارات العربية ، والكويت، وبذلك ضرب مثلا عاليا للأستاذ المنتمى إلى بلده .

ولم يقتصر جهده فى بلده على كليته المحببة إليه دار العلوم ، فنرى نشاطه ممتدا إلى كلية الآداب ،وكذلك كلية الإعلام بجامعة القاهرة، وإلى كلية البنات بجامعة عين شمس ، وإلى معهد البحوث والدراسات التابع لجامعة الدول العربية ، وكذا معهد الفنون المسرحية .

ويعترف له المذيعون فى مصر والسعودية وقطر ،والإمارات، بفضله الظاهر فى الدورات التدريبية والتثقيفية بمعاهد التدريب الإذاعى إلى الآن

وللزميل الكريم نشاطه المعروف فى الإشراف على مجموعة كبيرة من رسائل الماجستير والدكتوراه فى كلية دار العلوم ، وفى معهد الدراسات العربية ، وفى الاشتراك فى مناقشة طائفة كبيرة من رسائل الماجستير والدكتوراه فى جامعات مصر وجامعات كثير من البلاد العربية .

ولعل أول إنتاج علمى مبشر به هو كتاب قضايا لغوية ، كتاب صغير الحجم ، ولكن يقال له كما قيل لكل نافع مستوعب : «كل الصيد فى جوف الفرا» ، فهو دراسة مبكرة للفصل بين مدلولات علم اللغة ، وفقه اللغة ، واللغة ، وفيه بيان لوظيفة اللغة فى المجتمع وما دخل الاجتماع أو الوراثة فيها ؟وما الفرق بين اللغة واللهجة ؟وما عوامل التوحيد لتكوين لغة مشتركة ؟ وهكذا يمضى الكتاب مع وجازته الشديدة ليعطى فكرة كاملة شاملة عن القضايا اللغوية فى قديم الزمان وحديثه وزوايا المكان شرقيها وغربيها .

وينبرى فى رد صادق على سلامة موسى الذى هاجم دار العلوم وخريجيها ، الذين صاروا من وجهة نظرة ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة فى المعابد ، فلا ينبغى تغيير كلمة أو حتى أسلوب التعبير فيها أو خطها . زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادى ووجدان طبقى ينهضان على استبقاء اللغة

العربية فى جمودها الحاضر ولذلك يخشون التغيير ويرون فيه هجوما على مصالحهم الاقتصادية .

هذا ما قاله صاحب هذا الزعم . فيقول الزميل كمال بشر : « ولا يسع المنصف إلا أن يحكم على هذا الرأى بالشطط والافتراء على قوم من أولى الناس بالثناء والتقدير ، لقاء ما قاموا وما يقومون به من خدمة اللغة والمحافظة عليها .

وكان من الواجب أن يعرف أن دار العلوم كانت المعهد الحكومى الوحيد الذى نجا من سطوة الاستعمار وسطوة لغة الاستعمار .

ويقول فى مجال الرد عليه أيضا : إننا لا ننكر بحال قيمة الآداب الأخرى ، ولا ندعو إلى إهمال الثقافات مهما كان نوعها أو مصدرها ، إنما الذى ننكره هو التعصب الأعمى للآداب والثقافات الأجنبية مع الاحتقار لآدابنا وثقافتنا . وإن وحدة العرب إنما تستمد من وحدة لغتهم » .

ومن جهوده العلمية الممتازة ترجمته لكتاب ستيفن أولمان ، الذى سماه « دور الكلمة فى اللغة » ، وهو مرجع رئيسى من مراجع علم اللغة العام ، أفاد منه الكثيرون من علماء اللغة الأوربيين ومن الباحثين العرب . وأشهد لقد ناقشت كثيرا من الرسائل الجامعية فرأيت مدى اعتماد طلبة الدراسات العليا على هذا الكتاب ، وعلى الحواشى النفيسة والتعليقات التى أضفاها كمال بشر على ترجمته لهذا الكتاب .

إن مؤلفات الزميل كمال بشر تتسم باليسر والتيسير ، وقد أتيح لى من زمن بعيد أن أمتع بصرى وفكرى بقراءات فيها فظفرت بخير كثير . ثم أعدت النظر فيها من قريب فصح منى العزم أن أقتطع لها وقتا أعاود فيه هذه المتعة وهذه النوافذ الدانية القطوف .

ولا أحدث عن كتابه « دراسات فى علم اللغة » بقسميه اللذين تناولا الألف والواو والياء ، وتسميتها ، ومدلولها فى القديم والحديث ، وخواصها الصوتية بوصفها صوائت وبوصفها صوامت . كما عرض بحثا وافيا مستفيضا عن السكون فى اللغة العربية محاولا بيان حقيقته وقيمته فى النظام الصوتى العربى ، من الناحية الصوتية المادية والناحية الوظيفية .

والقسم الثانى من هذا الكتاب : « دراسات فى علم اللغة » ينتظم طائفة من البحوث اللغوية ذات الطبيعة العربية الصرفة ، وما نهجه العلماء

العرب القدماء فى تناول دراساتهم الصوتية والصرفية والنحوية ، محاولا بيان مواقعها المناسبة فى ضوء علم اللغة الحديث كما يرى. ويختمه ببحثين آخرين : أما أولهما فيناقش مظاهر التطور فى العربية المعاصرة ، وأما الثانى فيناقش معنى المعنى من وجهة النظر اللغوية على ضوء أشهر المدارس اللغوية المعاصرة .

هذا بعض ما كان من أمر كتبه . أما بحوثه المنشورة فإن هذا النطاق الذى يلفنا قد لا يسمح باستيعاب القول فيها . ويكفى أن نشير إلى بحثه فى كتاب العين للخليل وموقعه فى الدراسات اللغوية . وقد نشر بحوليات كلية دار العلوم سنة ٧٤ . وإلى بحثه فى التعليق على كتاب محاضرات فى علم اللغة العام لفردناند دى سوسير . وقد نشر بمجلة المجمع سنة ١٩٧٣ .

وإلى بحثه فى نوعية اللغة التى يتعلمها التلاميذ فى المرحلة الأولى ، ووسائل التقريب بينها وبين اللغة الفصحة ، وقد نشرته جامعة الدول العربية ، مع بحوث أخرى ألقيت فى مؤتمر عمان بالأردن سنة ١٩٧٤ .

وبحث آخر فى مشكلات اللغة فى العصر الحديث . وقد ألقى فى الموسم الثقافى بقطر سنة ٧٤ . وبحث عنوانه « جهود العرب فى الدراسات الصوتية » وقد نشر بمجلة الثقافة العربية الليبية سنة ١٩٧٥ .

ونشرت له مجلة الفيصل السعودية بحثا فى الكتابة العربية سنة ٧٨ ، وآخر موضوعه « اللغة العربية والعلم الحديث » سنة ١٩٧٩ .

كما ألقى فى ندوة جامعة الكويت سنة ٧٩ بحثا فى الأخطاء الشائعة فى نظام الجملة بين طلاب الجامعات . هذا إلى ثلاثة عشر مقالا بعنوان عام هو « فن الكلام » نشرت كالها بمجلة « الفن الإذاعى » بالقاهرة وغيرها وغيرها . ولعل فى هذا القدر من تلك المقادير ما يجلو صورة مشرقة مشرفة لزميلنا الذى هو موضع اعتزازنا وتقديرنا .

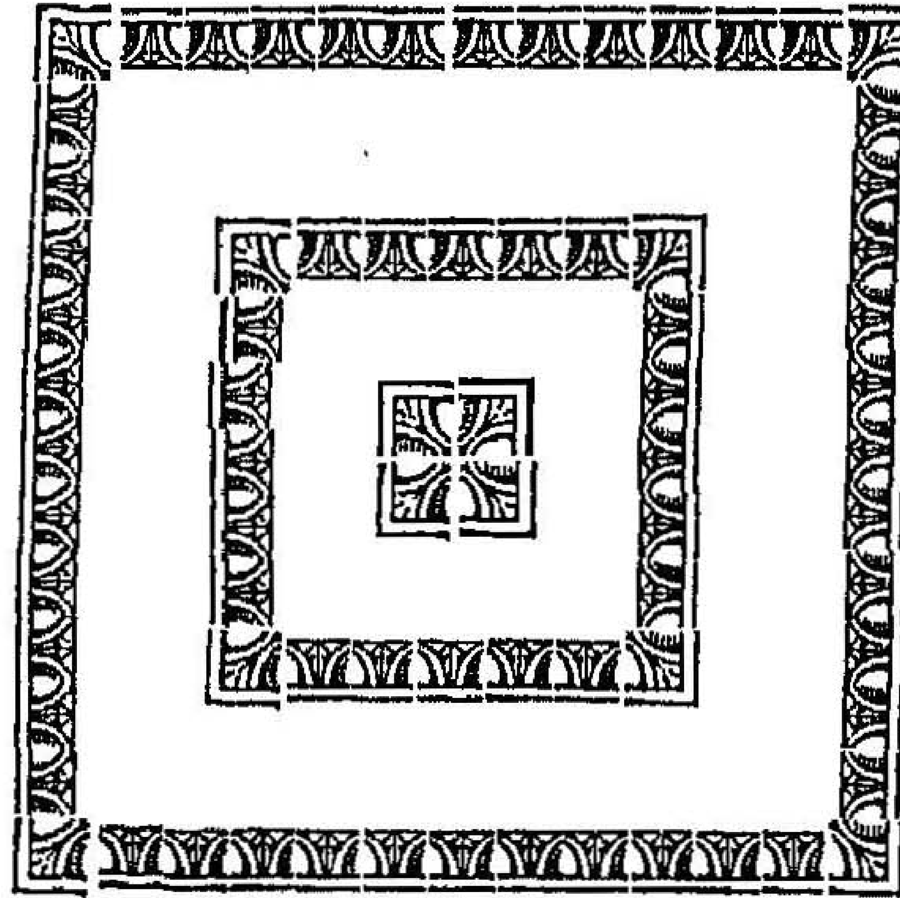
وأما بعد فهذا هو كمال بشر الزميل الجديد الذى أنجبته محلة دياى من مركز دسوق ، فى اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر فى سنة ١٩٢١ بعد الميلاد ، الفتى الذى حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة حقا ، وضمه إليه معهد دسوق الأزهرى الابتدائى ، ثم أتم تعليمه الثانوى بمعهد الإسكندرية ومعهد طنطا فى سنة ١٩٤٢ وهى السنة التى التحق فيها بكلية دار العلوم تغذوه وترعاه فيتخرج فيها بعد أربع من السنين فى عام ١٩٤٦ .

ولا يقف طموحه عند هذا الحد إذ يحصل على دبلوم المعهد العالى للمعلمين فى سنة ٤٨ فيعمل بتدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية بوزارة التربية إلى ٤٩ . ثم يوفد مبعوثا إلى لندن فيحصل على الماجستير فى علم اللغة المقارن من جامعة لندن سنة ٥٣ ، وعلى الدكتوراه فى علم اللغة والأصوات من تلك الجامعة فى سنة ٥٦ . ويعود إلى بلده راضيا مرضيا فيعين مدرسا بقسم اللغة العربية بكلية دار العلوم إلى سنة ٦٢ ثم أستاذا مساعدا وأستاذاً إلى سنة ٧٠ ورئيسا لقسم اللغة العربية والدراسات السامية والشرقية من سنة ٦٩ إلى الآن . وهو فيما بين ذلك وكيل للكلية أو عميد لها .

وأقول : ان هذا التاريخ العلمى الحافل وهذا الجهاد الطويل المتواصل ، هو الذى جعل مجمع اللغة العربية يسعى إلى الزميل الكريم .

وإنى إذ أقدم التهنئة الصادقة للزميل الفاضل باسم مجمعنا الموقر ، لأرجو له حياة علمية مباركة بين إخوانه ومحبيه وعارفى فضله ،

عبد السلام محمد هارون
الأمين العام للمجمع



كلمة الدكتور كمال بشر

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

سيدى وأستاذى نائب الرئيس

السادة أعضاء المجمع الموقرين

السيدات والسادة الحضور

هناك لحظات من العمر يقف المرء تجاهها وخواطره مشحونة بالتأمل والقلق فى آن معا:

إنه يتأمل فى روعة الأحداث التى تضمها هذه اللحظات بين جنباتها، ويعمل فكره ويشغل نفسه بما ترمز إليه هذه الأحداث من معان سامية ودلالات عميقة. كلها فى الحق إشارات مؤكدة أن غنما عظيما قد أصابه وأن فضلا كبيرا قد استقر ببابه وملأ عليه داره. أما مبعث القلق فلأن هذه الأحداث قد وضعته فى موقع يهابه الرجال - بل صفوتهم - ويخشونه. إنه موقع امتنع ويمتنع على بعض من هم خير منه وأعلى كعبا فى فنون التعامل مع فرسان الساحة التى اختير عضوا فيها ورشح لتحمل نصيب من التبعات الجليلة التى تنتظره فى أرجائها. وهو كذلك موضع تعجم فيه الأعواد، وتمتحن العزائم وتختبر الهمم فى مشهد عظيم يشهده المصطفون الأخيار من أئمة اللغة ورادة العلم فى عصرنا الحديث.

ذلك أيها السادة - هو ما أحسه وأشعر به، وهو ما يجول فى خاطرى ويختلج فى نفس فما إن أذن لى أن أخطو إلى محراب شيوخ العربية حتى تملكتنى دواع من رغبة ورهبة فأما الأولى فيمليها نزوع إلى التماس الرشد من منارات المعرفة، ونشدان الحكمة من جهابذة الفصحى، وابتغاء المزيد من فضل عطائهم الذى لا ينضب معينه ولا تجف جداوله.

وأما الأخرى فهى شعور بالخوف يسيطر على ويملأ جوانبى: إذ كيف لمثلى أن ينتظم فى صفوف هؤلاء العلماء الأعلام وأن يدلف إلى منازلهم وهم - فى جملتهم - أساتذة له يجلس منهم التلاميذ؟.

إنها لمنة من الله ونعمة، وإنها لحظوة لى وفضل سابغ الأطراف من أساتذتى وزملائى الشيوخ، أن منحونى ثقتهم وأجازونى إلى حماهم. وإنى لأدخل دارهم الآن فى أمان وثقة، سائلا الله الرضا والتوفيق راجيا من الصحاب القبول والأخذ بيدى نحو الطريق.

هكذا شاء الله، وهكذا تفضلتم، حراس اللغة وحفظة تراثها وثقافتها، فنلت شرف الدخول إلى معقلكم الحصين الأمين. ويقينى أننى باذل جهدى فيه ما استطعت، مشاركا ومتابعا، ومستمعا إلى شيوخى

ومتعلما منهم ، طامعا فى التوجيه والإرشاد سائرا على الدرب الذى يرسمون متطلعا إلى الغاية التى من أجلها يجهدون ويكدون .

وأيم الله أن اللسن العاجزة عن الإفصاح بفضلكم ، والتبيان لشكركم فجمعكم أعظم من أن يلهج بالثناء عليه لسان ، وأكبر من أن يوفيه حقه بيان .

وليس المصادفة فى شئ أن يتولى تقديمى إلى مجمع الخالدين أستاذى « عبد السلام هارون » إمام المحققين وشيخ النحاة ورائد الكشف عن جوهر العربية التى خلفها لنا أسلافنا الغر الميامين . إن ندب الشيخ لتقديم تلميذه خط مرسوم وغرض مطلوب : فيه إعلان عن خطر الموقع وإفصاح عن جلال المهمة ، وفيه مع هذا — وربما قبله — تشجيع للتلميذ أو تعهد بالرى لفنن مأمول الثمر فى دوحة فينانة ، جناها طيب وقطوفها دانية . وهأنذا أستاذى العظيم أدرك الملمحين وأستوعب الفكرتين ، فليطمئن قلبك ، وإن كنت سيدى الأستاذ — قد خلعت على من الوصوف مالا تطمع الآمال فى الاتصاف بها أو محاولة الوصول إلى اكتسابها ، ومدحتنى مدحا تصدره عن سماحة وكرم نفس تشجيعا لتلميذك ومريدك وأقول ما قال شوقى :

وما أدبى لما أسدوه أهل
ولكن من أحب الشىء حابى

فلك الشكر كفاء فضلك ولقاء ما قدمت لى من خير حملته إلى كلماتك الفصاح وبيانك الرفيع .

سيدانى — سادتى

جرت عادة المجمعيين أن يتحدث الخالف عن زميله السالف . وسلفى هو المغفور له الأستاذ محمد خلف الله أحمد الذى رأى الزملاء أن يجلسونى على كرسيه ، ولكن دون مقارنة معقودة أو كفاية فى معهودة وإنما — من وجهه نظرى فى الأقل — للتأسى به علما وعملا وسلوكا وإنجازا .

كان رحمه الله علما من أعلام العربية بشتى علومها وفنونها ورائدا من رواد الفكر والثقافة فى عالمنا العربى والإسلامى ومشهودا له بالثراء والعمق فى المعرفة الأدبية واللغوية فى مختلف الهيئات والمجتمعات العلمية فى شتى أنحاء العالم شرقة وغربه على سواء . فحديثى عنه اليوم أشبه بحسوة طائر من بحر زاخر .

نشأ رحمه الله فى قرية «العمرة» بتسكين العين أو العمرة بفتحها[1] من أعمال محافظة سوهاج سنة أربع وتسعمائة وألف من الميلاد . وتربى فى أحضان بيت كريم ذى رياستين : رياسة إدارية بالقرية ورياسة أدبيه فكرية فيها وفيما جاورها من قرى ونجوع . فقد كان جده لوالدته عالما أزهريا فاضلا يلتف الناس من حوله ويفدون إليه من هنا وهناك طلبا للمشورة والتوجيه الدينى وفض الخصومات : أما خاله — وكان خريج دار العلوم — فقد

---

(١) « العمرة » بضم العين وفتح الميم فيه إشارة إلى ما يرى من أن هناك صلة أو نسبا بين أهل هذه القرية الأصليين والفاروق عمر بن الخطاب .

أوفى نعمة الوفاء لأهله وعشيرته ، إذ كان يعقد حلقات الدرس لتعليم الكبار ، وكان رحمه الله يختلف إلى هذه الحلقات وهو فى مقتبل عمره ليشاهدها ويكون بجوار خاله الذى كان « كثير التعهد له بالتوجيه والتثقيف » .

وفى بداية حياته توجه إلى القرآن الكريم فحفظه وأتم حفظه فى سن مبكرة ثم أخذ يتقلب فى ألوان من المدارس الابتدائية والريفية ، غير منصرف عن ميله الأدبى واللغوى الذى ظهرت بوادره منذ سنيه الأولى بتشجيع من خاله ، فكان يختلف من وقت إلى آخر إلى أمهات الكتب ودرر التراث كالمعلقات ولاميتى العرب والعجم وغيرها من دواوين الشعر ومتون اللغة .

وظل وثيق الصلة بهذا وذاك حتى التحق بالقسم النظامى بالأزهر حين شد الرحيل إلى القاهرة ، ليبحث عن آفاق علمية وأدبية أوسع وأرحب . وظل بهذا القسم فترة من الزمن ثم نصحه الناصحون وهدته مشيئة الله إلى المكان الذى يجد فيه نفسه ويحقق آماله وتطلعاته وينمى ميوله البادية منذ أول لحظة من اتصاله بجده وخاله المذكورين . فدخل دار العلوم وابتدأ فيها عهدا جديدا امتد ثمانى سنوات : أربعا فى قسمها التجهيزى وأربعا فى فى قسمها العالى . وتخرج فيها سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وألف وكان فى سنوات دراسته كلها أول فرقته .

وفى أثناء الدراسة بدار العلوم تأكد نبوغه ولمعت عبقريته فى مناخ متعددة من ألوان الفكر والأدب والشعر والنشاط الاجتماعى والسياسى . وكان محل التقدير والإكبار والإعجاب من قرانه وأساتذته ، كما كان كبار الشعر آنذاك (من أمثال شوقى وشاعر البادية — محمد عبد المطلب) يعجبون بشعره ويطربون له .

وسافر فى بعث علمى إلى انجلترا سنه تسع وعشرين وتسعمائة وألف ونال درجة البكالوريوس عام أربعة وثلاثين ، ودرجة الماجستير فى الأدب سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف فى موضوع هو : « الأحكام الخلقية عند أطفال المدارس وعلاقتها بالعمر العقلى » .

وعاد إلى مصر فى العام ذاته فدرس فى دار العلوم فترة قصيرة ثم انتقل إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة التى ترك فيها بصمات واضحة وآثارا خالدة كما يظهر ذلك مثلا

فى تنظيم دراسة خاصة لطلاب الماجستير عن « صلة علم النفس بالأدب » .

« وحين أنشئت جامعة الاسكندرية سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة وألف نقل إليها مدرسا وترقى فى مناصبها العلمية إلى أن أصبح رئيسا لقسم اللغة العربية وآدابها ثم انتخب عميدا للكلية سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وألف تعينة فى العمادة مرات ،حتى عين وكيلا لجامعة عين شمس فى سنة إحدى وستين وتسعمائة وألف إلى أن بلغ سن التقاعد فى سنة أربع وستين وتسعمائة وألف : ثم اختير مديراً لمعهد الدراسات العربية والعالية وشغله عدة سنوات (١)

ولم تحل هذه المسئوليات الرسمية والإدارية الكبار منذ الطلب حتى رحيله عنا دون الأخذ بنصيب موفور وحظ مشكور من أوجه النشاط العلمى والثقافى العام والخاص ، ودون الاشتراك اشتراكا فعليا ومؤثرا فى كل ما يجرى حوله من أحداث وما يقع من مناسبات وما يعقد من مؤتمرات وندوات فى الداخل والخارج وما يؤسس من الهيئات والجمعيات ذات الصبغة العلمية والاجتماعية والسياسية .

لقد شهد ثورة ١٩ واشترك فيها خطيبا وشاعرا وفى أثناء الطلب بدار العلوم تعرف إلى « سعد » وأنشده من شعره فى مناسبات شتى ، كما كان رائدا من رواد الطلبة ورئيسا أو عضوا فى لجانهم السياسية والثقافية وتدرجت الأمور معه بتدرج الأزمان والمناسبات، ففى لندن عقد الندوات واشترك فى المؤتمرات وفى إدارة النادى المصرى هناك . أمافى مصر والعالم العربى والإسلامى فكانت له صولات وجولات مشهودة معروفة تمثلت فى لقاءات واجتماعات علمية تفوق الحصر والعد فى هذا المقام . وقد مثل بلده فى مؤتمرات عالمية كمؤتمرات المستشرقين فى باريس واستنبول وكمبردج ، ومؤتمرات الثقافة الإسلامية فى أمريكا وباكستان ومؤتمرات اليونسكو ومؤتمر الكتاب الأسيويين والأفريقيين فى طشقند ومؤتمر المعلمين العرب فى الإسكندرية وغير ذلك كثير من أول السطر وإن ننس لا ننس فى هذا المقام موقعه البارز فى هيئات رسمية أو شبه رسمية فى مصر ، فقد مثل جامعة الإسكندرية فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية كما مثل بعد جامعة عين شمس فى هذا المجلس . وانتخب عضوا فى المؤتمر الإقليمى والمؤتمر العام للاتحاد القومى للجمهورية العربية المتحدة وعضوا باللجنة التحضيرية والمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية وعضوا بالشعبة القومية لليونسكو

(١) «الجمعيون فى خمسين عاما » للدكتور مهدى علام ص ٢٦٦ - ٦٧ - تحت الطبع وقد أفدنا منه كثيرا .

ومقررا للجنة الشرق الغرب بها . وقد توج هذا كله بانتخابه عضوا عاملا بمجمعنا هذا سنة تسع وخمسين وتسعمائة وألف .

وعلى الرغم من انشغال راحلنا الكريم بهذه المسئوليات الكبار والتبعات الضخام لم يزل دائبا على البحث والنشر . ومحصوله المنشور من الكتب والبحوث منذ سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف إلى يوم اختير إلى جوار ربه يشهد بإخلاصه للعلم وتوفره على الدرس .

ولسنا بقادرين فى هذا المجال أن نحصى ما خلفه لنا الراحل الكريم من كتب وبحوث علمية ومقالات أدبية ولغوية وما تلقيناه عنه من آثار فكرية طوال حياته الخصبه الثرية .

وحسبنا هنا أن نشير إلى نماذج من هذه وتلك على ضرب التمثيل :

(أ) الكتب :

وهى تتوزع على مختلف مجالات الدرس اللغوى والأدبى والثقافة الإسلامية وغيرها ، وتعرض لقضايا جوهرية فى هذه المجالات ونعالجها بمنهج علمى دقيق . وجاءت مادتها فى أسلوب أدبى رفيع ينم عن سيطرة فائقة لفنون القول وطرائق العرض والتحليل .

من هذه الكتب :

١ ـ الطفل من المهد إلى الرشد .

٢ ـ دراسات فى الأدب الإسلامى .

٣ ـ من الوجهه النفسية فى دراسة الأدب ونقده .

٤ ـ الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .

٥ ـ الإسلام والحضارة .

٦ ـ معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها .

(ب) البحوث والمقالات :

أما البحوث والمقالات أكثرها عددا وتنوعا فى المادة والموضوع . وبعض منها ألقى فى مؤتمرات عالمية وبعض آخر نشر بالمجلات العربية وغير العربية ، كما جاء عدد منها باللغة الإنجليزية وهذه أمثلة منها :

١ ـ نظرية عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة (مؤتمر المستشرقين فى باريس ، ومجله الدارسات الشرقية بشيكاغو) .

٢ ـ أثر الدراسات القرآنية فى تطور النقد والبلاغة العربية (مؤتمر المستشرقين فى استنبول) .

٣ ـ صله الثقافة العربية بالثقافات الأخرى (مؤتمر طشقند للكتاب الأسيويين والأفريقيين) .

٤ ـ المراحل الأولى من تطورات العربية الفصحى (نشر فى دائرة المعارف الإسلامية) .

٥ — أثر العرب فى تطوير البلاغة والنقد الأدبى (نشر فى دائرة المعارف الباكستانية) .

(د) نشاطه المجمعى :

أما النشاط المجمعى للمغفور له الأستاذ محمد خلف الله أحمد فهو نشاط واسع عميق .

فقد ساهم فى أعمال المجمع طيلة ربع قرن من الزمان واشترك فى مؤتمراته ومجلته ولجانه ، فكان عضوا بلجنة المعجم الكبير ولجنة ألفاظ الحضارة ولجنة العلوم الفلسفية والاجتماعية ولجنة الآداب ولجنة معجم العلوم الاجتماعية ولجنة الأصول .

وكان له فى كل هذه اللجان دور بارز يتمثل فى تقديم المادة والتقارير . وفى المجمع أيضا ألقى عددا من البحوث ذات الأهمية الخاصة فى ميادين متنوعه منها :

١ — الثقافات القديمة وحركة الترجمة العربية فى القرن الماضى .

٢ — ابن قتيبة والتوجيه اللغوى للكتاب (وألقى هذا البحث فى دور مؤتمر المجمع ببغداد سنة خمس وستين وتسعمائة وألف) .

وتعد الكلمة التى ألقاها فى حفل استقباله بالمجمع ممثلة لبحث ذى قيمة عالية ينتظم نقاطا ذات أهمية بالغة تتعلق بدور المجمع ومسئولياته نحو اللغة العربية ومشكلاتها.

هذه أيها السادة — لمحة خاطفة عن حياة الراحل الكريم وتلك قطوف من ثمار غرسه وشذا طيب من سيرته العطرة،وما أردنا هنا التعريف به أو بآثاره بالمعنى الدقيق ؛ إذ الأعلام لا تعرف، وإنما قصدنا إلى دعوة الخالفين للنظر فى أبعاد هذه الشخصية الفذة والتعمق فى جوانب عطائها ليسيروا على هدى سالف ويحذوا حذوه إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

أما أنا فقد حاولت ومازلت أحاول وأنى لى أن أدرج مدارجه وأرقى مراقيه أو أن أدنو من شامخ صرحه ! ! حاولت شيئا من ذلك عندما شرف مجلس كلية دار العلوم بعضويته لمدة عشرين عاما أو نحو من ذلك . حاولت التلقى منه والأخذ عنه : أخذ التلميذ من شيخ عالم جهباذ أوتى الحكمة ومنح عمق البصيرة ونفاذها . وسوف أحاول أن أترسم خطاه وأسير على النهج الذى خطه وارتضاه .

ولقد توافينا (أعنى السالف والخالف) على قضية جوهرية جديرة أن تشغل المجمع الموقر وتحظى منه بموفور الاهتمام والعناية.تلك القضية هى قضية مشكلات اللغة العربية التى لخصها سالفنا فيما سماه « الثنائية اللغوية » ويعنى بها مستويين من الكلام: فصيح وعامى . أما أنا فأصف وضعنا اللغوى فى العالم العربى الكبير « بالرباعية اللغوية » . أو الخماسية الكلامية ، إن جاز التعبير .

إن هموم العربية ذات أشكال وألوان وهى هموم تمس كيانها وخواصها الأساسية. والحق أن همومها تجسيد حى لهموم أهلها علميا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا: اضطراب فى هذه الأنحاء واضطراب فى اللسان، وخلط فى هذه الميادين منهجا وسلوكا وخلط فى لغتنا دراسة وتوظيفا .

لدينا الآن فصحى (أو فصيحة) ولغة الدواوين وأشباهها ولغة الإعلام ولغة المثقفين ، ولدينا العاميات وهى بالعشرات أو بالمئات تعد . ولا يغرنك أن تعثر على نصوص أو سطور قليلة أو كثيرة مكتوبة بلغة فصيحة لأن اللغة المكتوبة فيها تكلف واصطناع وتخضع للمراجعة والمعاودة .

وإنما اللغة إذا أطلقت مصطلحاً فهى تعنى عند العارفين والدارسين اللغة المنطوقة. واللغة المنطوقة هى أساس المكتوب ومعينه فإذا صلح المعين صلح ما يستمد منه وليس العكس بصحيح بحال . فاللسان الحى أولى بالعناية من اللسان الصامت، فالعرب جميعاً يتكلمون ولكن الغالبية منهم لا تكتب ولا تقرأ .

ما السبيل إذن إلى معالجة هذا الوضع الغريب الخطير الذى قل أن تجد له مثيلا فى العالم ؟ أنطرح الفصحى ونتخذ العامية لسانا لسعة انتشارها وسيطرتها على الساحة اللغوية ؟ حاشا لله أن أنهج هذا النهج أو أن أدعو إليه .

علاج هذه المشكلة يحتاج إلى وقت طويل وصبر دائب ونظر ثاقب جاد، ويحتاج إلى مراجعة الأوضاع العلمية والثقافية والاجتماعية . كما يتطلب وقفة متأنية إزاء العملية التعليمية فى جميع مراحلها. ودور اللغويين هنا دور رائد قائد ، وحامل الراية فى هذا الدور وفى تلك الساحات جميعا هو مجمع الخالدين .

كيف الخروج من هذا المأزق ؟ كيف الوصول إلى لسان عربى فصيح ، يجمع الناس على كلمة واحدة تلم شتات أفكارهم وتقرب من ألوان ثقافاتهم وتؤكد وحدتهم فى الآمال والآلام ، وتغرس فى نفوسهم روح الانتماء إلى عقيدتهم ولغتهم ووطنهم الصغير والكبير على سواء ؟

لست بمستطيع الآن تقديم خطة علمية مفصلة لوسائل هذا العلاج ، وأكتفى بتسجيل بعض المقترحات أو التوصيات ، أو لنقل : إنها أمانى يتمناها محب للغته غيور عليها بين أيدى رجالها وحماتها الأجلاء .

١ — للمجمع — ولا شك — دور فعال ، أتمنى أن يمتد أثره إلى الحياة العامة ولا يقتصر على « الفتاوى الصامتة » تلك التى يصدرها فى محرابه ولا تصل إلى أعين الناس وأسماعهم . وهنا أرجو أن نتجاوز حد التصويب أو التسويغ إلى تقديم الجديد المبتكر فى التخطيط والدرس والتوظيف .

٢ — أتمنى أن تفتح قنوات اتصال منوعة عميقة تمد المعنيين بالكلمة المكتوبة والمنطوقة بحاجتهم . وأهل الكلمة المنطوقة بالذات — كالإذاعة مثلا — أولى الناس بالصحبة وأجدرهم بالغذاء اللغوى وعطاء المجمع . وفى ظنى أن الإذاعة الآن تقوم بدور مشكور فى طريق التصحيح اللغوى ، بل قل إنها أفضل بيئة توظف اللغة المنطوقة الصحيحة إذا قورنت بغيرها من البيئات .

٣ — أتمنى ألا نكتفى بالندوات أو المؤتمرات التى يعقدها المجمع ، بل ننظم أمثالها لجماهير المثقفين لأن اللغة مطلب عام لجميع الناس .

٤ — أرجو أن نصطنع من الوسائل ما يعطى قرارات المجمع صفة الإلزام ويضمن لها الشيوع والانتشار ، وصولا إلى تعميق فكرة الانتماء وتخلصا من ظاهرة "التعريب اللغوى" والذى تبدو آثاره واضحة على الألسنة ولافتات المحال التجارية والشركات وإعلاناتها المنتشرة هنا وهناك فى الشوارع . وأخشى أن أقول إن ظاهرة التغريب هذه تسربت إلى أقلام بعض الكتاب والمثقفين .

٥ — أرجو أن نوجه مزيدا من العناية إلى اللهجات ومستويات اللغة الأخرى بقصد استخراج الثروة الصالحة منها وضمها إلى المحصول اللغوى العام ، الذى ترتضيه أسلوبا لتعاملنا ، وأساسا لوحدة لغوية قوية ثرية ، تقابل حاجات الناس ومناحى معايشهم وتحافظ على دينا وتراثنا .

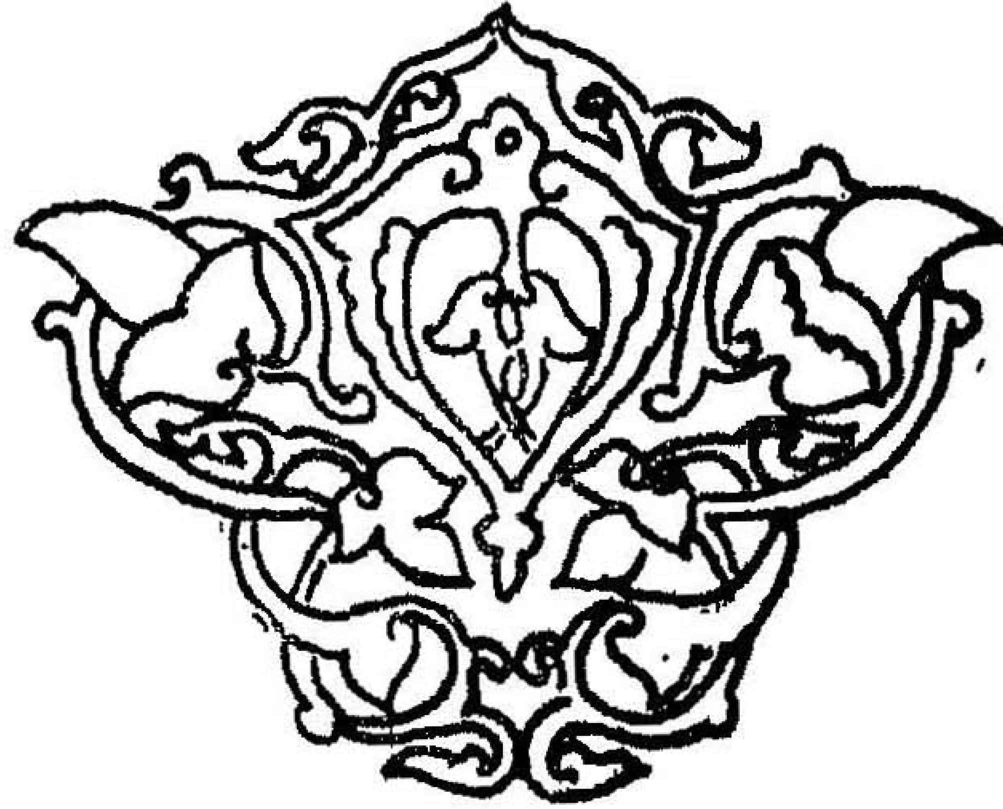
أما موضوع المصطلحات ولغة الكتابة العلمية فذلك أمر يحتاج إلى وقفة خاصة فى فرصة أخرى .

ولكنى أقرر هنا على مسمع منكم أن الاختلاف البادى بين العرب فى دلالات هذه المصطلحات وافتراقهم فى طرائق التعبير فى مجال العلم ، يرجع فى أساسه إلى الفراغ العلمى والعجز عن الاشتراك فى هذا الميدان بطريق الابتداع والابتكار كما يرجع إلى الاكتفاء بالنقل والتقليد .

رحم الله سالفنا العظيم ، وسدد الله خطانا على

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

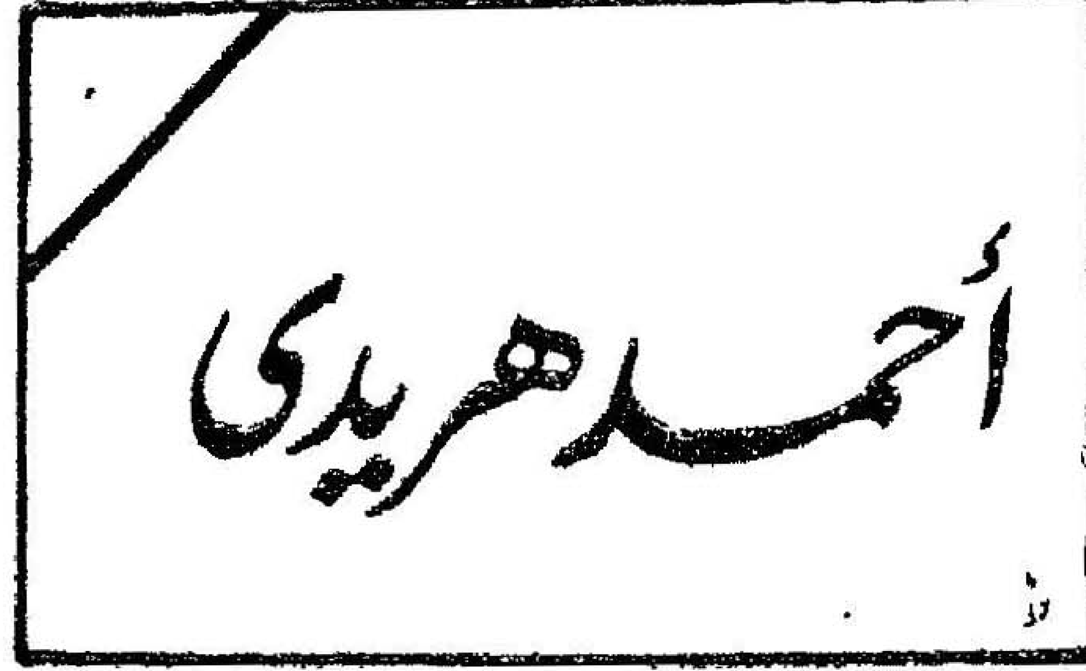
كمال بشر
عضو المجمع



كلمة الدكتور محمد الطيب النجار

فى تابين المغفور له

الأستاذ الشيخ



نحمد الله سبحانه وتعالى ، ونصلى ونسلم على أنبيائه ورسله وعلى خاتمهم سيدنا محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم أما بعد .

سيادة رئيس المجمع ، السادة الزملاء حضرات السادة الأجلاء .. تمر الأيام وتتابع ، ويدور الفلك بالناس دوراته المتلاحقة ، فيغير الله الأحوال بين يأس ورجاء ، وعبوس وصفاء ، وإقبال وإدبار ، والله يقلب الليل والنهار .

وقد خلق الله الموت والحياة ، والموت بلا شك حق لاريب فيه ، وقدر نافذ لا مرد له ، رضى الناس أم سخطوا ، أعلنوا الحرب عليه أم سالموا .. والله سبحانه وتعالى يقول «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى حديث صحيح « عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به » .

والشاعر العربى الحكيم يقول :

حكم المنية فى البرية جارى
ما هذه الدنيا بدار قرار

بينا يرى الإنسان فيها مخبرا
فإذا به خبر من الأخبار

طبعت على كدر فكيف تريدها
صفوا من الأقذار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب فى الماء جذوة نار

سنة الله فى خلقه ، موت وحياة ، ثم هكذا يدور الفلك ، وهكذا تتعاقب الأحداث ، ونحن اليوم حينما نجتمع لنتحدث عن فقيد المجمع الكبير ، فقيد الإسلام المغفور له الشيخ أحمد هريدى مفتى مصر ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية ، وعضو مجمع

اللغة العربية ، فإنما نتحدث عن فقيد العلم ، والعلم هو الغاية التى ليس بعدها غاية والعلماء فى هذه الدنيا هم أساة الأرواح وأطباء النفوس ، وهم الذين يسمون بالعقول فيصقلون عوجها ، ويشحذون مضاءها ،وينيرون لها السبيل إذا ما اضطربت الأمور وتلبدت الغيوم .

ورسالة العلماء فى هذه الدنيا هى الرسالة الخالدة التى لا تسعد الدنيا إلا بها ، ولا تهنأ إلا فى ظلالها ومن أجل ذلك مدحهم الله سبحانه وتعالى فقال « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ومايستوى الأحياء ولا الأموات والعلم بلا شك هو البصر والنور ، والجهل هو الظلمة ، والعلم بلا شك هو الظل الظليل ، والجهل هو النار التى تلفح والحر الذى يحرق ، والعلم حياة ونماء والجهل موت وفناء .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ويقول « العلماء ورثة الأنبياء » .

وفقيد المجمع المغفور له فضيلة الشيخ أحمد هريدى عالم جليل لاريب فيه ، وفقيه ضليع ، ومفت من المفتين الذين عرفوا الحق ، وتمسكوا به ، وكانت كلمة الحق دائما تجرى على لسانه ، لم يتغير تحت ضغط سياسى أو تحت هوى أو غرض وظل بحمد الله يؤدى رسالته كاملة إلى أن اختاره الله إلى جواره طاهرا تقيا مؤمنا صادقا عالما عاملا ، بحمد الله .

ولقد ولد رحمه الله فى بلدة الفقاعى مركز ببا محافظة بنى سويف سنة ١٩٠٦ ثم تدرج بعد أن نال درجة تخصص القضاء الشرعى فى وظائف القضاء حتى وصل إلى رئيس لمحكمة المنصورة الشرعية ثم عين بعد ذلك مفتيا لجمهورية مصر ، ثم اختير عضوا فى مجمع البحوث الإسلامية ثم اختير بعد ذلك عضوا بمجمع اللغة العربية وفى خلال عضويته لمجمع اللغة العربية كما سمعنا الآن من شيخ المجمع ورئيسه كان مثالا للعالم المخلص الذى يؤدى واجبه تمام الأداء .

ولقد شارك فضيلته فى مؤتمرات إسلامية كثيرة ، وكان من أهمها المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى ماليزيا سنة ١٩٧٦ وله فيه بحث مستفيض دقيق عن الزكاة فى الإسلام وقد بحث فى هذا الموضوع نظام الزكاة فى الإسلام وكيف أن الإسلام حارب الفقر وانتصر عليه بهذه الفريضة المقدسة وأفاض فى ذلك الموضوع ، ووصل والحمد لله إلى النتيجة المرجوة التى تطمئن لها النفوس

واشترك فضيلته فى تقنين الشريعة الإسلامية واشترك كذلك فى موسوعة الفقه الإسلامى فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف وهكذا أسهم أسهاماً كبيرا فى جميع المؤسسات الإسلامية الدينية ، وأثمر إسهامه والحمد لله أجل الثمرات وأعظمها

وإذا كان لى أن أتحدث عن بحوثه الكثيرة التى استمتعت بقراءة معظمها فإنى أقول بحق إن هذا الرجل كان دقيقا وكان نافذ البصيرة ومخلصا إلى أبعد الحدود فى كل عمل يقوم به ، وعلى الرغم من أن مؤلفاته تكاد جميعها تكون مخطوطة ، إلا أنه يرجى أن تطبع إن شاء الله عما قريب لينتفع بها المسلمون ، وسوف يكون من الأمانة وتصديقا لما قلته أن أعرض لكم بعض آراء له حول ترجمة القرآن وحول التفسير العلمى للقرآن الكريم ، وهذا مجرد مثال أردت به أن أبين كيف كان الرجل يعالج القضايا الهامة التى يجب أن ينظر إليها العلماء نظرة دقيقة ، وقد كان له بحث كذلك فى استقبال شهر رمضان وهلال رمضان ، ووصل فيه إلى رأى دقيق هو الرأى الذى انتهت إليه جمهرة العلماء فى هذه الأيام.

وأرجو أن تأذنوا لى أن اقرأ عليكم حفاظا على أمانة النقل وأمانة الكلمة ، ان اقرأ لكم بعض سطور من آرائه حول ترجمة القرآن ، وحول التفسير العلمى للقرآن الكريم ، يقول فضيلته عليه الرحمة :

« إن ترجمة القرآن تصدق بمفهومين : الأول الترجمة الحرفية للنص العربى المنزل من عند الله وهذا غير ممكن ولم يقل به أحد ممن درسوا الموضوع وقت أن كان التفكير فيه . لأن القرآن أساس للتشريع الإسلامى وأحكامه وقواعده ومبادئه التى تتعلق بتنظيم حياة المجتمع الإسلامى فى مختلف جوانبها وربط علاقاتهم ببعضهم وبرهم وبغيرهم من المجتمعات الأخرى من جميع النواحى وفى أوقات الحرب والسلم ، وألفاظه العربية لها معانيها ومدلولاتها واحتمالاتها وتوجيهاتها التى ترتبط بها الأحكام والقواعد والمبادئ التى تكون محل اجتهاد المجتهدين واستنباطهم واختلافهم واتفاقهم وذلك فضلا عن جانب الإعجاز اللفظى والمعنوى المرتبط بالنظم العربى .

والترجمة الحرفية ليس فيها شىء من ذلك كله وقد اتفق المسلمون على عدم جوازها . وقد أصدرت بعض الدول غير الإسلامية ترجمات للقرآن كانت مسخا وتشويها وتحريفا لكتاب الله وفيها أخطاء كثيرة يندى لها الجبين . والقسم الثانى ترجمة معانى القرآن بأن تؤلف لجنة من المختصين لوضع تفسير موجز للقرآن يعتمد الصحيح والراجح ثم تؤلف لجنة على هذا الأساس لترجمة هذا التفسير . وهذا ممكن وجائز بالاتفاق . وقد قامت بعض الدول الإسلامية بإصدار ترجمات من هذا النوع ويفكر الأزهر

فى عمل ترجمة دقيقة صحيحة لمعانى القرآن ونشرها لتكون بمثابة الأصل الذى يرجع إليه عند الاختلاف بالنسبة لما صدر فى ترجمات مختلفة، هذا كلام الشيخ حول ترجمة تفسير القرآن .

وفى مجال التفسير العلمى للقرآن يقف فضيلة المرحوم الشيخ أحمد هريدى وقفة الفاحص المتأمل فيقول : إن القول بعدم جواز تفسير القرآن تفسيرا علميا بإطلاق دون تفصيل بين ما يكون عرضة للإلغاء والإبطال من مقدرات العلم وما لا يكون كذلك يعيد إلى الأذهان ما كان يردده بعض الباحثين فى مجافاة الدين للعلم مما لا أساس له فإن الذين مجد العلم ورفع من شأن العلماء « هــل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقد دعا الدين إلى تعلم العلم وحث عليه، ولا تقول مع القائلين إن العلم الذى يدعو إليه الدين هو علوم التفسير والحديث والفقه والتوحيد وأصول الفقه فحسب .

وهذه نظرة جليلة من الشيخ الجليل عليه الرحمة فإن بعض الناس ممن أسعدهم الله بأن يكونوا علماء فى التفسير والحديث والفقه ربما يظن البعض منهم أن هذا هو العلم ، ولكن الشيخ ينظر نظــرة شاملة فيقول إن العلم الذى يدعو إليه الدين ليس هو علوم التفسير والحديث والفقه والتوحيد فحسب وإنما هو كل علم يرقى بحياة الإنسان وينفعه ويسير به قدما مع ركب الحضارة والتقدم العلمى والحضارى . والله تعالى حين أراد أن يستخلف الإنسان فى الأرض لعمارتها واستخدام ما أودعه الله فيها من أسرار وعجائب أشار الكتاب الكريم إلى أن أساس الصلاحية للإستخلاف هو العلم والقدرة على تحقيق العمارة وتفهم أسرار الكون . . وقد نجح الإنسان فى خلافته وعمر الأرض وأثار الحياة وكشف بالعلم والاختراع كثيرا من أسرارها وعجائبها وامتد الإصلاح إلى كل ركن فيها . وصعد الإنسان إلى القمر بوسائل العلم وآثار العلم . ونزل على سطحه ونقل إلى الأرض بعضاً مما يحتويه وهو يواصل الآن فى بحثه عن الحياة على كثير من الكواكب وسواء أراد القائمون بهذا العمل العلمى العظيم أم لم يريدوا فسوف تنتهى البشرية إلى الإيمان بخالق الكون كله وما فيه من أسرار وعجائب ومكنونات وأنه إله واحد خالق مدبر مقدر وهذا الإيمان هو دعوة الدين وغايته . وذلك ما أدى ويؤدى إليه العلم فالعلم يخدم الدين والدين يدعو إلى العلم ويفتح آفاقه ويحض على تعلمه . وفى مجال الحقائق الثابتة لن تكون بينهما مجافاة ولا تناقض .

ثم ينتهى فضيلته إلى نتيجة موفقة حيث يقول : فليس من منطق الدين أن تمنع تفسير القرآن الكريم تفسيرا علميا فى نطاق الحقائق الثابتة وليس من منطق العلم أن نباعد بينه وبين الدين فى هذا النطاق .

وهكذا أيها الإخوة تبدو آراء العالم الجليل آراء حرة مستنيرة متعمقا فى بحثه مطمئنا إلى ما يبديه من آراء لأنه بحمد الله قد اعتمد على أساس متين سليم .

أيها السادة الزملاء . أيها الإخوة الأعزاء إن الناس يتشبثون بهذه الحياة ، ويود كل إنسان لو يمتد به العمر أحقابا طويلة ، فإذا ما امتد به العمر فى هذه الدنيا أو فيما بعد العمر الغالب ، فإنه يتمنى لو يتضاعف ذلك الزمن و يتضاعف ، ويتمنى مع ذلك لو يذهب ليل الشيخوخة وعبوسها لكى يعود إليه نهار الشباب وإشراقه وابتسامه ، تلك طبيعة الإنسان ، ولكن العمر أيها السادة مهما طال فهو قصير لأن له غاية معلومة ونهاية محتومة ، وحينما يوفى الإنسان على الغاية والنهاية يرى أن ما مضى فات وما فات مات ، ويرى السنين على كثرتها وطولها قد مرت مرور الطيف ، وانصرفت وتولت كأنها سحابة صيف ، وحينئذ يتساوى من عاش عشرة أعوام بمن عاش مائة أو مئات من الأعوام ، وإذن فالمقياس الحقيقى لعمر الإنسان ليس هو الزمن الطويل والعمر المديد ، وإنما هو الأثر الخالد الحميد .

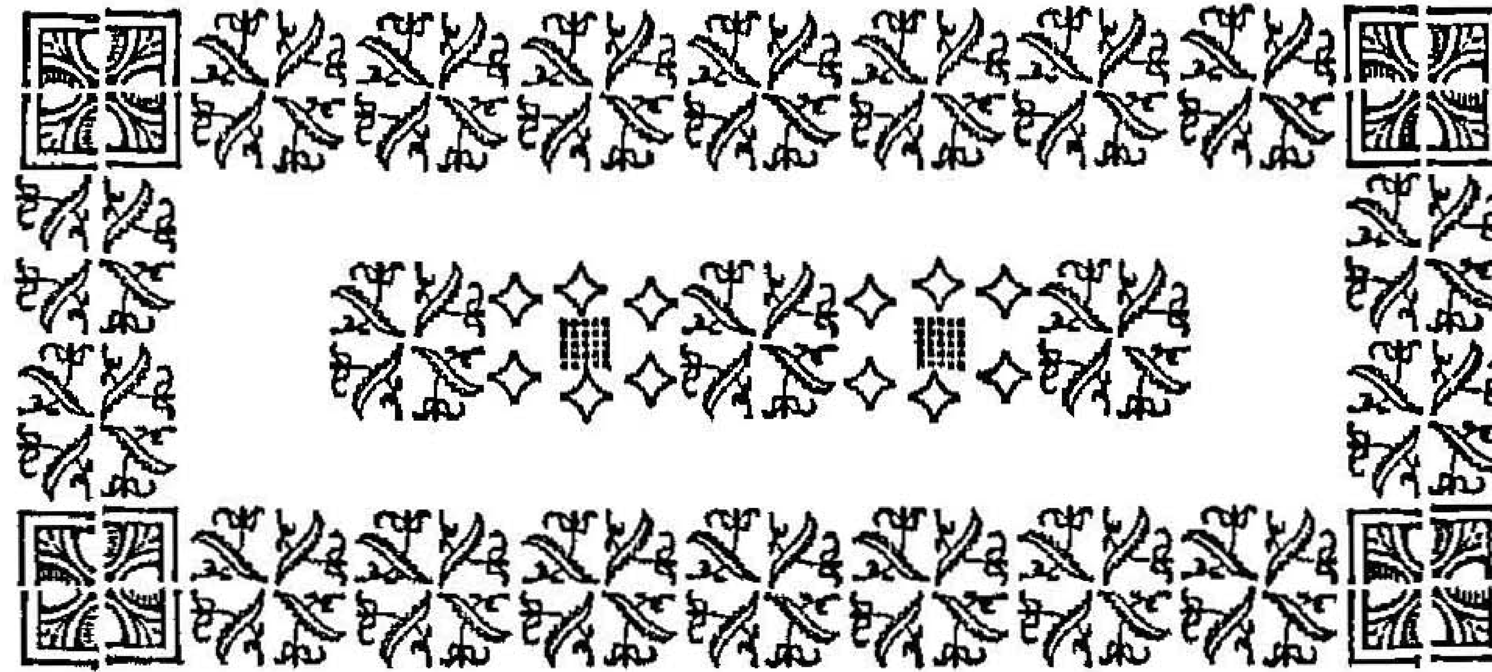
وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

ولا شك أن فقيدنا العزيز المرحوم الشيخ أحمدهريدى قد ترك من ذلك كثيرا ، فقد ترك العلم الذى ينتفع به ، وترك الأولاد الصالحين الذين سيدعون له بالرحمة والمغفرة إن شاء الله .

وإننى باسم السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية والسادة أعضاء المجمع والسادة العاملين فيه نتقدم بالعزاء الخالص لأسرة الفقيد ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يتغمده ، بواسع رحماته وأن يسكنه فسيح جناته ، وأن يجزيه عن العلم والدين خير الجزاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد الطيب النجار
عضو المجمع



كلمة الدكتور توفيق الطويل فى تأبين فقيد المجمع

المرحوم الدكتور



سيدى الرئيس ، سيداتى وسادتى :

نودع اليوم وما أقسى أن نودع ، نودع علما من أعلام الفكر الاقتصادى فى مصر وفى عالمنا العربى ، سايرت مؤلفاته التغيرات التى أدركت الأوضاع المالية والاقتصادية فى وطنه ، وأضاءت الطريق لتطورات مصر اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، ذلك هو زميلنا العالم المغفور له الأستاذ الدكتور حسين خلاف .

كان فقيدنا ، بالإضافة إلى سعة علمه وأصالة تفكيره ، نسمة حلوة هادئة يطمئن لها كل من قدر له أن يعاشره أو يصاحبه ، قضى أيامه فى مجمعنا الموقر فى هدوء ، يشارك فى مناقشات مجلسنا فى هدوء ، أو يلوذ بالصمت هادئا ، لا تستثيره كلمة ولا يحرك انفعالاته حدث ، يكاد لا يعرف الجلبة أو الضوضاء ، ولكنه كان فى صمته معبرا ، وفى هدوئه أخاذا ، عاش بيننا سنوات لم نسمع صوته إلا رقيقا ، ولا عباراته إلا مهذبة لطيفة ، ولم نجد فى عشرته إلا ما يحلو للعشير من عشيره ، كان يحضر الجلسات مصغيا يقظا صامتا ، فإذا تكلم نطق وئيدا ، أو أشار بأصبعه فى رفق وعلى مهل ، وهو فى سريرة نفسه يتولاه الرضا ، ويشيع فى كيانه الاطمئنان .

تخرج فقيدنا فى كلية الحقوق سنة ١٩٣٤ وبعد خمس سنوات نال الدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة باريس ، وبعودته إلى مصر عين مدرسا ، فأستاذا مساعدا فأستاذا للمالية العامة والاقتصاد السياسى فى كليتى الحقوق بجامعتى القاهرة والإسكندرية ، فعميدا بكلية التجارة فى بغداد سنة ١٩٤٩ ، فأستاذا متفرغا للمالية العامة بقسم الدراسات العليا ، فأستاذا للاقتصاد السياسى ورئيسا لقسمه فى معهد الدراسات العربية العالية .

وكانت لفقيدنا حياته العلمية النظرية الخالصة ، وحياته العملية المحضة ، وتركت قدرته على الجمع بين النظر والعمل بصمات واضحة فى منهجه فى التفكير والتنفيذ فى شتى المسائل التى عرض لها دارسا أو منفذا فمنذ أن كان فى بعثة فى باريس تخصص حسين خلاف فى موضوع الضرائب وجعل رسالته الأولى « ضريبة التركات فى مصر من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية » ورسالته الثانية « ضريبة التركات فى مصر من الناحية التشريعية » وافتتح بهذا باب الدراسات الضريبية فى جامعاتنا المصرية .

وفى مؤلفاته يتمثل الجانب النظرى العلمى من حياته ، وكانت كتاباته وثيقة الصلة بأحداث مصر الاجتماعية وحياتها السياسية التى عايشها ، فما مرت مصر بتطور غير أوضاعها الاقتصادية أو الاجتماعية إلا وتقدم عالمنا حسين خلاف بكتاب أو بحث يلقى أضواء ترفع ظالمه أو تبدد حيره ، وتنير الطريق إلى حيث ينبغى أن يسير وطنه ، ففى الثلاثينيات ألغت مصر الامتيازات الأجنبية ، واستردت حريتها فى إصلاح نظامها الجمركى وتعديل نظمها المالية فسايرت بحوثه العلمية هذا التطور ، فحين نشأت جامعة الإسكندرية عام ١٩٤٢ كانت بلدية الإسكندرية قد تحررت من تنظيمات الامتيازات الأجنبية . فأصدر فقيدنا كتابه « مالية بلدية الإسكندرية » ، فلما انتهجت مصر سياسة اشتراكية فى الخمسينيات والستينيات ، وتطورت أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية قدم فقيدنا كتابه « التجديد الاقتصادى المصرى » .

وقد كان فقيدنا طبعا على وعى بما يقول ، فكان يخطط لمشروعات كتبه قبل تأليفها بحيث تتلاءم مع واقع مصر وتطوراتها ، فمن ذلك أنه فى كتابه عن تطور الإيرادات العامة فى مصر الحديثة —وقد صدر سنة ٦٦— يتحدث فى الباب الثانى عن تطور الضريبة فى مصر من حيث أغراضها الاقتصادية والاجتماعية ، ومستقبل الضريبة فى مصر بعد تحولها إلى النظام الاشتراكى . . . وشبيه بهذا ما نراه فى سائر كتبه . واستقبله مجمعنا اللغوى عضوا به سنة ١٩٧٩ ، وفى داخل المجمع كان عضوا بلجنة الجوائز ومقرر اللجنة الاقتصادية التى قدمت فى عهده إلى مجلس المجمع ومؤتمره فى ثلاث دورات (٤٨ — ٥١) مئتين وخمسة وثلاثين مصطلحا ترجمة وتعريفا ، وكانت المصطلحات قد وردت إلى اللجنة فى مركز التنمية الصناعية عن مجال التكاليف ، وكان رحمه الله من المعنيين بحركة التجديد والإحياء فى الحياة العربية فى العصور الحديثة ، فى نواحيها المعنوية والمادية : أدبية ولغوية ودينية واقتصادية وتشريعية وتعليمية ، كما أشار إلى ذلك فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٦٢ عن التجديد فى الاقتصاد المصرى . .

«وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين» .

صدق الله العظيم

وحين نزعت مصر إلى التصنيع منذ الثلاثينيات . وظهرت علاقات صناعية جديدة كان لها آثارها الاجتماعية والاقتصادية ، قدم فقيدنا كتابه «نقابات العمال فى مصر» محللا تلك العلاقات وموقف المشرع منها .

واتجهت إليه الأمم المتحدة تستعين بعلمه وخبراته ، فاستجاب لها بما كتبه سنة ٧٧ عن التعاون التقنى بين البلدان النامية فى منطقة غربى آسيا ، كما كتب بحثا عن الآثار الاقتصادية الناجحة فى غلق قناة السويس وقدمه إلى مؤتمر التجارة والتنمية فى سانتياجو بشيلى . . .

وهكذا كانت مؤلفاته وبحوثه — التى اخترنا نماذج منها — كانت أضواء على الطريق . يكتبها لمعالجة أزمة تمر بمصر أو بالعالم العربى أو الدولى ، فيقدم بكتاباته حلا لإشكال ، أو أضواء تنير طريقا مظلما أو ترشد حائرا تائها .

أما عن حياة العمل والتنفيذ فقد عين فقيدنا رئيسا لبعثة جمهورية مصر إلى مقر الأمم المتحدة فى جنيف ، وشارك فى وفد الأمانة العامة للجامعة العربية ، وكان عضوا فى مجلس اتحاد الدول العربية المتحدة سنة ٥٨ وكان وزيرا مشرفا على العلاقات الاقتصادية والفنية مع اليمن والجزائر ، ثم مستشارا اقتصاديا لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، ثم مشرفا على الحوار العربى الأوربى فى الجامعة العربية . وقد تولى وزارة العلاقات الثقافية الخارجية سنة ٦٤ ، ٦٥ فاهتم بالعلاقات غير السياسية بين مصر وغيرها من الأمم ولا سيما التالى منها ، من ناحية التعاون الفنى والثقافى والاقتصادى .

وكان مقررا للمؤتمر الأول للاقتصاد بين العرب (وهو الذى عقد فى القاهرة عام ٦٠) فوجه الجهود إلى توحيد المصطلحات الاقتصادية تلافيا للاضطراب الذى يقع بسبب تعدد مدلولاتها ، وكان الفقيد رئيسا مؤسسا للجنة الاقتصادية فى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فأسهم فى وضع معجم اقتصادى بالعربية» .

وهكذا نرى من نشاطه العلمى والعملى أن إنتاج فقيدنا كان غزيرا ومتنوعا فى المجالات الاقتصادية والتشريعية والاجتماعية واللغوية والوطنية والعربية والدولية .

سيدى الرئيس ، سيداتى وسادتى :

«كل نفس ذائقة الموت . وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار

وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

صدق الله العظيم

رحمك الله ياحسين ، وسلام عليك فى الخالدين ، وسلام على أهلك ومحبيك . ألهمهم وألهمنا الله الصبر على فراقك . وسلام عليك من زملائك فى مجمعنا . من حضر منهم ومن تغيب ، وتحية لك مع النبيين والصديقين ، وسلام عليك يوم ولدت ويوم تبعث حيا » .

تغمد الله فقيدنا بفيض رحمته ، وجزاه عنا خير الجزاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

توفيق الطويل
عضو المجمع

